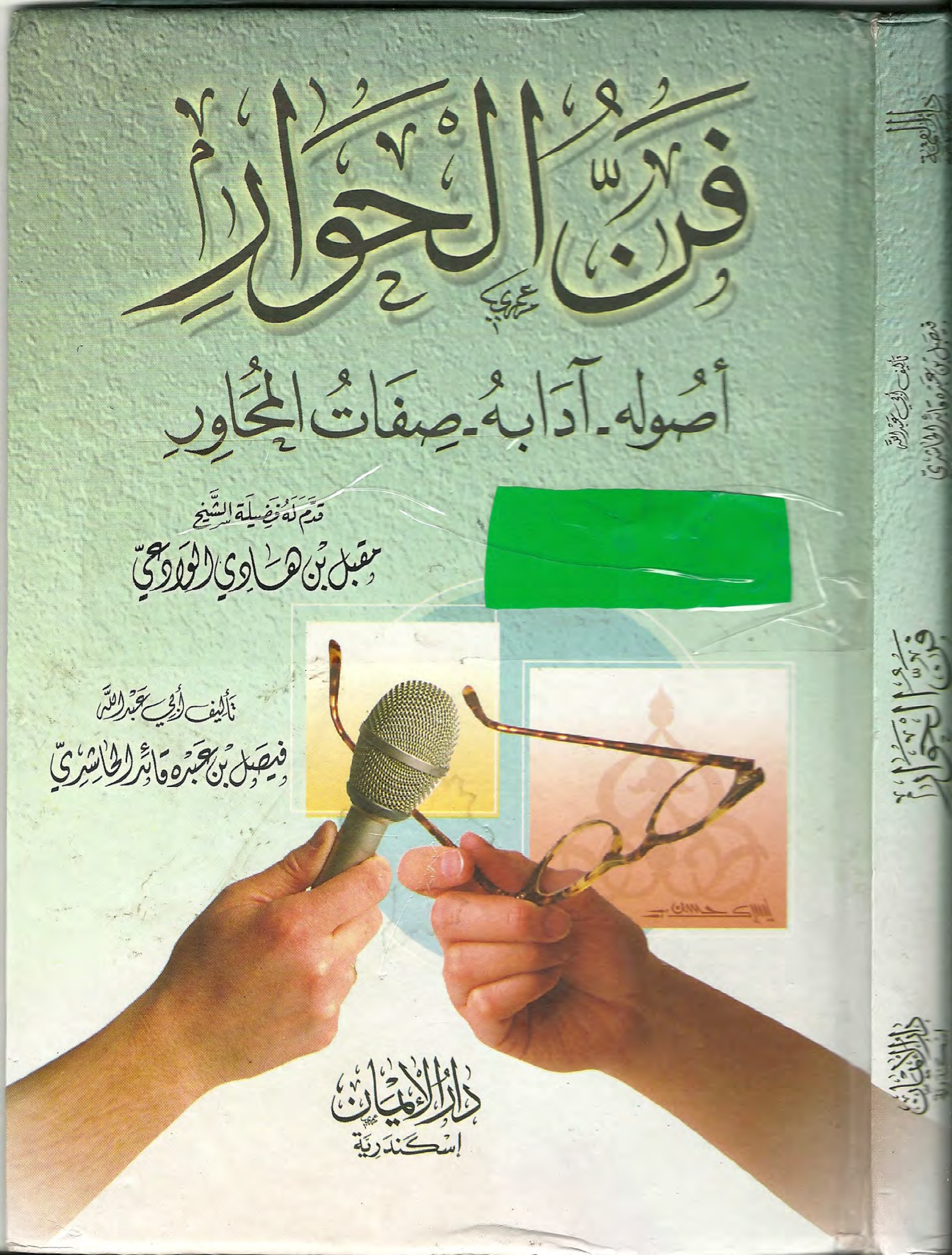

فن الحوار
علمي
أصوله - آدابه - صفات المحاور
قدم له فضيلة الشيخ
مقبل بن هادي الوادعي
تأليف أبي عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي
دار الإيمان
إسكندرية



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ١٣٤٦٧ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى
977-331-214-3

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

فن الحوار

أصوله - آدابه - صفات المحاور

قدم له فضيلة الشيخ

مقبل بن هادي الوادعي

تأليف أبي عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
الإسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصَحْبِه ، وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لا شريكَ له ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عَبْدُهُ ورسولُهُ ﷺ .

أمَّا بعد :

فقد اطَّلعتُ على بعض المواضيعِ من رسالة أخينا الفاضل أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشديِّ الموسومة بـ« فَنِّ الحوار » ، فوجدتُ فيها فوائدَ تُشَدُّ لها الرِّحال ، استفادها من مصادر شتَّى ، فجزاه الله خيرًا .

وأخونا فيصل بن عبده قائد الحاشديُّ أَهْلٌ للكتابة في مثل هذا ، فقد أفاد وأجاد ، واقتنص فوائد وشوارد تُثْلج صدور القُرَّاء .

والأخ فيصل أعرفه مُحبًا للسُّنَّة ، وغيورًا عليها ، ومُبْغِضًا لِلبِدْعَة والحزبيَّة ، قد فتح الله عَليه ، ووهبه ذكاءً خارقًا .

أسألُ الله أن يمُنَّ علينا وعليه بمواصلة السَّير لخدمة الشرع الشريف ، والحمد لله ربِّ العالمين

مُقبل بن هادي الوادعي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إنَّ الحمد لله ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعينه ، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شريك له ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ ورسُولُهُ .

أمَّا بعدُ (١) :

فهذه رسالةٌ بعنوان « فنّ الحوار » أُقدِّمها للقارئ الكريم ، وأُحِبُّ أنْ أُنبِّهَ إلى أنَّ خُلاصة هذه الرِّسالة كانت خاطرةً ألقيتُها على بعض الشباب الطَّيِّبين الذين أُحبُّهم .

أُولَئكَ أَصْحابي فَحيَّ هلا بِهِمْ ... وَحَيَّ هلا بالطَّيِّبين وأنعُمُ
ويا لائمي في حُبِّهِمْ وولائِهِمْ ... تَأَمَّلْ - هدَاكَ اللهُ - مَنْ هُمُ أَلْوَمُ

واستجابةً لرغبة بعض إخواني أُقدِّمها اليوم مطبوعةً بعد تعديلات وإضافات، اقتضاها تحويلها من الخطاب المسموع إلى الكتاب المقروء ، مع قناعتي بأنَّها غير وافية ، لكنِّي مُتأكِّدٌ بأنِّي لو تركتها إلى أن ترضى عنها نفسي كُلَّ الرِّضَى ، لضاعَتْ بين التَّسويف والتَّشاغل ؛ فاختَرتُ نشرها بدلاً من الانتظار لغيبٍ لا ندري ما الله صانعٌ فيه ، ولاسيَّما أنَّ الحاجةَ داعيةٌ إلى طرقِ هذا الموضوعِ المهمِّ ، والتَّأكيد عليه في أوساطِ طَلَبَةِ العلمِ والدُّعاة الَّذين عناهم ابن عبد البرِّ النَّمَريُّ - رحمه الله - في الثناء على أهلِ الجهادِ بالحُجَّةِ ، الذي اعتبرهُ ابن القيِّم أكبر الجِهادين (٢) .

---

(١) مختصر صحيح مسلم رقم (٤٠٩) ، وهذه الكلمات كانتْ سببًا في إسلام الصَّحابي الجليل ضماد الأَزْديِّ رضي الله عنه ، لَمَّا سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٢) انظر كلامًا متينًا لابن القيِّم في كتابه « مفتاح دار السَّعادة » (١/ ٧٠) .

أَهْلاً وسَهْلاً بالذين أُحِبُّهُم وأَوَدُّهُم في الله ذي الآلاءِ
أَهْلاً بقومٍ صالحينَ ذَوِي تُقَى غُرٍّ [١] الوُجُوه ، وزَيْنِ كُلِّ ملاءِ
يَسْعَوْنَ في طَلَبِ الحديث بعفَّة وتوقُّرٍ ، وسكينَةٍ ، وحَيَاءِ
لَهُمُ المَهَابَةُ ، والجَلالَةُ ، والنُّهَى [٢] وفَضَائِل جَلَّتْ عَنِ الإحْصَاءِ
ومِدَادُ ما تَجْري بِهِ أَقْلامُهُم أَزْكَى وأَفْضَلُ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ
يا طَالِبي عِلْمِ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ مَا أَنْتمُ وَسِوَاكمُ بِسَوَاءِ [٣]

ولا شكَّ أنَّ العلمَ بموضوع الحوار ، والإحاطة بتفاصيله ، والتَّسلُّح بالحُجَج والبراهين ، سلاح ماضٍ بيد المُحاور الناجح ؛ إذ يُمكِّنه من الوقوف على أرضٍ ثابتةٍ ، وليس على رمالٍ مُتحرِّكةٍ ، فالمستيقن من الحقِّ الذي معه تراه مطمئنَّ الخاطر ، آمنًا على مذهبه من صولة الباطل ، فينطق عن أَنَاةٍ ، وتخيُّرٍ للأقوال الصائبة ، والعرب تقول : « قَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ » ، أي : هَيِّئِ الأمرَ وأعِدَّه قَبلَ حاجتَكَ إليه [٤] .

أمَّا مَنْ لم يكنْ عَلَى بصيرَةٍ من رأيه ، فإنَّه ينزعجُ عند الحوار ، ويطيشُ به الجدل حتَّى يقذف بالسِّباب ، ويلفظ بالكلام الذي لا قيد له ولا زِمام من قبل أنْ يُقيمَ له وزنًا ، والعرب تقول : « عِنْدَ النِّطاحِ يغلبُ الكبشُ الأجم » ؛ لأنَّه فعل ذلك من غير عُدَّةٍ هيَّأها [٥] .

فالحوار وسيلةٌ مهمَّة من وسائل الدَّعوةِ إلى الله ، وبقدر ما يكون الدَّاعيةُ مُتمكِّنًا من فنِّ الحوار ، مُحيطًا بجوانبه ، بقدر ما يكون أقدر على النَّجاحِ .

---

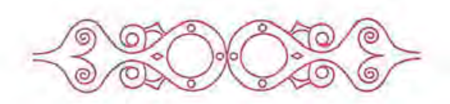
(١) غُرٌّ : بِيْض ، مفرده أغَرُّ .
(٢) النُّهى : العقول الفاهمة ، مفردها نُهْيَةٌ ، سُمِّي العقل بذلك ؛ لأنَّه ينهى صاحبَهُ عن مُقارفة كُلِّ قبيحٍ .
(٣) « جامع بيان العلم » (١/٣١) .
(٤) « الأمثال » (ص٢١٥) .
(٥) المرجع السابق (ص٢١٥) .

وإنِّي لَمُعْتَـرفٌ بالتَّقصير في تناوله سَلَفًا ، فـعلَى مَنْ رأَى خطأً أو نقصًا أن يُرشدني إلى الصَّوابِ مشكورًا ، فالمؤمنون نَصَـحَة ، والمؤمن مرآة أخيه المؤمن ، وقـديمًا قـال إبراهيم الصّوليّ : « المتـصفِّحُ للكتـاب أَبْصَرُ بمواقع الخَلَلِ فـيه من مُنْشئه » (١) ، ورحمَ اللهُ العماد الأصفـهانيَّ القائل : « إنِّي رأيتُ أنَّهُ لا يكتب إنسانٌ كتَابًا في يومه إلاَّ قال في غَـدِهِ : لو غيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيدَ كذا لكان يُسْتَحْسَنُ ، ولو قُـدِّمَ هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العِبَرِ ، وهو دليلٌ على استيلاءِ النَّقْصِ عَلَى جُملَة البشرِ » .

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله ، عليه توكَّلتُ ، وإلَيْهِ أُنيب .

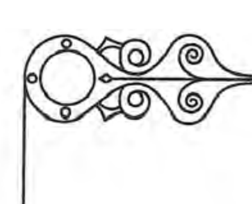
والحمد لله ربِّ العالمين

فيصل بن عبده قائد الحاشدي



---

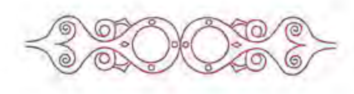
(١) « الأعلام » (٤/١)



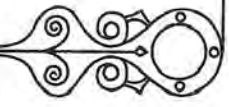
تمهيد



- تعريفُ الحِوارِ .
- عنايةُ القرآنِ بِالحِوَارِ .
- عنايةُ السُّنَّةِ بالحِوَارِ .
- عنايةُ السَّلَفِ بالحِوَارِ .







تعريف الحوار

الحوار :

أصله من الحَوْر (بفتحِ الحـاء وسكون الواو) : وهو الرُّجوع عن الشَّيء ، وإلى الشَّيء .

قال لَبيدُ بن ربيعة :

وما المرْءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وضَوْئِه ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إذْ هُوَ ساطِعُ

يُقال : حَارَ ، يَحُورُ ، حَوْرًا وحؤورًا : رَجَعَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانشقاق : ١٤] ، أي يرجع إلى ربِّه ، وقوله ﷺ : « ومَنْ دعَا رجُلاً بالكُفرِ ، أو قال : عَدُوَّ الله ، وليسَ كذلك إلاَّ حَارَ عليه » [١] ، قال النَّوويُّ - رحمه الله - : « حَارَ عليه - وهو معنى رَجَعَتْ عليه- : أي رَجَعَ الكفر عليه ، فبَاءَ وحَارَ وَرَجَعَ بمعنًى واحدٍ » [٢] .

والمحار : المرْجِع .

قال الشاعر :

نَحْنُ بَنُو عَامِرِ بْنِ ذبيان ... والنَّاسُ حَمام مَحَارُهُم للقُبُورِ

والمحاورة : المجاوبة . والتَّحاور : التَّجاوب ، يُقال : تحاوروا : تراجعوا الكلام بينهم ، وأحَارَ عليه جوابَهُ : رَدَّهُ ، واستحاره : استنطقه .

فالحوار إذًا في اللغة : هو الرُّجوع والمجاوبة .

وفي الاصطلاح : هو مُراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرَّدُّ فيه [٣] .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه .
(٢) شرح النَّووي (٢/ ٥٠) .
(٣) الحوار (ص ٢٠) .

ومِنْهم مَنْ عَرَّفَه بأنَّه : نوعٌ من الحديث بين شخصين أو فريقين ، ويتمُّ فيه تداول الكلام بينهما بطريقةٍ مُتكافئَة ، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر ويغلب عليه الهدوء ، والبُعد عن الخصومة والتَّعصُّب (١) .

وقد وردَ لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴿٣٤﴾ ﴾ { الكهف : ٣٤ } .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ { الكهف : ٣٧ } .

والثَّالث : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ . { المجادلة : ١ } .

ومن المُصطلحات القريبة من معنى الحوار :

[١] المجادلة :

أصلها من الجدل ، ومادَّة جدل في اللُّغة تدلُّ على الشدَّة والقُوَّة .

قال ابن منظور : « الجدل : هو شدَّة الفتل ، وجدلتُ الحبل أجدله جدلاً إذا شددت فتله ، وفتلته فتلاً مُحكمًا ، ومنه قيل لزِمام النَّاقة : الجَديل » (٢) .

وقال **الجوهريُّ** : « التَّجديل : هو الزِّمام المجدول من آدم ، **ومنه قول امرئ القيس** :

---

(١) « أصول الحوار » (ص٦) .
(٢) « لسان العرب » (١١/١٠٣) .

وكَشْحٍ[١] لطيفٍ كالتَّجـديلِ مُخَصَّرٍ[٢]   وَسَاقٍ كأنْبوبِ[٣] السَّقْيِّ المُذلَّلِ[٤]

وغلام جادل : مُشتدٌّ ، وجدل الحَبُّ في سُنبُلِه : قوي .

قال الأصمعيُّ : الجـادل من ولد النَّاقة : الراشح ، وهو الذي قوي ومَشَى مع أمِّه » [٥] .

وقال ابن مـنظور : « الأجدل : الصَّـقر ، صنعـة غالبة ، وأصلـه من الجدل الذي هو الشِّدَّة » [٦] .

وقال - أيضًا - : « والجَـدَلُ : اللَّددُ في الخصومة والقُـدرَة عليها ، ورجل جدل ، إذا كان أقوى في الخصام ، والجَدَلُ : مُقابلة الحُجَّة بالحُجَّة ، والمُجادلة : المناظرة والمخاصمة » [٧] .

والجدل في الاصطلاح : هو دَفْعُ المَرْءِ خَصْمَهُ عن إفساد قوله بحجَّةٍ أو شبهةٍ ، أو يقصد به تصحيح كلامه ، وهو الخصومة في الحقيقة [٨] .

قال النَّوويُّ - رحـمه الله - : « الجدل والجـدال والمجادلة : مُقابلة الحـجَّة بالحجَّة ، وتكون بـحقٍّ وباطلٍ ، وأصله : الخصومة الشـديدة ، ويُسمَّى جدلاً ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُحكِم خصومته وحُجَّتـه إحكامًا بليغًا على قَدْر طاقته تشبُّهًا بجدل الحبل ، وهو إحكام فتله » [٩] .

---

(١) **الكَشْحُ** : ما بين الخاصرة إلى الضلْع الخلف .
(٢) **المُخَصَّر** : الدَّقيق الخصر .
(٣) **الأنبوب** : ما بين العقدتين من القصب وغيره .
(٤) **السَّقيُّ المُذلَّل** : يعني البردي المَسْقِيَّ الملين بالإرواء يُريدُ تشـبيه كَشْحِ مَحبوبته بزمـام النَّاقة المُتَّخَذ من الجلد ، وساقها بنباتة البردي المسقيَّة كثيرًا .
(٥) « الصحاح » (٤/١٦٥٣) .
(٦) « لسان العرب » (١١/١٠٤) .
(٧) المرجع السَّابق (١١/١٠٥) .
(٨) « التعريفات » (ص٧٨) .
(٩) « تهذيب الأسماء واللغات » (٣/٤٨) .

ويكون الغرض منه إلزام الخصم ، والتَّغلُّبِ عليه في مقام الاستدلال [١] .

ولفظ الجدل ورد في القرآن الكريم في تسعةٍ وعشرين موضعًا ، كلُّها في سياق الذمِّ إلا في ثلاثة مواضع :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحل : ١٢٥] .

والثَّاني : قوله تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . [العنكبوت : ٤٦] .

والثالث : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة : ١] [٢] .

وقد أُطلق الجدال في هذه الآية على الحوار ، وهو مراجعة الكلام بينَ النبيِّ ﷺ وخَولة بنت ثعلبة رضي الله عنها .

أمَّا في السنَّة : فالأحاديث التي ورد فيها لفظ الجدل على إطلاقه ، فتدل على كراهيته ، فمن ذلك حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه ، إلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ » ، ثُمَّ تلا رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) ﴾ [الزخرف : ٥٨] [٣] .

فالجدل - إذًا - لم يُؤْمَرْ به ، ولم يُمدَحْ في الكتاب أو السُّنَّة على إطلاقه، بل الأصل فيه أنَّه مذموم ، ما لم يُقَيَّدْ بالحُسْنَى أو بالحقِّ : كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥]، وقوله تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا

(١) « تاريخ الجدل » (ص٥) .
(٢) انظر : « استخراج الجدال من القرآن الكريم » (ص٥١ ، ٥٢) .
(٣) رواه الترمذيُّ في التَّفسير (٣٢٥٣) ، وابن ماجة في السُّنَّة (٤٨) ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢/٥٦٣٣).

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ومن ذلك تبيَّن الفرق بين الحوار والجدل ، إذ أنَّهما يلتقيان في كونهما حديثًا أو مراجعةً للكلام بين طرفين ، ويفترقان في أنَّ الجدال فيه لَدَدٌ في الخصومة ، وشدَّةٌ في الكلام مع التَّمسُّك بالرَّأي ، والتَّعصُّب له .

أمَّا الحوار فهو مجَرَّد مراجعة الكلام بين الطَّرفين دون وجود خصومة بالضَّرورة ، بل الغالب عليه الهدوء ، والبُعد عن التَّعصُّب ونحوه [١] .

[٢] المناظرة :

المناظرة لغةً مُشتقَّة من النَّظر ، والنَّظر : تأمُّل الشيء بالعينِ ، وقد نظرت إلى الشَّيء [٢] .

والتناظر : التَّقابل ، يُقال : تناظرتِ الدَّاران : تَقابَلَتا ، ونظر إليك الجبلُ : قابلك .

والنظر : الفكر في الشيء تُقدره وتقيسه منك .

فالنَّظر يقع على الأجسام والمعاني : فما كان بالأبصارِ فهو للأجسامِ ، وما كان بالبصائر كان للمعاني [٣] .وفي الحديث : « مَنِ ابْتَاعَ [٤] مُصَرَّاةً [٥] فهو بخير النَّظَرَيْنِ [٦] » [٧] ، أي : خير الأمرين .

---

(١) « الحوار » (ص٢٦) .
(٢) « الصحاح » (٢/ ٨٣٠) .
(٣) « لسان العرب » (٥/ ٢١٧) .
(٤) ابتاع : اشترى .
(٥) مصراة : التي صُرِّيَ لَبَنُهَا ، وحُقِنَ في ضَرْعها وجُمِعَ ، فلم يُحْلَبْ أيَّامًا ، وأصل التَّصْرِية : حَبْسُ الماء ، يُقال منه : صَرَّيتُ الماءَ : إذا حَبَسْتَه .
(٦) أي بعد أن يحتلبها ، فإن رضيها أمسكها ، وإن سَخِطها ردَّها وصاعًا من تَمْرٍ - أو غيره من الطَّعام إلاَّ الحنْطة - مقابل حَلْبَتها ، كما جاء في الحديث .
(٧) رواه البخاريُّ في البُيُوع (٢١٤٨) ، ومسلم في البُيُوع (١٥١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والإنظار: التَّأخير والإمهـال ، والمناظرة : أنْ تناظر أخاك في أمرٍ نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه [(١)] .

والنَّظير: المثل، يُقال: ناظرتُ فلانًا: أي صرتُ نظيرًا له في المخاطبة [(٢)] .

والمعنى الاصطلاحيُّ للمناظرة يرجع إلى النَّظير والمقابل في المخاطبة والكلام أو إلى النَّظر بالبصيرة من الجانبين في النّسبَة بين الشَّيْئَين إظهارًا للصَّواب [(٣)] .

وعلى المعنى الثاني فهي ممدوحة ، وقـريبة من معنى الحوار ، إلاَّ أنَّ المناظرة أدلُّ في النَّظر والتَّفكُّر ، كما أنَّ الحوار أدلُّ في مراجعة الكلام وتداوله [(٤)] ، أمَّا على المعنى الأوَّل فـلا تُمدح ولا تُذمُّ لِذاتِهـا ، وقد تنقلب المناظـرة جَدَلاً ، إذا كان هَدَفُها التَّغلُّب على الخَصْم من غير نظرٍ إلى الحقِّ .

[٣] المِرَاء :

وردَ المراء في الشَّرع على معنى المراجـعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ { الكهف : ٢٢ } .

كما ورد عَلَى معنى الجدال بالظُّنون الكاذبة، والتَّـخرُّصات الباطلة ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .
{ مريم : ٣٤ } [(٥)] .

والمراء يُطلق ويُراد به الجدال [(٦)] إلاَّ أنَّه غلب استعـماله في اصطلاح الأئمَّة على الجدال المذمـوم ، فاستـعمله بعض أهل العلم على الجـدال بالباطل ،وعن الباطل [(٧)] .

---

(١) « لسان العرب » (٥/٢١٧) .
(٢) المرجع السَّابق (٥/٢١٩) .
(٣) انظر « التَّعريفات » (ص٢٥) ، و«كشف الظُّنون » (١/٣٩) .
(٤) انظر « رسالة الحوار مع أهل الكتاب » (ص١١٥) .
(٥) « أصول الجدل والمناظرة » (ص١٨) .
(٦) « أصول الفقه » (٣/١٤١٦) .
(٧) « أصول الجدل والمناظرة » (ص١٨) .

قال أبو بكر بن العربيِّ : « أمَّا المِراءُ : فهي المجادلة فـيما تعلم أنَّه باطل ، أو على معنى البدعة » [١] .

واستعمله بعض العلماء فيمن فسد قصده وغرضه من الجدال [٢] .

قال ابن مُفلحٍ : « المراءُ : استخراجُ غضبِ المجادلِ » [٣] .

وقال أبو حامد الغزاليُّ : « المِراءُ : طَعْنٌ في كـلام الغير بإظهار خَلَلٍ فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار ميزة الكياسة » [٤] .

وقال ابن الوزير : « المراءُ : وهو ما يغلب عـلى الظَّنِّ أنَّه يُهيِّج الشَّرَّ ، ولا يقصد به صاحبُهُ إلاَّ حظَّ نفسه في غلبة الخُصومِ » [٥] .

[٤] المحاجَّة :

تُطلق المحاجَّة لغةً وشرعًا على التَّخاصم والجدال ، يُقال : رجل محجاج : أي جدل ، والتَّحاجُّ : التَّخاصم [٦] .

والكثير من المفسِّرين يُفسر المحاجَّـة بالجدال والتَّخاصم ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، قال الطَّبريُّ في معنى حاجُّوك : « أي خاصموك فيه بالباطل » [٧] .

---

(١) « قانون التَّأويل » (ص٦٧٥) .
(٢) « أصول الجدل والمناظرة » (ص١٩) .
(٣) « أصول الفقه » (٣/١٤١٦) .
(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/١١٥) .

تنبيهٌ مهمٌ على الإحياء :

قال شمسُ الدِّين الذَّهبيُّ - يرحمه الله - : « وأمَّا الإحياءُ ففيه من الأحاديث الباطلة جملةٌ ، وفيه خيرٌ كثيـرٌ ، لولا ما فيه من آداب ورُسُومٍ ، وزُهْدٍ من طرائق الحكماء ، ومُنحرفي الصُّـوفيَّة ، نسألُ اللهَ علمًا نافعًا » السِّير (١٩/ ٣٣٩) .

(٥) « العواصم والقواصم » (٣/٣٣٨) .
(٦) « لسان العرب » (٢/٢٢٦) .
(٧) « الطَّبري » (٣/٢١٤) .

وقال ابن كثير في الآية نفسها : « أي جادلوك في التَّوحيد » [١] .

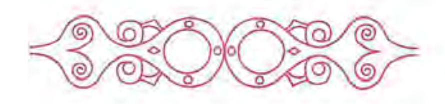
وقال ابن الجوزيّ - أيضًا - في نفس الآية : « حاجُّوكَ : أي جادلوك وخاصموك » [٢] .

أمَّا الحجَّة فتُطلق على البرهان والدَّليل ، تقول : حاجَّه محجَّةً : أي غلبه بالحجَّة [٣] ، والصَّحيح أنَّ الحجَّة : هي ما دُفِعَ به الخصم ، سواء أكان برهانًا صحيحًا ، أو شبهةً باطلةً ، وفي الحديث : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » [٤] ، أي غلبه بالحجَّة [٥] .

والفرق بين الحُجَّة والمحاجَّة : أنَّ الحجَّة قد تُمْدَحُ وقد تُذَمُّ ، وذلك بحسب إطلاقها ؛ لأنَّها تُطلق على البرهان الصحيح ، كما تطلق على الشُّبهة الفاسدة كما سبق بيانه ، وأمَّا المحاجَّة فإنَّها - في الغالب - مذمومة؛ إذ القصد منها دفع الخصم وردّه ، لا لبيان الحقِّ ، وهي قريبة من معنى الجدال والمخاصمة [٦] .

[٥] الخصومة :

وهي لجاج الكلام ؛ ليستوفي به مقصوده من مالٍ أو غيره ، وتارةً تكون ابتداءً ، وتارةً تكون اعتراضًا ، والمِراءُ لا يكون إلاَّ اعتراضًا [٧] .



---

(١) « ابن كثير » (١/٣٥٤) .
(٢) « زاد المسير » (١/٣٦٣) .
(٣) « الصحاح » (١/٣٠٤) .
(٤) رواه البُخاريُّ في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٩) ، ومسلم في القدر (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) « لسان العرب » (٢/٢٢٦) .
(٦) « الحوار » (ص٣١) .
(٧) « الأذكار » (ص٣٢٩) .

عناية القرآن بالحوار

عُنِيَ القرآن الكريم عنايةً بالغةً بالحوار ، وذلك أمرٌ لا غرابة فيه أبدًا ؛ فالحوار هو الطَّريقُ الأمثل للإقناع ، ففي القرآن الكريم نماذج كثيرةٌ من الحوار ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

[١] حوار ربِّ العزَّة والجلال مع الملائكة الأبرار عليهم السلام :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٢] .

[٢] حوار ربِّ العزَّة والجلال مع إبراهيم الخليل عليه السلام :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

[٣] حوار نوح عليه السلام مع قومه :

وهب الله سبحانه وتعالى نوحًا عليه الصَّلاة والسَّلام جَلَدًا وصبرًا في جداله مع الكافرين ؛ لإقناعهم بالحقِّ ، ولَبِثَ فيهم زمنًا طويلاً يُجادلهم بشتَّى الصور والوسائل بهمَّته العالية ، وعزيمته الصَّادقة ، ونَفَسه الطَّويل ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ

فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ .

{ نوح : ٥ - ١٠ } .

وبسبب هذه الجدِّيَّة الحارَّةُ ، والجَلَد العظيم ، والحرص الكبير على تبليغ أمر الله عزَّ وجلَّ الذي لا يعرف الضعف أو الكَلالَ ، تبرَّم به قومه [1] وملُّوا منه ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ { هود : ٣٢ } .

[٤] حوار إبراهيم عليه السلام مع الملك الكافر النُّمرود بن كَنْعَانَ في إثبات ربوبيَّة الله :

وهبَ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام قوَّةَ الحجَّةَ ، وظهور البرهان ، والقدرة على الإفحام ، قال الله سبحانه وتعالى مُبيِّنًا نعمته عى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ { الأنعام : ٨٣ } .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ { البقرة : ٢٥٨ } .

لله ما أعظم ذلك الجواب الهادئ المُسْكت ، وتلك الحُجَّة البيِّنة التي يشهد لها الجميع ، والتي لا يستطيع المحاورُ إنكارها ، أو حتَّى التَّدليس أو التحايل

---

(١) تبرَّمَ : تَضَجَّرَ .

على دلالتهـا ، الخلق قد شَهـد شروق الشَّمـس من جهة المشـرق قبل أن يكون النّمرودُ ، فإن كان إلهًا قادرًا ، فليُحاول أنْ يأتي بها من المغرب ! .

وهذا - أخي الحبيب - غَيْضٌ من فَيْضٍ ، ونقطةٌ من بحـرٍ ، ففي اليسير ما يغني عن الجمِّ الغفير ، ولكنَّها مجرَّد صورٍ ، وإن كان الشَّريط طويلاً في الكتاب العزيز ، والسِّجِلُّ حافلاً ، فقد قيل : « يكفيك من الزَّاد ما يُبلغك المحلَّ » .

ومن خلال الاطِّلاع على هذه الـنَّماذج وأمثالـها يتأكـد لنا أنَّ القرآن الكريم يعتمد اعتـمادًا كبيرًا على أسلوب الحوار ، مع روعة الفصـاحة والبلاغة وجلال البيان ، ولقـد أودع الله سبحانه وتعالى مـعاني كتابه في قوالب لفظيَّـة عربيَّة ، وزيَّنه بروعة الـفصاحـة ، وكساه حُلَّـة البلاغة وجـلال الإعجاز ، فـدُهشَتْ به العرب جـميعًا إذ سمـعته ، حتَّى قـال قائلهم [1] : « إنَّ له لَحَلاوةً وإنَّ عليه لطلاوةَ [2] وإنَّه لَمثْمرٌ أعلاهُ ، مُغْدِقٌ أسفَلُهُ ، وإنَّه لَيَعلُو ولا يُعْلَى عليه ، وإنَّه ليحطم ما تحتَهُ » [3] .

وفي هذا المعنى يقول الأخ أبو عبد الرّحمن عبد الرّزّاق الغول :

صَـاحَ الوَليـدُ لَـقَـدْ تَعَـالى اللهُ ... وكـلامُ ربِّ الـعَـرْشِ مـا أَحْـلاهُ

مَنْ لـي بقُـرآنٍ عَـلَيـه طلاوةٌ ... غَدَقِ الأسَـافِلِ ، مُـثْمـرٍ أَعْلاهُ ؟!

واللهِ ، مـا بَشَـرٌ يَفُـوهُ بِمِـثْلِهِ ... في الكَوْنِ ، بَـلْ لمحـمَّـدٍ أَوْحَـاهُ

---

(١) هو الوليد بن المُغيرة المخزوميُّ .

(٢) طلاوة - بتثليث الطّاء- : الحُسْن والبهجة .

(٣) هذه القصَّة أخرَجَها الحاكم في المستدرك من حديث عـبد الرزّاق عن معمر عن أيُّوب السختيانيّ عن عكْرمـة عن ابن عبَّـاسٍ رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث صـحيح الإسناد عـلى شرط البـخاريِّ ، ولم يخرِّجاه ، ووافقه الذَّهبيُّ (٢/ ٥٠٧)، وأخرجها البيهقيُّ في دلائل النُّبوَّة عن عبد الرَّزَّاق - أيضًا - كما أخرجها من طريقٍ آخر (٢/ ١٩٨- ٢٠٥) .

وخرَّ بعضُهم سُجَّدًا تعظيمًا عندما سمعه يُتْلَى ، وانجذبتُ إليه صناديد الكفر والعناد ، فكانوا يستمعون إليه تلذُّذًا وإعجابًا ، بل انقادَتْ إليه قلوب العرب والعجم عندما كشف السِّتار عن جماله ، وحاكى العقول ، لذلك خالطتْ محبَّته بشاشة القلوب ، حتَّى إنَّ نَفَرًا من الجنِّ انقادوا إليه عندما سمعوه يُتْلَى ، ورأَوا إعجازه ، وأيقنوا بسلطانه .

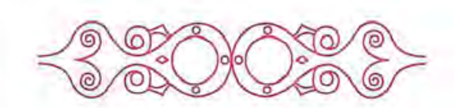
قال الله سبحانه وتعالى على لسانهم : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② ﴾ [الجن : ١ ، ٢] .

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمدّ بن إسماعيل الأمير الصنعانيّ - رحمه الله - :

أَتُعْــرِضُ عَنْهُ عَــنْ رياضِ أريضَــة ... ويعْتَاضُ - جَهْلاً - بالرِّياضِ هضَابُ
يُريكَ صِـراطًا مُسْتقيـمًا ، وغَيْرُهُ ... مَفَـاوزَ جَـهْلٍ كُلُّها وشِـعَابُ
يزيدُ عَلَى مَرِّ الجديدَيْنِ[1] مِنْ جِدَّة ... فَأَلْفاظُهُ - مَهْما تَلَوْتَ - عِذَابُ
وآيَاتُـهُ فـي كُـلِّ حِـينٍ طَـرِيَّـةٌ ... وتَبْلُغُ أَقْصَى العُمرِ وهي كِعَابُ
وفيـه هُدَى للعـالمينَ ورحـمـةٌ ... وفيـه عُلُومٌ جَـمَّـةٌ وثوابُ
فَكُلُّ كـلام غَيْـره القـشرُ لا سـوى ... وذا كُلُّـهُ عندَ اللَّبـيبِ لُبَـابُ
دَعُوا كُلَّ قَـوْلٍ غيره مـا سِوَى الَّذي ... أَتَى مِنْ رَسُـولِ الله فَـهُـو صَـوابُ
وعـضُّوا عليـه بالنَّواجـذ واصْبـروا ... عَلَيـه ولو لَمْ يَـبْقَ في الفَـمِّ نَابُ
تَرَوا كُلَّ ما تَرْجُـونَ مِنْ كُلِّ مَطْلَب ... إِذَا كـانَ فـيكم هِمَّـةٌ وغِـلابُ
أَطيلوا علَى السَّـبْعِ الطِّوالِ وُقُوفَكُمْ ... تُدرَّ علـيكم بالـعلومِ سَـحابُ
وَكَمْ مِنْ أُلوفٍ في المِئَتينِ ، وكَمْ بها ... أُلوفًا تَجِـد ما ضاقَ عنْها حسابُ

(١) الجَديدَيْن : اللَّيل والنَّهار .

وفي طَيِّ أثْناء المثاني نفائسٌ يطيبُ لها نَشْرٌ ، ويُفْتَحُ بابُ
وكَمْ مِنْ فُصُولٍ في المُفَصَّلِ قَدْ حَوَتْ أُصُولاً ، إليَها للذَّكيِّ مَآبُ
وما كان في عَصْرِ الرَّسول وَصَحْبِه سِوَاهُ لهَدْيِ العالمينَ كتابُ
تَلا « فُصِّلَتْ » لَمَّا أتاهُ مُجَادِلٌ فَأُبْلِسَ ، حتَّى لا يكونَ جَوَابُ
أَقَرَّ بأنَّ القَوْلَ فيه طلاوةٌ ويَعْلُوا ، ولا يعْلُو عليه خطَابُ
وأَدْبَرَ عَنْهُ هائمًا في ضَلالِهِ يُدَبِّرُ ماذا في الأنامِ يُعَابُ (١)



(١) ديوان ابن الأمير (ص٦٨) .

عناية السنة بالحوار

إنَّ سيرة الرَّسول ﷺ العطرةَ زاخرةٌ بالمواقف الحكيمة التي حاور فيها الرَّسولُ ﷺ قومه وحاجَّهم ، فعلى جادَّة المثال لا الحصر :

[١] حوار الرَّسولِ ﷺ مع عُتْبَةَ بْنِ رَبيعةَ :

أرسَلَتْ قريشٌ عتبةَ بْنَ ربيعةَ إلى الرَّسولِ ﷺ يُحادثه ، ويُفاوضه ويُغريه ، فجلسَ عتبةُ إلى الرَّسول ﷺ وقال : « يا ابْنَ أخي ، إنَّكَ منَّا حيثُ قد علمتَ من الشطر في العشيرة ، المكان في النَّسب ، وإنَّك قد أتَيت قومَك بأمرٍ عظيمٍ ، فرَّقتَ به جماعتهم ، وسَفَّهْتَ به أحلامَهُم ، وعِبْتَ به مَنْ مَضى من آبائِهم ، فاسْمَعْ مِنِّي أعرض عليك أمورًا لعلَّكَ تقبلُ بعضها » .

فقال الرَّسولُ ﷺ : « **قُلْ - يا أبا الوليد - أَسْمَع** » .

قال : « يا ابْنَ أخي ، إنْ كُنْتَ إنَّما تُريدُ بما جِئْتَ به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا ، وإنْ كُنْتَ إنَّما تُريدُ به شرفًا ، سَوَّدْنَاكَ علينا حتَّى لا نقطعَ أمرًا دُونَك ، وإنْ كُنتَ تُريدُ به مُلكًا ملَّكناك علينا ، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه ، لا تستطيعُ ردَّهُ عن نفسك ، طلبنا لك الطِّبَّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نُبَرِّئَك منه ، فإنَّه رُبَّما غلب التَّابع على الرَّجل حتَّى يُداوى منه » .

حتَّى إذا فَرَغَ عُتْبةُ ورسولُ الله ﷺ يستمع إليه ، قال : « **أَوَ قَدْ فَرَغْتَ يا أبا الوليد ؟** » ، قال : « نَعَمْ » ، قال : « **فاسمعْ منِّي** » ، قال : « أفعل » ، فقال رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) ﴾ .

[فُصِّلَتْ : ١ - ٤] .

ثُمَّ مَضَى رسولُ الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلمَّا سمعها أنصت لها ، وأَلْقَى يَدَهُ خَلْفَ ظهره مُعتمدًا عليها ، يسمع منه ، ثمَّ انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السَّجدة فيها فسَجَدَ ، ثمَّ قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ، فأنتَ وذاك » ، أي : وما تختار ، فقام عتبةُ إلى أصحابه ، فقال بعضهم :

« نحلفُ بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بوجهٍ غير الوَجْه الذي ذهب به » .

وطَلَبَ عتبةُ منهم أنْ يَدَعُوا الرَّسول ﷺ وشَأْنَهُ ، فَأَبَوْا وقالوا له :

« سَحَرَكَ يا أبا الوليد بلسانه » [(١)] .

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمدُ بن إبراهيم الوزير :

أَلَمْ تَرَ أنَّ المصطفى يومَ جَاءَهُ الـ ـوليدُ بِصَوْلِ الأَحوذيِّ المُجادلِ
تَجَنَّبَ مِنْهَاجَ المِرَا ، وتَلا لَهُ مِنَ السَّجْدَةِ الآياتِ ذاتِ الفَوَاصِلِ
ولم تَجعلِ القرآنَ غيرَ مصدِّقٍ إذا لم تقدّمْهُ دُروسُ الأَوائلِ
كذا فَعَلَ الطَّيَّارُ يَوْمَ خِطَابِهِ لأَصْحَمَةَ بَيْنَ الخُصُومِ المقاولِ
تَلا عليهم آيَ الكتابِ ، وأَيْقَنوا بها بشَهَادَاتِ الدُّموعِ الهَوَاطِلِ
إِلَى ذَاكَ صَارَ الأَذْكِيَاءُ مِنَ الوَرَى وعادوا إليه بَعْدَ بُعْدِ المراحِلِ [(٢)]

فانظر - أخي الحبيب - في حوار الرَّسول ﷺ مع عُتْبَةَ ، تجِدْ أكثر من درسٍ ، فعلى جادَّة المثال :

---

(١) « سيرة ابن هشام » (١/ ٣١٣) ، و« البداية والنِّهاية » (٣/ ٦٢) ، وقال الألبانيُّ في « فقه السِّيرَة للغزاليِّ » حاشية (ص١٣) : هذه القصَّة أخرجها ابن إسحاق في « المغازي» (١/ ١٨٥) بِسَنَدٍ حَسَنٍ .

(٢) « الرَّوْض الباسم » (٢/ ١٤٧) .

أنَّه ﷺ أحسن الاستماع لعُتْبةَ ، وقال له : « قُلْ يا أبا الوليد ، أَسْمَعُ » .

وفي قوله ﷺ : « يا أبا الوليد » أدبٌ جمٌّ ، وخُلُقٌ عظيمٌ ، حيث كنَّاه، ولم يَدْعُهُ باسمه ، وكانت العرَبُ تُحِبُّ المُناداةَ بالكُنْية .

ولَمَّا قال عُـتبةُ مـا عنـده ، أعـطاه الرَّسولُ ﷺ الفرصـة لإضافة شيءٍ قـد يَوَدُّ أنْ يقولَهُ ربَّمـا نَسِيَهُ ، أو غـفـل عنه ، وسأله : « أوَ قَـدْ فَرَغْتَ يا أبا الوليد ؟ »

ومعنى ذلك أنَّه أحسن الاسـتماع تمامًا ، وأعطى مُحدِّثَهُ الفـرصة ليقول من جديد دون أن يُعاجلَهُ ، فلمَّا سأله ليتـأكَّدَ من فراغه ممَّا لديه بدأ التِّلاوةَ ، وهذا قمَّـةُ الأدَب ، وقمَّة الذَّوق ، ممَّـا جعل الطَّرف الآخر تتـفتَّح نفسه للسَّـماع ، فكانت تلك المقدِّمة المحمودة لما جاء بعدها ، وهي تلاوة آياتٍ من الذكر الحكيم، تنتهي بسجدة سجدها عليه الصلاة والسلام ، ثُمَّ قالَ لعُتبةَ : « قَدْ سَمِعْتَ يا أبا الوليد ، فأنت وذاك » .

ففي تصرُّفه عليه الصلاة والسـلام أدبٌ عالٍ ، وذَوْقٌ جَمٌّ ، وحُسْنُ استماعٍ منه ، يستدعي حُسْنَ إصـغاء من عُتْبَةَ ، وهذا كُلُّهُ جعل عتبَةَ مُـستعداً للتَّلقِّي ؛ لذلك لا غَرابَةَ إنْ قال له قَومُهُ : « سَحَرَكَ - يا أبا الوليد - بلسانه »[1] .

وفي هذا المعنى يقول الأخ أبو عبد الرّحمن عبد الرّزّاق الغول :

هَلْ رأَيْـتُمْ مِـثْلَ عُـتْـبَـهْ ... عـاقـلاً ضَـيَّعَ لُبَّـهْ[2]؟!

يَمَّـمَ[3] الـبَـيـتَ بمكَّـهْ ... باغـيًـا ، غَـالَـبَ رَبَّهْ

يا مـحـمَّـدُ ، أنْتَ مِـنَّا ... لكَ فِـينَا خَـيْـرُ نِسْـبَـهْ

---

(١) « في أُصول الحوار » (ص١٩) .

(٢) اللُّبّ : العقَلُ الخالِصُ من الشَّوائبِ ، جمعه ألْبابٌ .

(٣) يَمَّمَ : قَصَدَ .

أنْتَ سَبَّيْتَ سُواعًا هُبَلاً دَاوَمْتَ سَبَّهْ
وتَنَقَّصْتَ حَلُومًا فِيكَ عَنْ قَومِكَ رَغْبَهْ
إنْ تَرُمْ (١) مُلْكًا تَجِدْهُ فَالمعالي بِكَ أشْبَهْ
فاقْبَلْ التَّسْوِيدَ ، أوْلا فالتَمِسْ عِلْمَ الأطِبَّهْ

[٢] حوار النَّبيِّ ﷺ مع الأنصار :

في أعقاب معركة حُنَيْنٍ وزَّعَ النَّبيُّ ﷺ الغنائمَ - وكانت كثيرةً - في قُريشٍ ، وفي قبائل العرب ، ولم يُعْطِ الأنصارَ منها شيئًا ، فغضب بعضُهُم ، حتَّى قال قائلهم : « لَقِيَ - واللهِ - رسولُ الله قومَهُ » .

فَدَخَلَ عليه سَعْدُ بنُ عُبادَةَ - وكان زعيمَ قومه الخَزْرَجَ - حَيٌّ من الأنصار - فقال : « يا رسولَ الله ، إنَّ هذا الحيَّ من الأنصار ، قد وَجَدُوا عليك (٢) في أنفسهم ؛ لما صنعْتَ في هذا الفَيْءِ الذي أصبت ، فقسَّمتَ في قومك ، وأعطيتَ عَطَايَا عِظَامًا في قبائل العرَب ، ولم يكُ في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ ! » .

فقال رسول الله ﷺ : « فأينَ أنتَ منْ قَوْمكَ يا سَعْدُ ؟ » .

قال : « يا رسولَ الله ، ما أنَا إلاَّ مِنْ قَوْمِي » .

قال : « فاجمَعْ لي قومَكَ في هذه الحظيرة » .

فخرجَ سعدٌ ، فجمع الأنصارَ ، فأتاهُم رسولُ الله ﷺ ، فَحَمِدَ الله ، وأثنى عليهِ بما هو أَهْلُهُ ، ثُمَّ قال : « يا معشَرَ الأنصار ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْني عنكم ، وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم ، أَلَمْ آتِكم ضُلاَّلاً فهداكم الله ، وعالةً فأغناكمُ

---

(١) تَرُمْ : تطلبُ ، أصله تروم ، فحذفت الواو تخلُّصًا من التقاء السَّاكنين .
(٢) وجدوا عليكَ : غَضَبوا عليكَ .

اللهُ ، وأعداءً فألَّفَ اللهُ بينَ قلوبكم ؟! » .

قالوا : « بَلَى ، اللهُ ورسولُهُ أَمَنُّ [١] وأفضلُ » .

ثمَّ قال : « أَلا تُجيبوني يا معشر الأنصار ؟! » .

قالوا : « بما نُجيبُكَ يا رسول الله ؟ ، للهِ ولرسولِهِ المَنُّ والفَضْلُ » .

قال : « أَمَا والله ، لو شِئْتُم لَقُلْتُمْ - ولَصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ - : أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرنَاكَ ، وطريدًا فآويناك ، وعائلاً فواسيناك . أَوَجدتم - يا معشرَ الأنصار - في لُعَاعة [٢] من الدُّنيا ، تألَّفْتُ بها قُلُوبَ قومٍ ليُسلموا ، وَوَكَلْتُكم إلى إسلامكم ؟ أَلاَ تَرْضَوْنَ - يا معشرَ الأنصار - أنْ يذْهبَ النَّاسُ بالشَّاة والبعير ، وتَرْجعوا برسولِ الله إِلَى رِحالكم ؟! ، فوالذي نفسُ محمَّد بيده، لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلك النَّاسُ شِعْبًا وسلكت الأنصارُ شِعْبًا ، لسلكتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهُمَّ ارحم الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصارِ ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ » .

فبكَى القومُ حتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ [٣]، وقالوا : «رَضِينا برسولِ اللهِ قسمًا وحظًّا » [٤] .

فتأمَّلْ تَرَ ، وانظرْ تجدْ في هذه الواقعة دروسًا عظيمةً بليغةً ومُفيدةً ، فالرَّسول ﷺ لم يَلُمْ سَعْدًا ؛ لأنه لم يَرُدَّ على الأنصار الذين غضبوا ، ولم يُناقشْهُ في حُجَّته التي فيها ما فيها ، بل إنَّه لم يسألْ عن الشخص الذي قال : «لَقِيَ والله رسولُ الله قَوْمَهُ » .

---

(١) أَمَنُّ : أفْعَل تَفضيل ، معناه أكثرُ منَّةً علينا وأعظَم .
(٢) اللُّعاعةَ : بقلة خضراء تستهوي العَين ، شبَّهَ بها الدُّنيا .
(٣) أخضَلوا لحاهم : أبَلُّوها بدموعهم .
(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٣٣٠) و (٧٢٤٥) ، ومسلمٌ (١٠٦١) عن عبد الله بن زيد .

وفيهـا أنَّه حاباهم فوق حقِّهم بدافع العـصبيَّة ، بل إنَّه سأل سـؤالاً عامّاً ؛ ليجعل الحـديث للجميع ، وليُواجِـهَ المشكلة من أساسها ، وبدأ بسـؤاله العاتب عليهم ، وثنَّى على ذلك بذكـر الفَضْل الكبير الذي فـاز به الأنصارُ إذ أسلموا ، فـانتقلوا من الضَّـلال إلى الهُـدَى ، ومنَ الفقـر إلى الغنى ، ومن العـداوة إلى التآلف ، ولمَّا كـان من البديهيِّ [(١)] أن يَجُولَ في قلوب الأنصـار أنَّهم - أيضًا - أعطوا الرَّسـولَ ﷺ ، ونصروه وصـدَّقوه - وهذه كُـلُّها مـزايا حقٌّ - قالهـا الرَّسولُ ﷺ ؛ ليُقرَّ لهم بالجميل ، فذكر أنَّهم صدَّقوه ، وقد جاءهم مُكذَّبًا ، ونصروه وقد جاءهم مخذولاً ، وآوَوْهُ وقـد جاءهم طريدًا ، وواسَوْهُ وقد جاءهم عائلاً ، وبعد أنْ عاتبهم من ناحيةٍ وأرضى قلوبهم من ناحيةٍ ، ختم كلامه معهم بأنْ أقرَّ لهم أنَّهم أعلى كَعْبًـا في الإسلام ؛ لذلك وَكَلَهم إلى إسلامهم ، ثمَّ بيَّن لهم المِنَّة الكُبْرَى التي فـازوا بها ، إذ يذهب النَّاسُ بالشَّاة والبعيـر ، أمَّا الأنصارُ فإنَّهم يعودون بخاتمِ الأنبيـاء إلى رِحالهم ، ثمَّ دعا بالرَّحمَةِ لهم ، ولأبنائهم ، ولأحفادهم ؛ لذلك لا غرابة أن وجدنا الأنصار يبكون ويفرحون ، ويقولون في سعادة :

« رَضِينَا برسول الله قسمًا وحظاً » [(٢)] .

لِيَبْكِ رَسـولَ الله مَنْ كـانَ باكـيًـا ... فـلا تَنْـسَ قَـبْـرًا بالمدينَـةِ ثاويا [(٣)]

جَـزَى اللهُ عنَّا كُلَّ خـيـرٍ مُحـمَّـدًا ... فَقَـدْ كانَ مَـهْدِيًا ، وقَـدْ كانَ هاديا

وقَد كـان رسولُ الله رَوْحًا ورحـمةً ... ونُـورًا وبُـرهـانًـا مِـنَ اللهِ بـاديـا

وكَـان رسـولُ اللهِ بالخَـيْـرِ آمِـرًا ... وكانَ عَـنِ الفَحْشـاءِ والسُّوءِ ناهـيا

(١) البديهيّ : الطَّبيعيّ .
(٢) « في أصول الحوار » (ص٢٢) بتصرُّف .
(٣) ثاويًا : مُقيمًا .

وكانَ رسولُ الله بالقِسْطِ قائمًا … وكانَ لمَا استرْعاهُ مَوْلاهُ راعيا

وكانَ رسولُ الله يَدْعُو إلى الهُدَى … فَلَبَّ رسولَ الله لَبَّيْه داعيا

أَيُنْسَى أَبَرُّ النَّاسِ بالنَّاسِ كُلِّهم … وأكْرمُهُمْ بيْتًا وشِعْبًا وواديا؟!

أَيُنْسَى رسولُ الله أكْرَمُ مَنْ مَشَى … وآثارُهُ بالمَسْجدَيْنِ كَمَا هيَا ؟!

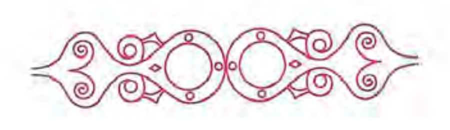
تكدَّرَ مَنْ بَعْدَ النَّبيِّ مُحمَّدٍ … عليه سلامٌ كُلُّ مَنْ كان صافيا

رَكِنَّا [1] إلى الدُّنيا الدَّنِيئَةِ بَعْدَهُ … وكَشَفَتِ الأطْماعُ منَّا مَسَاوِيا

وكَمْ مِنْ منارٍ كان أوْضَحَهُ لنا … ومِنْ عَلَمٍ أَمْسَى وأَصْبَحَ عافيا

إذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى … تَقَلَّبَ [2] عُرْيَانًا ، وإنْ كان كاسيا

وخَيْرُ خِصَالِ المَرْءِ طاعَةُ ربِّهِ … ولا خَيْرَ فيمَنْ كان لله عاصيا [3]



(١) الرُّكونُ إلى الشَّيءِ : الميلُ إليه ، والاعتمادُ عليه .
(٢) تقلَّبَ : تجرَّدَ .
(٣) « لطائف المعارف » (ص٢١٦) .

عنايةُ السَّلَفِ بالحِوارِ

فعلى هذا المنهاج العظيم في الحـوار والمناظرة سارَ سَلَفُنا الصَّالحُ رضوان الله عليهم ، فعلى جادَّة المثال :

[١] حوارُ جَعْفَر بْنِ أبي طالبٍ (١) رضي الله عنه مع أَصْحَمَةَ النَّجَاشيِّ : (٢)

أرسل النَّجاشيُّ إلـى أصحاب رسـول الله ﷺ ، فلمَّا جاءوا - وقـد دعا النَّجاشيُّ أساقفته، فنشروا مصاحفهم حولَهُ - سألهم قائلاً : «ما هذا الدِّينُ الذي فارقْتُم فيه قومكُم ، ولم تدْخُلوا ديني ، ولا دينَ أَحَدٍ من هَذه المِلَل ؟! ».

فأجـابَه جَعْفـرٌ قائلاً : « أيُّها المَلِكُ ، كُنَّـا أَهْلَ جاهليّةٍ ، نَعْـبُدُ الأصْنامَ ،

---

(١) هو ابن عمِّ الرَّسـول ﷺ ، وأَخُو عليٍّ بن أبي طـالب لأبويه ، أسلَمَ قَبْلَ أنْ يدخُلَ رسـولُ الله ﷺ دارَ الأَرْقَمِ بن أبي الأَرْقَم داعـيًا إلى الإسلامِ فـيهاَ ، فـهو منَ السَّابـقين الأوَّلينَ للإسلامِ ، وكانَ أميرَ المؤمنينَ المهاجرينَ إلى الحَبَشَة ، قَدمَ منَ الحـبَشَةَ إثْرَ فَتْحِ خَيْبَرَ، فالتَزَمَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وقَبَّلَ ما بينَ عَيْنَيه واعتنَقَهُ ، وقال : « وَالله ، مَا أَدْرِي بأيُّهما أُسرُّ : بقدُومِ جَعْفَر ، أمْ بفَتْحِ خَيْبَر ؟! » استُشْهِدَ رضي الله عنه في غَـزْوَة مُؤْتَةَ ، فبَـكَى عليه المسلمون ، ورثَاهُ الـصَّحابَةُ رضي الله عنهم ، فَـمنْ ذلك قَوْلُ حسَّان بن ثابتٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه :

وَلَقَـدْ بَـكَيْتُ ، وعَـزَّ مـهلكُ جَـعْـفَـرٍ … حبِّ الـنَّبـيِّ على البَـرِيَّـة كُلِّـهـا
وَلَقَـدْ جَـزِعْتُ ، وقُلْـتُ حينَ نُعِـيتَ لي : … مَنْ للجـلَّادِ لدى العِـقـابِ وَظلِّـهـا ؟!

ومناقبه مشهورةٌ ، وما أَصْدَقَ وَصْفَ زَوْجه أسماءَ بنت عُميسٍ له حين قالت : « ما رأَيْتُ شاباً من العَرَبِ كانَ خيراً من جَعْفَرٍ » ، وصَدَقَتْ في رِثائِه حينْ قالت :

فـآلَيْتُ لا تَـنْفَـكُّ نَفْـسِ حَـزِينَةً … عَلَـيْكَ ، ولا يَنْـفَكُّ جلـدي أَغْـبَـرَا
فـلله عَـيْنًـا مَنْ رأَى مِـثْـلَهُ فَـتـىً … أكَـرَّ وَأَحْـمَى في الهـيـاجِ وأصـبـر !

(٢) هو النَّجاشـيُّ أَصْحَمَـةُ بنُ الأبجَر مَلكُ الحبَشَةَ ، كـانَ مَلكًا صالحًا ، لا يُظْلَـمُ أحدٌ بأَرضه وفِـيه صلاحٌ، كتب إلـيه الرَّسولُ ﷺ كتابًـا معَ جَعْفَرٍ رضي الله عنه ، أرْسَلَهُ إليـه عَمْرُو بنُ أُمَيَّـةَ الضَّمريِّ ، يدعوه إلى الإسـلام ، وكَتَبَ إليه كتـابًا ، فأَسْلَمَ النَّجاشيُّ على يـدِ جَعْفَرٍ ، وصلَّى عليـه الرَّسولُ ﷺ صلاةَ الغائبِ حينَ بَلَغَهُ موتُه .

ونَأْكُلُ الميتَـةَ ، ونَأتي الفـواحشَ ، ونقْطعُ الأرحـامَ ، ونُسيءُ الجِـوارَ ، ويأكُلُ القَويُّ منَّا الضَّـعيفَ ، فكنَّا على ذلك حـتَّى بَعَثَ اللهُ رسولاً منَّا ، نعرفُ نسَـبَهُ وصدْقَهُ ، وأمَـانَتَهُ ، وعَفَافَـهُ ، فدَعَانَا إلى الله لنُوحِّدَهُ ونَعْبـدَهُ ، ونخلع ما كُنَّا نعبُدُ نحن وآباؤنا من دُونِه من الحِجَارةِ والأَوثان ، وأَمَرَنا بِصدْقِ الحديث ، وأداء الأمانةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وحُسْنِ الجِوارِ ، والـكَفِّ عن المحارمِ والدِّماء ، ونَهَانا عن الفواحش ، وقولِ الزُّورِ وأكلِ مالِ اليَتيم ، وقذفِ المُحْصَنَةِ ، وأَمَرَنَا أنْ نعبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ، ولا نُشْـرِكَ بِهِ شيئًـا ، فَأَمَرنا بالصَّـلاةِ والزَّكاةِ ، والصِّيـامِ - وعدَّدَ علينا أمور الإسلام - فصدَّقْـناه وآمنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبـدنا الله ، فعَدَا علينا قَومُنا ، فـعذَّبونا وفتنونا عن دينِنا ؛ ليـردُّونا إلى عبادة الأوثانِ من عبادةِ الله ، وأنْ نـستحلَّ ما كُنَّا نستحِلُّ من الخبائثَ ، فلمَّـا قهرونا وظلمـونا ، وضـيَّقـوا علينـا ، وحالوا بينـنا وبين ديننا ، خـرجنا إلى بلادك ، واختـرناك عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، ورغـبنا في جوارك ، ورَجَوْنَا ألاَّ نُظْلَـمَ عندكَ أيُّها المَلِكُ » .

فقال له النَّجاشيُّ : « هَلْ مَعَكَ ممَّا جاء به عَنِ اللهِ مِنْ شيءٍ ؟ » .

فقرأ عليه صَدْرًا من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ فبكَى النَّجاشيُّ حتَّى اخْضَلَّتْ لحيتُهُ (١) وبكَتْ أَسَاقِـفَتُهُ حتَّى أخـضلوا مصاحفـهم حين سمعوا مـا تلا عليهم (٢) ، ثمَّ قال: « إنَّ هذا والذي جاء به عيسى لَيَخْرُجُ من مِشْكَاةٍ (٣) واحدَةٍ » (٤) .

---

(١) اخضَلَّتْ لحيْتُهُ : ابتلَّتْ بدُموعه .

(٢) انظر « سيرةِ ابنِ هشامٍ » (١/٣٥٨ - ٣٥٩) .

(٣) المشكاةُ : الثُّقبُ .

(٤) « سـيرة ابن هشـامٍ » (٣/ ٣٦٠) ، و«حليَـة الأوليـاء » (١/ ١١٤) ، و« عيـون الأثر » (١/ ١١٨-١١٩) ، وحَـسَّنَ إسنادَهُ فضـيلةُ شيـخنا العلاَّمـة مُـقْبِلٍ الوادعيٌّ في كـتابه « الجـامع الصَّحـيح » (٣/ ٣٩٠)

فانظر أخي - رعاكَ اللهُ - كيف نَجَحَ الحوارُ في عرض قضيَّة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة ، وشَرْحِ تعاليم الإسلام للنَّجاشيِّ أَصْحَمَةَ ورجاله ، حتَّى كان ذلك الحوار تمهيدًا لإسلام النَّجاشيِّ على يد جَعْفَرٍ رضي الله عنه فيما بَعْدُ ! .

[٢] حوار عَبد الله بْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما مَعَ الخَوارِج :

ومن المناظرات الشَّهيرة في التاريخِ الإسلاميِّ مناظرةُ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما مع الخوارج ، وقد كان لهذه المناظرةُ تأثيرٌ كبيرٌ في سير الأحداث فيما بَعْدُ ، حيثُ تَجَلَّتْ إمامةُ ابن عبَّاسٍ ، وعُمْقُ فِقْهِهِ ، وقدرتُهُ على المحاورة والمناظرة ، وإليكَ سياقَ هذه المحاورة :

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : لَمَّا اعتزلت الحَرُورِيَّةَ [1] قلتُ لعليٍّ : يا أمير المؤمنين ، أَبْرِدْ عن الصلاة ؛ فَلَعَلِّي آتي هؤلاء القومَ فأُكلِّمهم.

قال : إنِّي أَتَخَوَّفُهم عليك ، قال : كلاَّ إنْ شاء اللهُ ، فلبستُ أَحْسَنَ ما أقدرُ عليه من هذه اليمانيّة ، ثُمَّ دَخَلْتُ ، فقالوا : مَرْحَبًا بك يا ابْنَ عبَّاسٍ ، ما جاءَ بك ؟ .

قال : جئتُ أُحدِّثكم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نَزَلَ الوَحْيُ وهم أعلمُ بتأويله .

قال بعضهم : لا تُحدِّثوه ، وقال بعضهم : لَنُحَدِّثَنَّه .

قال : قلت : أخبروني ما تَنْقِمونَ [2] على ابن عَمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وَخَتَنِه وأوَّل مَنْ آمن به ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ؟! .

قالوا : ثلاثًا. قُلتُ : ما هُنَّ ؟ . قالوا : أَوَّلُهُنَّ أنَّه حكَّم الرِّجالَ في دين الله ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

---

(١) الحَرُورِيَّة : نسبة إلى حَرُوراءَ ، وهي قريةٌ بالكُوفةِ .
(٢) تَنْقِمونَ : تُنْكِرونَ .

قال : قلتُ : وماذا ؟ . قالوا : قَاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يَغْنَمْ ، لَئِنْ كانوا كفَّارًا لقد حلَّت له أموالهم ، ولَئِنْ كانوا مؤمنين فقد حُرِّمَتْ عليه دِماؤُهُمْ ! .

قال : قُلتُ : وماذا ؟ . قالوا : مَحَا نَفْسَهُ من أمير المؤمنين ، فإنْ لم يكنْ أميرَ المؤمنين فهو أمير الكافرين ! .

قال : قلت : أرَأَيتُم [1] إنْ قرأتُ عليكم كتابَ الله المُحْكَم ، وحدَّثْتُكُم عن سُنَّة نبيِّكم ما لا تُنكرون أترجعون ؟ . قالوا : نعم .

قال : قلتُ : أمَّا قولكم : إنَّه حكَّمَ الرِّجالَ في دين الله ، فإنَّ اللهَ يقولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ { المائدة : ٩٥ } ، وقال في المرأة وزوجها :﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ . { النساء : ٣٥ } .

أُنشدكم اللهَ ، أفحكمُ الرِّجال في حَقْنِ دمائهم وأنفسهم ، وصلاح ذاتِ بينهم أحقُّ ، أم في أَرْنَبٍ ثمنها رُبْعُ درهَمٍ ؟! .

قالوا : في حقنِ دمائِهم ، وصلاح ذات بينهم ، قال : أخرجتُ من هذه ؟ قالوا : اللهمَّ نَعَمْ .

قال : وأمَّا قولكم : قاتلَ ولم يَسْبِ ولم يَغْنَمْ ، أَتَسْبُونَ أُمَّكم [2]، ثمَّ تستحلُّونَ منها ما تستحلُّونَ من غيرها ؟! ، فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنَّها ليستْ أُمَّكم فقد كفرتم ، وخرجْتم من الإسلام ؛ إنَّ اللهَ يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ { الأحزاب : ٦ } .

وأنتم مُتردِّدون بين ضلالتين ، فاختاروا أيّهما شِئْتم ، أخرجْتُ من هذه ؟ .

---

(١) **أرَأَيْتم** : أي أخبروني .

(٢) يقصد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

قالوا : اللهمَّ نعم ، ، قال : وأمَّا قولُكم : مَـحَا نَفْسَهُ من أمير المؤمنين ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ دعا قُريشًا يَومَ الحُدَيبيَّة على أن تكتُبَ بينهم كتابًا، فقال : اكتبْ : هذا مـا قَضَى عليه محـمَّدٌ رسولُ الله ، فـقالوا : والله ، لو نعلمُ أنَّكَ رسولُ الله ما صَدَدْناكَ عن البيت وقاتلناك ، ولكن اكتبْ : مُحمَّدٌ بن عبد الله .

فقال : والله ، إنِّي لرسولُ الله ، وإنْ كذَّبتموني ، واكتبْ يا عليُّ : محمَّدُ بن عبد الله . ورسولُ الله كانَ أَفْضَلَ من عليٍّ ، ، أخرجْتُ من هذه ؟ .

قالـوا : اللهمَّ نَعَمْ ، فَرَجَعَ منهم أَلْفـانِ ، وخرجَ سـائرُهُم ، فقُـتِلوا على ضلالتهم ، قَتَلَهُمُ المهاجرون والأنصار [(١)] .

فانظر – رحمك اللهُ – كيف أثَّرَ الحوارُ الهادفُ العميقُ في مثل هذه الرُّؤوس اليابسة في مجـلسٍ واحد استغرق عدَّةَ دقائق فـقط ، حتَّى رجع منهم ألفان إلى مذهب السَّلَفِ !! ، وكيفَ أفلَحَ الحوارُ فيما لم تُفلِحْ فيه الحروبُ الطَّاحنة ؟! .

والخوارج – كما هو معروف – من أكثر النَّاس ضَرَاوَةً ، وقوَّةً ، وشَجَاعةً، وبسالـةً في الحروب ، حتَّـى إنَّ الـنَّاس كانوا يـهـربون منـهم ، وحتَّى النِّـساء اللاتي التحَقْنَ بالخـوارج كُنَّ يُبْدِينَ من ضُرُوب البَسَالة والشَّجـاعة ما تَنْدهش له العُـقُول ، حـتَّى إن الحـجَّاجَ بْـنَ يُوسُفَ هَرَبَ من غَـزَالَةَ امرأة شـبـيبٍ أميـر الخوارج! ، فسخر منه السَّاخرون ، وكتَبَ أحدُهُمْ شعرًا وأرسَلَهُ إليه ، ومن ذلك قوله :

أَسَـدٌ عَلَيَّ ، وفي الحُـرُوبِ نَعَامَـةٌ ... فَتْـخَاءُ [(٢)] تَنْفُرُ مِنْ صَـفِيرِ الصَّـافِرِ

---

(١) أخْرَجَه عـبد الرزَّاق في المصنَّف (١٠/١٥٧) ، وأحمد مـختصرًا (١/٣٤٢) ، والبيـهقيُّ في السُّنَن (٨/١٧٩) ، والقـصةُ – كـمـا قال شيخُ الإسـلامِ في « منهـاج السُّنَّة » (٨/٥٣٣) – : إسناده صحيح ، وحسَّنَ إسنادها شيخنا الوادعيُّ كما في الصحيح المسنَد (١/٤٩٩) .

(٢) **الفَتْخاءُ** : العُقَـابُ اللَّيِّنَةُ الجَناحِ ، **والعُـقاب** : طائرٌ كاسِـرٌ منَ الجوارح ، خَفَـيفَ الجناح ، سريعُ الطَّيَرانِ، قَوِيُّ المخالبِ ، أعقَفُ المنقار ، حادُّ البَصَرِ ، معروفٌ بالعزِّ والمنعة ، ويضربُ به المَثَلُ في ذلك ، فيُقال : « أَمْنَعُ مِنْ عُقابِ البَحْرِ » وجَمْعُ عُقَاب عِقبان ، وأَعْقُب ، وجمع الجمع عقابين .

هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غَـزالةَ في الوَغَى[١] بَلْ كـان قَلْبُكَ في جَـناحَي طَائِرِ[٢]

[٣] حوار وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ مع ذي خَوْلان أحد الخَوارج في اليمن :

قال عليُّ المديني : حدَّثنا هشامُ بن يُوسُفَ الصَّنعانيُّ أبو عبد الرَّحمن قاضي صَنْعـاءَ ، قال : أخـبرني داودُ بن قـيسٍ قـال : كان لي صـديقٌ من أهلِ بيت خَوْلان من حضور ، يُقال له أبو شمـرٍ ذو خَوْلان ، قال : فخرجْتُ من صنعاءَ أُريدُ قريته ، فلمَّا دَنَوْتُ منهـا ، وجدْتُ كتابًا مختومًـا في ظهره « إلى أبي شمرٍ ذي خولان » فجئتُهُ ، فوجدتُهُ مهمـومًا حزينًا ، فسألته عن ذلك ، فقالَ : قَدمَ رسولٌ من صنعاءَ ، فـذكر أنَّ أصدقاء لي كتـبوا إليَّ كتابًا ، فضيَّـعهُ الرَّسولُ ، فبـعثتُ مـعه من رقـيقي[٣] مَنْ يلتـمسهُ من قـريتي وصنعاءَ ، فلـم يجدوه ، وأشفقتُ من ذلك .

قلتُ : فهـذا الكتابُ قَدْ وجدتُهُ ، فـقال : الحمدُ لله الذي أقـدرك عليه ، ففضَّـه فقرأه ، فقلتُ : أقرئنيـه ، فقال : إني لأَستحـدثُ سنَّكَ ، قلتُ : فما فيه؟ . قالَ : ضَرْبُ الرِّقابِ ، قُلتُ لعلَّهُ إليكَ ، ناسٌ من أهلِ حَرُوراءَ في زكاة مالـك ، قال : مِنْ أَيْنَ تعـرفهم ؟ قلتُ : إنِّي وأصـحابًا لي نُجـالسُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّـه ، فيـقول لنا : احـذروا ، أيُّها الأحـداثُ الأغمار ، هـؤلاءِ الحروراء ، لا يُدْخلونكم في رأيهمُ المُخالف ؛ فإنَّهم عُرَّةٌ لهذه الأمَّة .

فدَفع إليَّ الكتابَ ، فقرأتُهُ فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أبي شمرٍ ذي خولان ، سلامٌ عليك ، فإنَّا نَحْمَدُ إليك اللهَ الذي لا إلهَ

---

(١) الوَغَى : الحرب .
(٢) « البداية والنهاية » (٩/ ٥٣٠) .
(٣) رقيقي : عبيدي .

إلاَّ هُوَ ، ونُوصيكَ بتقوى الله وَحْدَهُ لا شريك له ، فإنَّ دينَ الله رُشْدٌ وهُدىً في الدُّنيا ، ونجاةٌ وفوزٌ في الآخرة ، وإنَّ دينَ الله طاعـةٌ ، ومخالفةُ مَنْ خالفَ سُنَّة نبيِّـه وشريعـته ، فإذا جـاءكَ كتـابُنا هذا ، فانظر أنْ تُؤدِّي - إنْ شـاءَ اللهُ - ما افـترض اللهُ عـليك من حقِّـه ، تسـتـحق بذلك ولايةَ اللهِ ، وولاية أوليـائهِ ، والسَّلامُ عليك ورحمةُ الله .

قُلتُ له : فإنِّي أنهـاكَ عنهم . قال : فكيف أتَّبعُ قَـوْلَك ، وأتركُ قولَ مَنْ هو أَقْدَمُ منك ؟! .

قال : قُلْتُ : أفتُحبُّ أنْ أُدْخِلَك على وَهْبِ بن مُنَبِّـهٍ ؛ حتَّى تَسْمَعَ قَوْلَهُ ، ويُخبرَكَ خبرهم ؟ .

قال : نعم ، فنزلتُ ونزل مـعي إلى صنعاءَ ، ثُمَّ غَدَوْنَا حـتَّى أدخلتُهُ على وَهْبِ بن مُنَبِّه ، ومسعود بن عَوْفٍ والٍ على اليمن من قِبَل عُرْوَة بن محمد ، - قال عليُّ بن المديني : هو عُـروة بن محمد بن عطيَّة السَّـعْديُّ ، ولاؤنا لهم من سعد بن بكر بن هوازن - قال : فوجـدنا عند وَهْبٍ نَفَرًا من جُلسائِه ، فقال لي بعضُهم : مَنْ هَذا الشيخُ ؟ . فقلتُ : هذا أبو شمرٍ ذو خَوْلان من أهل حضور وله حاجةٌ إلى أبي عبد الله .

قالوا : أَفَلا يَذكرُها ؟ . قلتُ : إنَّها حاجةٌ يُريدُ أنْ يستشيرَهُ في بعض أمره فـقام القـومُ ، وقال وَهْبٌ : مـا حاجـتُكَ يا ذا خَوْلان ؟ ، فـهرجَ وجَـبُنَ من الكلام، فقال لي وَهْبٌ : عبِّرْ عَنْ شيخك ، فقلتُ ، نَعَمْ ، يا أبا عبد الله ، إنَّ ذا خولان من أهل القـرآن ، وأهل الصَّلاح فيمـا علمنا ، واللهُ أعلمُ بسريرته ، فأخبرني أنَّه عرض له نفرٌ من أهل صنعاء من أهل حروراءَ ، فقالوا له : زكاتُكَ التي تُؤدِّيها إلى الأمراء لا تجـزي عنك فيما بينك وبين الله ؛ لأنَّهم لا يضـعونها في مواضـعها ، فـأدِّها إلينا ، فإنَّا نضعـها في مواضـعها ، نُقسّـمها في فـقراء

المسلمين ، ونُقيم الحدود .

ورأيتُ أنَّ كلامك يا أبا عبد الله ، أشفى له من كلامي ، وقد ذكر لي أنَّه يُؤدِّي إليهم الثَّمرة للواحد مئةُ فَرَقٍ [1] على دوابِّه ، ويبعثُ بها مع رقيقه .

فقال له وَهْبٌ : يا ذا خولان ، أتُريدُ أنْ تكونَ بَعْدَ الكِبَرِ حَرُورِيّاً (يعني خارجيّاً من الخوارج) تشهدُ على مَنْ هو خيرٌ منك بالضَّلالة ؟! ، فماذا أنت قائلٌ لله غدًا حين يُوقفك اللهُ ومَنْ شهدْتَ عليه ؟! ، اللهُ يشهدُ له بالإيمان ، وأنت تشهدُ عليه بالكفر ! ، واللهُ يشهدُ له بالهُدَى ، وأنت تشهدُ عليه بالضَّلالة ! ، فأين تقع إذا خالفَ رأيُكَ أمْرَ الله ، وشهادتُكَ شَهَادَةَ الله ؟! . أخبرني يا ذا خولان ، ماذا يقولون لك ؟ .

فتكلَّم عند ذلك ذو خولان ، وقال لوَهْبٍ : إنَّهم يأمرونني ألاَّ أتصدَّق إلاَّ على مَنْ يرى رأيُهم ، ولا أسْتغفرُ إلاَّ له .

فقال وَهْبٌ : صدقتَ هذه محنتهم الكاذبة ، فأمَّا قولهم في الصَّدقة ، فإنَّه قدْ بلغني أنَّ رسولَ الله ﷺ ذكر أنَّ امرأة من أهلِ اليمن دَخَلَتِ النَّارَ في هرَّة ربطتها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكلُ من خشاشِ الأرضِ [2] أفإنسانٌ ممن يعبدُ اللهَ وحده ، ولا يُشْرك به شيئًا ، أحبُّ إلى الله من أن يُطعمه من جُوعٍ أو هِرَّةٌ ؟ .

واللهُ يقولُ في كتابه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ، يقول يومًا عسيرًا غضوبًا على أهل معصيته ؛ لغضب الله عليهم ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ﴾ ، حتَّى بَلَغَ : ﴿ وَكَانَ

---

(١) **الفَرَق** - بفتح الفاء والرَّاء - : مكيال يسَعُ ثلاثة آصُع ، أو سِتَّةَ عَشَرَ رِطْلاً عراقيّاً .
(٢) **خَشَاش الأرض** : هوامُّها وحشراتها ، وواحدها خشاشةٌ .

سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ { الإنسان : ٨ - ٢٢ } .

ثُمَّ قال وَهْبٌ : ما كاد تبارك وتعالى أن يفرغَ من نَعْتِ ما أعدَّ لهم من النعيم في الجنَّة .

وأمَّا قولهم : لا يستغفر إلاَّ لمن يَرَى رأيهم ، أهُمْ خيرٌ من الملائكة ؟! ، والله تعالى يقول في سورة ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ { الشُّورى : ٥ } .

وأنا أُقسم بالله ما كانت الملائكة ليقدروا على ذلك ، ولا ليفعلوا حتَّى أُمروا به ؛ لأنَّ الله تعالى ، قال : ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ . { الأنبياء : ٢٧ } .

وإنَّه أثبت هذه الآية في سورة ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ { الشورى } ، وفُسِّرَتْ في ﴿ حمٓ ﴾ الكبرى ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . { غافر : ٧ } .

ألا ترى يا ذا خولان ، إنِّي قدْ أدركتُ صَدْرَ الإسلامَ ، فوالله ما كانت للخوارج جماعةٌ قطُّ إلاَّ فرَّقها الله على شرِّ حالاتهم ، وما أظهرَ أحدٌ منهم قولَهُ إلاَّ ضربَ اللهُ عُنُقَهُ ، وما اجتمعتِ الأمَّةُ علَى رجلٍ قَطُّ مِن الخوارج ، ولو أمكن الخوارج من رأيهم لفسدت الأرضُ ، وقُطعَت السُّبُلُ ، وقطع الحجُّ عن بيت الله الحرام ، وإذًا لعاد أمر الإسلام جاهليّةً ، حتَّى يعود النَّاسُ يستعينون برؤوس الجبال كما كانوا في الجاهليّة ، وإذًا لقام أكثر من عشرة - أو عشرين رجلاً - ليس منهم رجلٌ إلاَّ وهو يدعو لنفسه بالخلافة ، ومع كُلِّ رجلٍ منهم أكثر من عشرة آلاف يُقاتلُ بعضهم بعضًا ، ويشهدُ بعضُهم على بعضٍ بالكُفْرِ ، حتَّى يُصبح الرَّجلُ المؤمن خائفًا على نفسه ودينه ، وأهله وماله ، لا يدري أين

يسلُك ، أو مع مَنْ يكون ، غير أنَّ الله بحكمه وعلمه ورحمته نظر لهذه الأمَّة، فأحسنَ النَّظر لهم ، فجمعهم وألَّف بين قلوبهم على رجلٍ واحدٍ ليس من الخوارج ، فحقن اللهُ به دماءهم ، وستر به عوراتهم ، وعورات ذراريهم ، وجمع به فُرقتهم ، وأمَّن به سُبُلَهم ، وقاتل به عن بَيْضَة المسلمين عَدُوَّهم ، وأقام به حدودهم ، وأنصف به مظلومهم ، وجاهد به ظالمهم رحمةً من الله رحمهم بها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ إلى ﴿ الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ حتَّى بلغ ﴿ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر : ٥١] ، فأين هم من هذه الآية ؟! ، فلو كانوا مؤمنين لَنُصِروا .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] ، فلو كانوا جُنْدَ الله غَلَبُوا ولو مَرَّة واحدةً في الإسلام .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ حتَّى بلغ ﴿ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الرُّوم : ٤٧] ، فلو كانوا مؤمنين نُصِروا ، وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ حتَّى بلغ ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

فأين هم من هذا ؟! ، هل كان لأحدٍ منهم قَطُّ أخبر إلى الإسلام من يوم عمر بن الخطَّاب بغير خليفة ، ولا جماعة ، ولا نظر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التَّوبة : ٣٣] ، وأنا أشهدُ أنَّ اللهَ قد أنفذ للإسلام ما وعدهم من الظُّهور والتَّمكُّن

والنَّصر على عدوِّهم ، ومَنْ خالفَ رَأْيَ جماعتهم .

وقال وهْبٌ : ألا يسعك يا ذا خولان ، من أهل التَّوحيد ، وأهل القبلة ، وأهل الإقرار لشرائع الإسلام وسُننه وفرائضه ، ما وسع نبيَّ الله نوحًا عليه السلام من عبدة الأصنام والكفار ، إذ قال له قومُهُ : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ حتَّى بلغ : ﴿ تَشْعُرُونَ (١١٣) ﴾ .

{ الشعراء : ١١١ - ١١٣ } .

أَوَ لا يسعك منهم ما وسع نبيَّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام من عبدة الأصنام، إذْ قال : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ حتَّى بلغ ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾ { إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦ } .

أَوَ لا يسعك يا ذا خولان ، ما وسعَ عيسى عليه السلام من الكُفَّار الذين اتَّخذوه إلهًا من دون الله ؟ .

إنَّ الله قد رضي قول نوحٍ ، وقول إبراهيم ، وقول عيسى عليهم السلام ، إلى يوم القيامة ليقتدي به المؤمنون ومَنْ بعدهم ، يعني : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ { المائدة : ١١٨ } ، ولا يُخالفون قول أنبياء الله ورأيهم فيمن يقتدي إذا لم يقتدِ بكتاب الله وقول أنبيائهم، ورأيهم .

واعلمْ أنَّ دخولك عليَّ رَحْمَةٌ لك ، إنْ سمعتَ قولي ، وقَبلْتَ نصيحتي لك ، وحُجَّةٌ عليك غدًا عند الله ، إنْ تركت كتابَ الله ، وعُدْتَ إلى قول حروراء .

قال ذو خولان : فما تأمرني ؟ .

قال وَهْبٌ : انظرْ زكاتك المفروضة ، فأدِّها إلى مَنْ ولاَّه الله أمرَ هذه الأُمَّة، وجمعهم عليه ، فإنَّ المُلْكَ مِنَ الله وَحْدَهُ وبيده ، يُؤتيه من يشاء ،

وينزعه مِمَّن يشاء ، فَمَنْ ملَّكه اللهُ لا يقدر أحدٌ أنْ ينزعه منه ، فإذا أدَّيتَ الزَّكاةَ المفروضةَ إلى والي الأمرَ برئتَ منها ، فإنْ كان فضلٌ فَصِلْ به أرحامك ، ومواليك وجيرانك من أهل الحاجة ، وضيفٌ إن ضافك .

فقام ذو خولان فقال : أَشْهدُ أنِّي نزلتُ عن رأي الحروريَّةِ ، وصدَّقتُ ما قُلْتَ ، فلم يلبثْ ذو خولان إلاَّ يسيرًا حتَّى مات [١] .

[٤] حوار الإمام أبي حنيفة النُّعمان بن ثابت مع الملحدين في دعوتهم إلى الله ، وأنَّه ربُّ كُلِّ شيءٍ ومليكُهُ :

اجتمعَ طائفةٌ من الملاحدةِ بأبي حنيفةَ ، فقالوا : ما الدَّليلُ على وجودِ الصَّانع [٢] ؟ .

فقال : دعوني فخاطري مشغولٌ بأمرٍ غريبٍ ! .

قالوا : ما هو ؟ .

قال : بلغني أنَّ في دجْلَةَ سفينةً مملوءَةً من أصناف الأمتعة العجيبة ، وهي ذاهبةٌ وراجعةٌ من غير أحدٍ يُحرِّكها ، ولا يقوم عليها ! .

فقالوا له : أمجنونٌ أنت ؟! .

قال : وما ذاكَ ؟! .

قالوا : إنَّ هذا لا يُصَدِّقُهُ عاقلٌ .

قال لهم : فكيف صدَّقتْ عقولُكم أنَّ هذا العالمَ بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة ، وهذا الفَلَكَ الدَّوَّار السَّيَّار يجري ، وتحدُث هذه

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ق٤٧٨-٤٨٣)، وأوردها المزيُّ في « تهذيب الكمال » (٣١/ ١٥٠- ١٥٦) ، والذَّهبيُّ في « السِّيَر » (٤/ ٥٥٣-٥٥٥) .

(٢) صوابه الخالق ؛ فإنَّ الصَّانع ليس من أسماء الله ، إلاَّ إذا أريد به الخبر ؛ فإنَّهم توسَّعوا في الأخبار ما لم يتوسَّعوا في غيرها .

الحوادث من غيرِ مُحْدِثٍ ، وتتحرَّك هذه المتحرِّكات بغير مُتَحرِّكٍ ؟! .

فرجَعوا على أنفسهم بالملام [١] .

[٥] حوار رجل من أهل الكلام مع الإمام الشّافعيّ :

جاءَ رجلٌ من أهلِ الكلام إلى الإمـام الشَّافعيِّ وهو في مِصْـرَ ، فسأله عن مسألةٍ في الكلام ، فقال له الشَّافعيُّ : أتدري أين أنتَ ؟ .

قال الرجل : نعم .

قال : هذا الموضع الذي أغرقَ اللهُ فيه فرعونَ ، أَبلغكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ أمَرَ بالسُّؤال عن ذلك ؟! .

قال : لا .

قال : هل تكلَّمَ فيه الصَّحابةُ ؟ .

قال : لا .

قال : هل تدري كم نَجْمًا في السَّماءِ ؟ .

قال : لا .

قال : فكوكب منها تعرف جنسه ، طلوعه ، أُفولَهُ ، مِمَّ خُلِقَ ؟ .

قال : لا .

قال : فشيء تراه بعينيك من الخَلْق لست تعرفه تتكلَّم في عِلْمِ خالقه ؟! .

ثُمَّ سأله الشافعيُّ عن مسألةٍ من الوضوء ، فأخطأ فـيها ، ففرَّعها إلى أربعة أوجهٍ ، فلم يُصِبْ في شيءٍ من ذلك .

فقال له : شيء تحتاج إليه في اليوم خمسَ مرَّات تدع علمه ، وتتكلَّف عِلْمَ

---

(١) انظر « درء تعارض العقل والنَّقل » (٣/١٢٧) ، و« الرِّياض النَّاظرة » (ص٢٥٨) .

الخالق ؟! ، إذا هجسَ في ضميرك ذلك ، فارجعْ إلى الله ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ [البقرة : ١٦٣، ١٦٤] .

فاستدلَ بالمخلوق على الخالق ، ولا تتكلَّف عِلْمَ ما لم يَبْلُغْهُ عقلُكَ .

فتاب الرَّجلُ [١] على يد الشافعيِّ من علم الكلام ، وأقبل على فقه الكتاب والسُّنَّة [٢]، وكان يقول بعد التَّوبة : « أنا خُلُقٌ من أخلاق الشافعيِّ » [٣].

فلعلَّكَ - أخي الحبيب - لستَ بحاجة أنْ أُبيِّنَ لك كيف أفلح الحوار الحكيم في الدِّفاع عن الكتاب والسُّنَّة ، فانظرُ تَرَ الأسلوب العظيم الذي امتاز به الإمام الشافعيُّ ، وتأمَّلْ تجدْ أنَّ مُحاوره قد أصبح عَلَمًا من أعلام المسلمين ، أليس ذلك يدلُّ على أهميّة الحوار وخطورته ؟! .

وليسَ يزيدُ الشَّمسُ نُورًا وبهجةً ... إطالةُ ذي وَصْفٍ ، ولا مَدْحُ مادحِ

[٦] حوار الإمام أحمدَ بْنِ حَنْبَلٍ مع أمير المؤمنين الواثق في مسألة خَلْقِ القُرآنِ :

قال الآجريُّ [٤] - رحمه الله - :

بلغني عن المهتدي - رحمه الله - أنَّه قال : ما قطع أبي - يعني الواثق - إلاَّ شيخٌ جيء به من المصيصة ، فمكث في السِّجن مُدَّةً ، ثُمَّ إنَّ أبي ذكره يومًا

---

(١) هذا الرَّجل الذي تاب من علم الكلام هو الإمام العلاَّمة عَلَم الزُّهَّاد أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى ابن مسلمة المُزني المصري تلميذ الشَّافعيِّ ، وُلدَ سنة (١٧٥هـ) ، وله المختصر في الفقه ، وقد شرحه عدَّةُ علماء ، تُوفِّي - رحمه الله - سنة (٢٦٤هـ) ، انظر « السِّيَر » (١٢/٤٩٤) .

(٢) المرجع السَّابق (١٥/٢٥-٣٢) .

(٣) المرجع السَّابق (١٢/٤٩٢) .

(٤) في الشَّريعة مخطوط تركيًا (ص٢٤) وما بعدها ، وفي المطبوع (ص٦٣-٦٤) ، وفيها تصحيفات ، فليس في المعتمد إلاَّ قليل .

فقال : عليَّ بالشَّيخ ، فَأُتِيَ به مُـقَيَّدًا ، فلمَّا أُوقف بَيْنَ يديه ، سلَّم عليه ، فلم يَرُدَّ عليه السَّلامَ ، فقال له الشَّيخ : يا أمير المؤمنين ، ما استعملت معي أدبَ الله تعالى ، ولا أدبَ رسول الله ﷺ ، قـال الله تعالى : ﴿ وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ { النِّساء : ٨٦ } .

وأمرَ النَّبيُّ ﷺ بردِّ السَّلام .

فقال له : وعليك السَّلام ، ثُمَّ قال لابن أبي دؤاد : سَلْهُ .

فقال : يا أمـير المؤمنين ، أنا محبـوسٌ مقيَّدٌ ، أُصَلِّي في الحَـبْسِ بتيمُّمٍ ، مُنِعْتُ الماءَ ، فَمُرْ بقيودي تُحَلَّ ، ومُرْ لي بماءٍ أتطهَّرْ وأُصَلِّ ، ثُمَّ سَلْني .

قال : فأمـرَ فَحُلَّ قيده ، وأمر له بماءٍ ، فتـوضَّأ وصَلَّى ، ثُمَّ قال لابن أبي دؤاد : سَلْهُ .

فقال الشيخ : المسألة لي ، تأمره أن يُجيبَني . فقال : سَلْ .

فأقبلَ الشيخ على ابن أبي دؤاد يسألُهُ ، فقال : أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناسَ إليه ، أشيءٌ دعا إليه رسولُ الله ﷺ ؟! .

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه بَعْدَهُ ؟! .

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه عُمَرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه بَعْدَهما ؟! .

قال : لا .

قال الشيخ : فشيءٌ دعا إليه عُثمانُ بن عفَّانَ رضي الله عنه بَعْدَهُم ؟! .

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بَعْدَهُم ؟! .

قال : لا .

قـال الشيخ : فـشيءٌ لم يَدْعُ إليه رسـولُ الله ﷺ ، ولا أبو بكرٍ ، ولا عُمَرُ ، ولا عُـثمانُ ، ولا عليٌّ رضي الله عنهم تدعـو أنتَ النَّاسَ إليه ؟! ، ليس يخلو أن تقولَ : علموه أو جهلوه . فإن قُلْتَ جهلوه وعلمتُهُ أنا ، فيا لُكَعُ بْنَ لُكَعَ [1] ، يجهل النبيُّ ﷺ والخُلفاءُ الراشدون رضي الله عنهم شيئًا ، وتعلمه أنتَ وأصحابُكَ ؟! .

قال المهتدي : فرأيتُ أبي وثبَ قائمًا ، ودخل الحيري [2] ، وجعلَ ثوبه في فِيهِ يضـحك ، ثمَّ جعل يقول : صَدَقَ ، ليس يخلو مـن أنْ نقولَ : جَهلوه أو علموه ، فإن قـلنا : علموه وسكتوا عنه ، وَسِعَنا من السُّكـوتِ ما وَسِعَ القومَ، وإنْ قُلْنا : جـهلوه وعلمته أنـتَ وأصحابُكَ ، فـيا لُكَعُ بْنَ لُكَعَ ، يجـهل النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ رضي الله تعالى عنهم ، شيئًا تعلمه أنتَ وأصحابُكَ ؟! .

ثُمَّ قال : يا أحـمدُ . قال : لبَّيْكَ . قـال : لستُ أَعْنيكَ ، إنَّما أعني ابن أبي داؤد ، فوثب إليه ، فقال : أَعْطِ هذا الشيخ نفقةً ، وأخرجْهُ عن بلدنا .

وفي روايةٍ أوردها الذَّهبيُّ في « السِّيَـر » : وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ، ولم يمتحن بعدها أحدًا .

وفي روايةٍ : قال المهـتدي : فَرَجَعْـتُ عن هذه المقالة ، وأظُنُّ أنَّ أبي رَجَعَ عنها مُنْذُ ذلك الوقت [3] .

---

(١) اللُّكَعُ : اللَّئيم والأحمق .

(٢) الحيري : من الحير ، والحير - بالفتح - : شبه الحظيرة . انظر « لسان العرب » (٣/ ٤١٧) .

(٣) قال الذَّهبيُّ : هذه قـصَّة مليحةٌ ، وإنْ كان في طـريقها مَنْ يُـجْهَلُ ، ولهـا شاهدٌ في « السِّيَرْ » (١١/ ٣١٣) .

قلتُ : قد أسندها الآجريُّ في الشَّريعة (ص٩١) ، وعنه ابن بطَّة في الإبانة رقم (٤٥٢) ، وأخرجها ابن بطَّة من طرقٍ أخرى في رقم (٤٥٣) ، والخطـيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٥١ و١٠/ ٧٥) ، وابن الجـوزيِّ في « مناقب أحـمـد » (ص٤٣١-٤٣٦) ، والمقـدسيُّ في المحنة (ص١٦٩-١٧٤) ، وابن قُدامة في « التَّوابين » (ص٢١٠ - ٢١٥) .

وقال الأمين الشنقـيطيُّ في « أضواء البيـان (٤/ ٤١١) : « فهذه القصَّـة لم تزلْ مشهـورةً عند العلماء ، صحيحة الاحتجاج ، فيها إلقام الخَصم الحجَرَ » ا. هـ .

[٧] حوار شيخ الإسلام ابن تيميّة مع بعض الطّوائف :

لقد كان شيخ الإسلام وعَلَم الأعلام ابن تيميّة - رحمه الله - مُحاورًا حكيمًا ، فكان إذا دخل في مُحاورة معَ أيِّ طائفة من الطّوائف ، غلب فيها مُحاوريه وأعجزهم ، وانقادوا له طَوْعًا أو كَرْهًا ، وكان على عقيدة السّلَف الصّالح ، ويَعَضُّ عليها بالنّواجذ ، ويبذل جهده ووقته وفكره في إرجاع جميع الطّوائف المنحرفة إلى هذه العقيدة ، ويرى رأي إمام دار الهجرةَ مالك بن أنسٍ «أنّه لا يُصْلحُ هذه الأُمّة إلاّ ما أَصْلَحَ أوّلَها » ، وهو رأي كُلِّ حكيمٍ عليمٍ بداء الأُمّة قديمًا وحديثًا ، وكان الشيخ شديدَ الانتصار لمذهبِ السّلَف ، والدّفاعِ عنه بالحُجَج العقليّة والنّقليّة ، وقد عُقِدَتْ له مُناظرات في مِصْرَ والشّام ، كان معظمها يحومُ حولَ هذه القضيّة (١) .

ومن هذهِ المناظرات على سبيل المثالِ لا الحصر :

المُناظرة الأولى :

وكانت في العقيدة الواسطيّة التي كتبها لرضيِّ الدِّين الواسطيِّ من أصحاب الشّافعيِّ ، حينما طلب منه بإلحاحٍ أنْ يكتبَ له عقيدةً تكون عُمْدَةً له ، ولأهل بيته في مدينة واسط ، فكتبها الشّيخ ، وانتشرتْ بينَ النّاس ؛ ممّا أدّى إلى ثورةٍ كبيرةٍ من علماءِ الجهميّة والاتّحاديّة ، والرّافضة ، وغيرهم من ذوي الأحقاد ، فسعى هؤلاء إلى السُّلطان في البلاد المصريّة ، فكتبَ السُّلطان إلى نائبه على بلاد الشّام يأمره بجمع قُضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نُوّابهم ، والمُفْتينَ ، والمشايخَ ، وعندما وصَلَ الكتابُ إلى أمير الشّام جمعَ قُضاة المذاهب الأربعة ، والعلماء ، والشيخ ابن تيميّة في قصر الولاية بدمشق ، وذلك يوم الاثنين الثامن من رجب سنة (٧٠٥هـ) ، ثُمّ بدأ المجلس وقراءة العقيدة الواسطيّة من أوّلها ،

---

(١) انظر « حياة شيخ الإسلام ابن تيميّة » (ص٢٧) .

وكانت مُناقشة الشيخ ومُناظرته بحضور الأمير ، فناظرهم الشيخ ، وردَّ عليهم ، وبيَّن لهم مذهب السَّلَف الصَّالح ، وأنَّ هذه العقيدة هي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة ، وهي التي يدلُّ عليها الكتابُ والسُّنَّة ، وإجماعُ السَّلَف ، وصار يُناظر أصحاب المذاهب ، فكان أعلمَ بمذهبهم منهم ، وأعجزهم أمام الأمير .

ثُمَّ انتهى المجلس الأوَّل ، واجْتمعوا للمجلسِ الثَّاني يومَ الجُمْعَة بعد الصَّلاة في الثَّاني عَشَرَ من رجب سنة (٧٠٥هـ) ، وقد أحضرَ قُضَاةُ المذاهب الأربعة معهم صفيَّ الدِّين الهنديَّ ، وتكلَّم مع الشيخ تقيِّ الدِّين كلامًا كثيرًا ، ولكن ساقيته لاطمتْ بحرًا عميقًا ، ثمَّ استلمَ مَنْ ناظرَ عَقَبَهُ ، فكان كالبحر الزَّاخر ، حتَّى إنَّ هَؤلاءِ القُضاةِ والعلماءِ عجزوا عن مُناظرته ؛ لأنَّه كان يردُّ عليهم بالكتابِ والسُّنَّة ، ويدعوهم إلى التَّمسُّك بمذهب السَّلَف الصَّالح ، ويُبيِّنُ لهم أنَّه لم يضَعْ هذه العقيدة من ذات نَفْسِه ، وليس لأحد أنْ يُشَرِّعَ للنَّاس ما لم يأذن به الله ، وإنَّما العقيدة تُؤخذ من كتابِ الله وسنَّة رَسول الله ﷺ ، وإجماع سلف هذه الأُمَّة ، فما أثبته اللهُ لنفسه ، أو أثبته رسولُ الله ﷺ وَجَبَ على كُلِّ مسلمٍ أنْ يُثْبتَهُ لله من غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ولا تمثيلٍ ، ولا تكييفٍ ، وما نفاهُ عن نفسه ، أو نفاه عنه رسولُهُ ﷺ وَجَبَ نَفْيُهُ عنه ؛ لأنَّه تعالى أعلَمُ بنفسِهِ .

وانتهى هذا المجلس أمام الأمير ، أمَّا عن ابن تيميَّة فقد خرجَ والنَّاسُ يحملون له الشَّمع إلى منزله على عادتهم في ذلك .

ثُمَّ عُقِدَ المجلسُ الثَّالثُ في اليوم السَّابع من شعبان سنة (٧٠٥هـ) في القصر واجْتَمَعَ الجماعةُ كُلُّهم على الرِّضى بالعقيدةِ الواسطيَّة ، وأخذ بعضهم يمدح الشيخ ، ويُثني عليه ، وكان هذا كُلُّهُ أمام رئيس المجلس نائب السُّلطان [١] .

---

(١) انظرِ المناظرة مطوَّلة في « الفتاوى » (٢/ ١٦٠- ٢٠١)، و«حياة ابن تيميَّة» (ص٢٧) و« الحكمة في الدَّعوة إلى الله» (ص٣١٣-٣١٥) ، و« البداية والنِّهاية » بألفاظٍ مختصرة ومُفيدة (١٤/ ٣٦-٣٧) .

فأظهرَ اللهُ الحقَّ ، وأبطَلَ الباطل ، وظهرتْ مُحـاورة ابن تيميَّة الحكيمة أمام الجميع ، فجزاه اللهُ خيرًا .

المناظرة الثانية :

وكانت هذه المناظرة - والَّتي أعزَّ اللهُ بهـا أهلَ السُّنَّة ، وخذَلَ بها أهلَ البِدَعِ والخُرافات - مع الطَّائفة الأحمديَّة البطائحيَّة [١] الذين كانوا يُخالفون الشَّيخ تقيَّ الدِّين في عقيـدة السَّلَف الصَّالح ، وكان يأمرهم باتِّبـاعِ الكتاب والسُّنَّة ، ويُنكر عليهم فِعْلَهُـمْ وأحوالهم الشَّيطانيَّة ، وفي يوم السَّبـت تاسع جُمادى الأولى سنة (٧٠٥هـ) حضرَ هؤلاء المبتدعة في جموعٍ هائلةٍ إلى قصرِ نائبِ السُّلطان أن يكفَّ عنهم الشيخَ ابن تيميَّة ومذهبَـهُ السَّلفيَّ ، وعندما رآهم النَّاسُ اجتمع عليهم جَمٌّ غفيـرٌ ، ولكن الأمير لم يقـبلْ منهم إلاَّ بحضورِ الشَّيخ ومُناظرته ، فـأرسل إليه ووصلَ ، وسألَـهُ الأمير ، فـأخبـره ابن تيمـيَّة أنَّ هؤلاءِ من أهل البـدع ، وقد أفسدوا من دين المسلمين ما اللهُ به عليمٌ ، وذكرَ له جميع ما يعرف عنهم ، وأنَّه نهاهم عن البدع ، وهم يأتون بأحوالٍ شيطانيَّـة ، ومنها دخولهم النَّار ، واستعدَّ الشيخُ أنَّهم إذا دخلوا النَّار في هذا اليـوم فسيدخل مـعهم ، ومَن احترقَ فـعليه لعنةُ الله ، ولكن بعد غسل الأجسام بالخـلِّ والماء الحارِّ ؛ لأنَّهم يطلون أجسامهم بأدويةٍ من دُهْنِ الضَّفـادع ، وباطن قشر الـنَّارنج ، فإذا غُسِلَت الأجـسام بطلت الحيلة .

وحضر شيـوخهم الأكابر يطلبون من الأمير الإصـلاح ، والعفو عن الماضي والتَّوبة ، واتِّبـاع الكتاب والسُّنَّة ، فقبـل منهم ابنُ تيميَّة ، ولكن عـارض شيخٌ

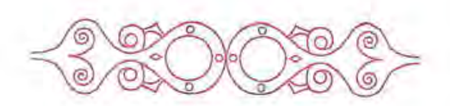
---

(١) هي الطَّائفة المعروفـة اليوم بالرفاعيَّة نسـبة إلى أحمد الرفاعيِّ المُتـوفَّى سنة (٥٨٠هـ) من بني رفاعة قبيلة من العرب ، وجمـاعته يستخدمون السيوف ، والحـراب ، واللَّعب مع الثَّعابين والعقارب في إثبات الكرامات ! .

آخر من الصُّوفيَّة ، فناظره ابن تيميَّة أمام الجموع الغفيرة ، وتحدَّاهم ابن تيمية في مشـارق الأرض ومغاربها بأيٍّ شيءٍ يصـنعونه في النَّار من حيلهم مـثلهم بشرط الغسل ، والحكمة ابن تيميَّة قال : يكفي في ذلك قنديل يُوقد داخل أصبع المُناظر منهم وابن تيميَّة بعد الغسل .

وعندما سمع الـصُّوفيَّة ذلك انهزمـوا أمام الجموع ، وأقرُّوا بـالتزام الكتاب والسُّنَّة ، وطلبَ ابن تيميَّة من الأمير أنْ يضربَ عُنُقَ مَنْ خالفَ الكتاب والسُّنَّة ، فأعلنَ الأمير للنّاسِ أنَّ مَنْ خالفَ الكتـاب والسُّنَّة ضُرِبَ عُنُقُهُ ، وطلب الصُّوفيَّة من الشيخ الكتب الصَّحيحة ، فَـبُذِلَتْ لهم ، وتفرَّقَ النَّاسُ على التَّوبة ، وسمعَ النَّاس يقولون : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) ﴾ [الأعراف : ١١٨ ، ١١٩] [1] .

فانظر - أخي الحبيب - كيف كان الحوار سببًا في توبة هذا الجمِّ الغفير على يد العالم النحرير الإمام المُجدِّد شيـخ الإسلام تقيِّ الدِّين بن تيميَّة ! ، نسألُ اللهَ أنْ يجعلَ ذلك في ميزان حسناته ، وهذا ما يطمعُ فيه المحاورُ المُخلصُ .



(١) انظر هذه المناظرة مُطوَّلة في « الفتاوى » (١١/٤٤٥-٤٧٥) ، وقد سُقْـتها بالمعنى ، واستفدتُ ذلك من كـتـاب « الحكمـة في الدعـوة إلى الله » ، وانظر مناظراتٍ أخـرى مـفيـدةً في « الفـتـاوى » (١١/١٣٥-١٥٦) .

[٨] حِوار الإمام محمَّد بن إبراهيم الوزير [1] مع شيخه جمال الدِّين :

أي أخي القارئ ، لعلِّي قد أطلتُ عليكَ كثيرًا ، ولعلَّ المَلَلَ والسَّآمة – وربَّما النُّعاس – يطردانك ، فاصبر معي قليلاً ، فلعلَّ هذه الوقفة لم تفتضَّ بكارتُها بَعْدُ .

فَحَيَّهَلا إنْ كُنْتَ ذا همَّة ، فَقَدْ ... حَدَا بك حادي الشَّوق فَاطْوِ المراحلا
ولا تَنْتظُرْ بالسَّير رُفْقَةً قاعدٍ ... وَدَعْهُ ، فإنَّ العَزْمَ يَكْفيكَ حاملا

عَوْدٌ على بَدْءٍ :

اعترضَ على ابن الوزير شيخه العلاَّمة جمال الدِّين برسالةٍ وصفها ابن الوزير بقوله : « إلاَّ أنَّه لَمَّا كَثُرَ الكلامُ ، وطال واتَّسع مجال القِيل والقال ، جاءتني رسالةٌ مُحبَّرة ، واعتراضاتٌ مُحَرَّرَةٌ مُشْتَمِلَةٌ على الزَّواجر والعظات ، والتَّنبيه بالكلم والموقظات ، زعم صاحبُها أنَّه من النَّاصحين المُحبِّينَ ، وأنَّه أدَّى ما عليه من حقِّ الأقربين ، وأهلاً بِمَنْ أبدى النَّصيحة ، فقد جاء التَّرغيب إلى ذلك في الأحاديث الصحيحة ، وليس بضائر إن شاء الله ما يعرض فى ذلك من

---

(١) هو الإمام المجتهد المطلق المفسِّر الحافظ المحدِّث المُتقن الأصوليُّ الفقيه المتكلِّم محمَّد بن إبراهيم الوزير ، ينتهي نسبه إلى الحسن السِّبط ابن أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ، وُلِدَ عام (٧٧٥هـ) وتُوفيِّ في عام (٨٤٠هـ) عن ٦٥عامًا ، ترجَمَ له الشَّوكانيُّ والسَّخاويُّ والحافظُ ابن حجر وصاحب مطلع البدور ، والوجيه ، والعطاب ، والشَّريف الفاسي ، وصديق حسن خان . قال عنه ابن حجر في « أبناء الغمر » (٧/ ٣٧٢) : « كان مقبلاً على الاشتغال بالحديث ، شديد الميل إلى السُّنَّة» وقال عنه الشَّوكانيُّ : « والَّذي يغلبُ على الظَّنِّ أنَّ شيوخه لو جُمعوا جميعًا في ذات واحدة لم يبلُغْ علْمُهُم إلى مقدار علمه ، وناهيك بهَذا لو قلتُ : إنَّ اليمنَ لم تُنْجب مثْلَهُ ، لَم أبعدْ عن الصَّوابَ » ، وقال عنه العلاَّمة صديق حسن خان : « كان فَريد عَصْره ، ونادرةَ الدَّهر ، خاتمة النُّقَّاد ، وحاملَ لواء الإسناد ، وبقيَّة أهل الاجتهاد بلا خلاف وعناد ، رأسًا في المعقول والمنقول ، إمامًا في الفروع والأصول » ، وسُئِلَ عنه شيخه ، فقال : « هو أذْكى النَّاسُ قَلْبًا ، وأزكاهم لُبًا ، كأنَّ قلبه جَذْوةُ نارٍ تتوقَّدُ ذكاءً » ، ومع هذا الثَّناء والتَّقدير من شيخه لَهُ ، فإنَّه قد تحوَّلَ من مادحٍ إلى قادحٍ ، ومن صديقٍ إلى كاشحٍ ، ومن معجَب به إلى مُسَفِّهٍ لَه ، ومُنَفِّرٍ للنَّاسِ عنه ، مِمَّا آلم الإمام ابن الوزير وأحزنه ، فقال مُعاتبًا شيخَهُ بقصيدته ، والتي مَطْلَعُها :

عَرفْتَ قَدْرِي ، ثُمَّ أنكرتَهُ ... فما عدا باللهِ مِمَّا بَدَا ؟!

الجدل ، مهما وُزِنَ بميزان الاعتدال ؛ لأنَّه حينئذ يدخل في السُّنَّة ، ويتناوله أمر: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وقد أجادَ مَن قالَ - وأحسَنَ - :

وجِـدَالُ أهـلِ العلمِ ليسَ بضـائرٍ ... مَـا بينَ غـالبـهم إلـى المَغْلُوبِ

وعقَّبَ الإمام ابن الوزير على ما ورد في هذه الرِّسالةَ بقوله : « بيدَ أنَّها لم تَضَعْ تاجَ المَرَح والاختيال ، وتستعـملْ ميزان العدل في الاستدلال ، بل خَلَطتْ من سيمِ المختالين بشَوْبٍ ، ومالتْ من التَّعنُّتِ في الحجاج إلى صَوْبٍ ، فجاءتني تمشي الخُطرا ، وتميس في مـحافل الخطر ! ، منفوضـةً لم تُختمْ ، مشـهورةً لم تُكتَمْ ، مُتَبـرِّجةً قد كشـفَتْ حجابها ، وطرحَتْ نِقابهـا ، وطافَتْ على الأكابر وطاشتْ إلى الأصـاغر ، حتَّى فـضَّت أيدي الابتذال نَضَـارتها وافتـضَّتْ أفكارُ الرِّجال بكارتَها ، وخير النَّصائح الخفيُّ ، وخـيرُ النُّصَّاحِ الخَفِيُّ ، وخير الكتاب المختوم ، وخيـرُ العتاب المكتوم ، ثُمَّ إنِّي تأمَّلتُ فصولَهـا ، وتدبَّرتُ أُصولها ، فوجدتها مُـشتملةً على القَدْحِ تارةً فيمـا نُقِلَ عنِّي من الكلام ، وتارةً في قواعد العلمـاء الأعلام ، وتارةً في سُنَّة رسـول الله ﷺ ، فرأيتُ مـا يُخصُّني غـيرَ جديرٍ بصـرفِ العناية إليه ، ولا كثيـرٍ يستحقُّ الإقـبال بالجواب عليه ، وأمَّـا ما يختصُّ بِالسُّنَنِ النَّبويَّة ، والقـواعد الإسلاميَّة - مثل : قَدْحِـهِ في صحَّة الرُّجوع إلى الآية القرآنيَّة والأخبار النَّبويَّة ، والآثار الصَّـحابيَّة ، ونحو ذلك من القواعد الأُصوليَّة - فإنِّي رأيتُ القَدْحَ فيهـا ليس أمرًا هيِّنًا ، والذَّبَّ عنها لازمًا مُتعيَّنًا ، فتعـرَّضتُ لجواب ما اشتَمَلَتْ عـليه من نقض تلك القواعد الكبـار التي قال بها الجِلَّةُ من العلماء الأخيار [1] ، وقد قصدتُ وجه الله تعالى في الذَّبِّ عن السُّنَن

---

(١) « الرَّوض الباسم » (١/٩-١٠)

النَّبويَّة ، والـقواعد الدِّينيَّـة ، وليس يَضُرُّني وقـوفُ أهل المعرفة عـلى مالي من التَّقصير ، ومعرفتهم بأنَّ باعي في هذا الميدان قصيرٌ لاعترافي بأنِّي لستُ من نُقَّاد هذا الشأن ، ولا من فُرسان الميدان ، ولكـنِّي لم أجدْ من الأصحاب مَنْ تَصَدَّى لذلك من غير إحسانٍ ، ولا إعجـابٍ ، ومَنْ عَدِمَ الماءَ تيمَّمَ بالتُّراب ، عالمًا بأنِّي لو كنت باريَ قوسهـا ونبَالها ، وعنترة فوارسهـا ونزالها ، فلن يخلو كلامي من الخطإ عند الانتقاد ، ولا يصفـو جوابي من الكَدَرَ عند النُّقَّاد ، فالكلام الذي لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِهِ هوكـلام الله الحكيم ، وكلام من شَـهِدَ بعصمَته القرآنُ الكريم ، وكُلُّ كلامٍ بعد ذلك فله خطأٌ وصوابٌ ، وقشرٌ ولُباب ، ولو أنَّ العلمـاء ﷺ تركـوا الذَّبَّ عن الحقِّ خَـوْفًـا من الخَلْقِ [1] ، لكانوا قـد أضاعـوا كثـيرًا ، وخافـوا حقيـرًا ، وأكثـر ما يخاف الخـائف في ذلك أنْ يكلَّ حُسَامُهُ[2] في مُعْتَرك المُناظرة ، ويَنْبُوَ ويَعْثُرَ جَوَادُهُ في مجال المُحاجَّة ، ويكْبُوَ ، فالأمـر في ذلك قـريبٌ ، إنْ أخطأَ فمن الذي مـا عُصِمَ ؟! ، وإنْ خُطِّئَ فـمن الذي ما وُصِمَ ؟! .

والقاصدُ لوجـه الله لا يخاف أنْ يُنْقَدَ عليه خَلَلٌ في كـلامه ، ولا يُهابُ أنْ يُدَلَّ على بُطْلانِ قـوله ، بل يُحِبُّ الحقَّ من حيثُ أتاهُ ، ويَـقْبَلُ الهُـدَى ممَّنْ أهداهُ ، بل المخـاشنة بالحقِّ أحبُّ إليـه من المُداهـنة على الأقـوال القـبيـحـة ، وصَـديقُك مَنْ صَدَقَكَ ، لا مَنْ صَـدَّقَكَ ، وفي نوابغ الحكمـة : « عليك بِمَنْ يُنْذِرُ الإبسالَ والإبلاسَ ، وإيَّاك ومَنْ يقولُ لك : لا باس ولا تاس » .

ثُمَّ إنَّ الجواب لَمَّا تمَّ بحَـمْد الله تعـالى اشتملَ على عُلُـومٍ كثيـرةٍ ، وفوائدَ غزيرةٍ أثريَّةٍ ، ونظريَّةٍ ، ودقـيقةٍ ، وجليَّـةٍ ، وجدليَّةٍ ، وأدبيَّـةٍ ، وكُلُّها رياضٌ

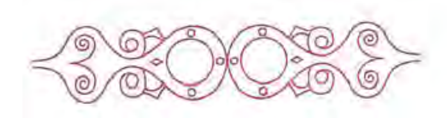
---

(١) له كتابٌ في هذا المعنى بعنوان « إيثار الحقِّ على الخَلْقِ » .

(٢) الحُسَام : السَّيف القاطع .

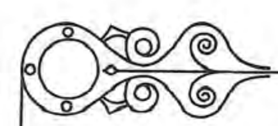
للعـارفين نَضرَةٌ ، وفـراديسُ عند المُحـقِّقين مُـزْهِرةٌ ، لكنِّي وضعـتُهُ وأنا قـويُّ النَّشاط، مُتوفِّرُ الدَّاعـية ، ثائر الغَيْرَةِ ، فاستكثرتُ من الاحتـجاج رغبةً في قطع اللَّجاج ، فربَّمـا كانت المسألةُ في كتب العلماء ﷺ مَـذْكورةً غير مُحْـتَجٍّ عليها بأكثر مـن حُجَّةٍ واحدةٍ ، فأحـتجُّ عليها بعَشْـرِ حُجَجٍ ، وتارةً بعشـرين حُجَّةً ، وتارةً بثلاثين حُجَّةً ، وكـذلك قد يتعنَّتُ صاحبُ الرِّسالة ، ويُظْهـر العُجْبَ ممَّا قاله ، فأحبُّ أنْ يظهرَ به ضعف اختياره ، وعظيم اغتراره ، فاستكثرتُ من إيراد الإشكالات عليه ؛ حتَّى يتَّضحَ له خروجُ الحقِّ من بينَ يَدَيْه ، فَرُبَّما أوردتُ عليه في بعض المسائل أكثرَ من مائتَي إشكالٍ على مقدارِ نصفِ الورقة » [1] .

فانظر - أخي الحبيب - إلى تلك الرَّوائع الرَّائعات ، فلو تأمَّلتَ فصولها ، وتدبَّرتَ أُصولـها ، لعلمتَ أنَّ صـاحبهـا قد برعَ بِفَنِّ الحـوار ، فلو ذهبتُ أنقلُ إليك شيئًـا من آدابه مع شيخه ، لَبَكَيْتَ على مُحـاوري زمانك ، فمن ذلك أنَّه يُوردُ في معرض ردِّه على شيخه العبارة المُشْعِرَة بالثَّناء والتَّقدير ، فيبدأ بذكر قول شيخه بقـوله : « وقال - أيَّدَهُ الله - . . . » ، ثُمَّ يُناقش قوله بأدبٍ جمٍّ ، وعلمٍ غزيرٍ ، وإنْصافٍ مُنْقَطِعِ النَّظير ، فقد كان - رحمه الله - مدرسةً في فنِّ الحوار، وآيةً في هذا المِضمار ، وقلَّ مَنِ ارتدى هذا الثوبَ القَشيبَ في عَصْرِهِ سِوَاهُ .



---

(1) « الرَّوض الباسم » (ط/١١-١٢) ، وهو مـختصـر كتاب الـعواصم والقواصم اختصره مُـؤلِّفُهُ ، والعواصم طبع مـؤسَّسَة الرِسـالة بتحقيق شُـعَيْب الأرناؤوط في تسعـة مُجلَّدات ، وتحقَّـقتْ أُمْنيةُ الشَّوكـانيِّ القائل عن هذا الكتـاب : « لو خرج إلى غيـر الدِّيار اليمنيَّة ، لـكانَ من مفاخـرِ اليمن وأهله» .

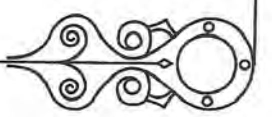


الباب الأوَّل

أصول الحوار

- الإقرارُ بالخلافِ .
- التَّجُرُدُ في الحوَارِ.
- العِلْمُ .
- الرُّجوعُ إلى النَّص لدَرْءِ النزاعِ .
- عَدَمُ ادِّعاءِ العِلْمَ في كُلِّ حالٍ .
- حُسْنُ الفَهْمِ .
- تحديدُ الهدَفِ .
- الأمانةُ والتَّوثيقُ .
- الابتعادُ عَنِ الرُّخَصِ المُفْتَعلَةِ .
- عدمُ الدُّخُولِ في النِّيَّةِ .





الإقرار بالخلاف

اقتَضَتْ حكمةُ الله سبحانه وتعالى أن تختلف آراءُ النَّاس في صغير الأمور وكبيرها ، سواءً في أمور الدنيا أم في أمور الدِّين ، وسَبَبُ الاختلافِ في الأمور الدِّينيَّة أنَّ نصوصَ القُرآن والسنَّة المُتعلِّقَة بالأحكام ظَنِيَّةُ الدَّلالة - أي تحتملُ أكثرَ من وَجْهٍ من وُجُوه التَّفسير - فإذا أُضيفَ إلى هذا اختلاف العقول في العلم والفَهْمِ ، كانت النَّتيجة اختلاف وجهات النَّظر فيما عدا ما هو معلوم من الدِّين بالضرورة ، وهي أساسيَّات الدِّين وأركانه : كأركان الإسلام والإيمان .

فلو كانت نصوص القرآن والسُّنَّة كُلُّها قطعيَّةَ الدَّلالة ، لا تحتمل سوى وجهٍ واحدٍ من وجوه التَّفسير ، ولو تساوت العقول والأفهام ، لما كان هُناك خلاف .

والخلاف - كما عرّفه *الجرجانيُّ* - : هو مُنازعةٌ تجري بين المتعارضين لتحقيق حقٍّ ، أو لإبطال باطلٍ .

وعلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ الخلاف سُنَّةُ الله في خلقه ، كما قال الله سبحانه : ﴿ ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] .

ورغم وجود هذا التَّباين والقابليَّة للاختلاف إلاَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى وضعَ على الصِّراط المستقيم منائر ؛ ولذا قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

ويُمكن تقسيم *الخلاف* إلى ثلاثة أنواعٍ :

(أ) الخلاف المحمود الممدوح :

ويُقْصَدُ به مُخالفة المشركين ، وأهل الكتاب ، وأهل الفُسُوق والمجوس في هيئاتهم وأحوالهم ، وأعيادهم ومُناسباتهم ، فالمخالفة في هذا وأمثاله ممدوحةٌ

ومحمـودةٌ في الشَّرعِ ، وهي مقصدٌ شرعيٌّ ، ويُصاحبها النَّهْيُ عن مشابهتهم والتَّشبُّهِ بهم .

(ب) الخلاف المذموم الممقوت :

وهو الاختلاف في الأصـولِ والمناهج ، وطرق الاستدلال والمقاصـد الكُلِّيَّة للتَّشريع ، وهو الَّذي يُعْرَفُ باختلاف التَّضادِّ ، ويدخل في ذلك كُلُّ جُزْئيَّةٍ يظهرُ على صاحبها سُوْءُ النِّيَّة ، أو مُصادمةٌ للنَّصِّ ولو عن حُسْنِ قَصْدٍ .

(جـ) الخلاف السائغ الجائز :

وهو الخلاف في المسائل الفرعيَّة القابلة للاجـتهاد ضمن الضَّوابط الشرعيَّة ، وهذا النوع هو الذي يُسمِّيه علماءُ الأُمَّة باختلاف الأفهام .

ومسئوليَّة المحـاور النَّاجح الاطِّلاعُ على الخلاف ، وتقديره حقَّ قدره ؛ فإنَّ الجَهْلَ بالخـلاف يُؤدِّي إلى ردِّ بعضِ الحقِّ الذي لا يعلمه ، إذ الحقُّ غير منـحصر في قول فَـرْدٍ من العلماء كائنًا من كان ، كـما أنَّ جهلَ المحاور بالخـلاف يُجَرِّئُهُ على تَرجيحِ ما ليس براجحٍ بمجرَّدِ أنْ يطَّلعَ على نَصٍّ في الموضوع دون أنْ يبحثَ هل ثَمَّةَ نُصوصٌ أُخرى تُخَصِّصُهُ ، أو تَنْسَخُهُ ، أو تُقَيِّدُهُ . . . إلخ .

رَوَى عثـمانُ بن عطاءٍ عن أبيه قـوله : « لا ينبغي لأحـد أنْ يُفتيَ النَّاسَ ، حتَّى يكونَ عـالمًا باختـلاف النَّاسِ ، فإنَّه إنْ لم يكنْ كـذلك رَدَّ من الحقِّ ما هو أوثقُ من الذي في يديه » [1] .

ألا ترى - أخي المحاور - أنَّه جَزَمَ أنَّ الجـاهل بالخلافِ يردُّ من العلم ما هو أوثق ممَّا معه من العلم ، ولم يَقُلْ : ربَّما ردَّ من الحقِّ ، ولا قال : ما قد يكون أوثق من الذي فيه يديه .

---

(١) « جامع بيان العلم » (٤٦/٢) .

وكان التَّابعيُّ الجليل أيُّوبُ السختيانيُّ - رحمه الله - يقول : « أَجْسَرُ النَّاس على الفُتْيا أقلُّهم علْمًا باختلافِ العلماءِ ، وأمْسَكُ النَّاسِ عن الفُتْيا أَعْلَمُهُمْ باختلافِ العلماء » [1] .

واعلم - أخي المحاور - أنَّ هناك خلافًا مقبولاً لا يُعَنَّفُ صاحبُهُ ، ولا يُثَرَّبُ عليه ، وهو ما لم يكنْ بدافع العصبيَّةِ والهوى ، بل طلبًا للحقِّ ، واجتهادًا في تحصيله بوسيلته الشرعيَّة وهي الاجتهادُ ، ما دام كُلُّ طَرَفٍ مُصيبًا في أداء ما عليه من حقِّ الاجتهاد ، وينبغي ألاَّ يُؤدِّي اختلافُ الآراءِ إلى اختلافِ القلوب .

قال ابن تيمية - رحمه الله - :

« وقد كان العلماءُ من الصَّحابة ، والتَّابعين ، ومَنْ بَعْدَهُم ، إذا تَنازعوا في الأمر اتَّبعوا أمر الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾ [النِّساء : ٥٩] ، وكانوا يُناظرونَ في المسألة العلميَّة والعمليَّة مع بقاء الأُلفَة والعصمَة ، وأُخوَّةِ الدِّين ، نَعَمْ مَنْ خَالفَ الكتابَ المُستبين ، والسُّنَّة المستفيضة أو ما أجمعَ عليه سلفُ الأُمَّة ، فهذا يُعامل بما يُعامل به أهلُ البدع .

وأمَّا الاختلاف في الأحكامِ ، فأكثَرُ من أنْ يُضْبَطَ ، فَلو كان كُلَّمَا اختلفَ مُسْلِمان في شيءٍ تهاجرا ، لم يبقَ بين المسلمين عصمةٌ ولا أُخوَّةٌ » [2] .

ومن اللطائفِ التي يحسن ذكرها في هذا الباب :

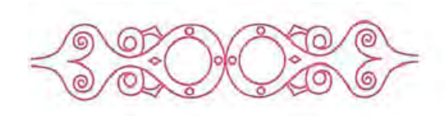
قولُ يونس الصَّدفيُّ - رحمه الله - : « ما رأيتُ أَعْقَلَ من الشَّافعيِّ ، ناظرتُهُ في

---

(١) المرجع السَّابق (٢/٤٦) .
(٢) « الفتاوى » (٤/١٧٢-١٧٣) .

مسألة ، ثُمَّ افترقنا ، ولَقِيَني، فأخذَ بيدي ، ثُمَّ قال : يا أبا مُوسى ، ألا يستقيمُ أنْ نكونَ إخوانًا ، وإنْ لم نَتَّفِقْ على مسألةٍ ؟! » .

قال الإمامُ الذَّهبيُّ مُعلقًا على كلام الشافعيِّ: « وهذا يدلُّ على كَمَالِ عَقْلِ هذا الإمام ، وفِقْهِ نفسه ؛ فما زال النُّظراءُ يختلفونَ »[1] .



(١) « السِّيَر » (١٠/١٦-١٧)

التَّجرُّد في الحوارِ

أخي ، إنَّ العلمَ وَحْـدَهُ لا يكفي فـي ساحـةِ الحـوار ، بل لابُدَّ مـعـه من الإخلاص ، فـقد يَضِلُّ المرءُ على علمٍ - والعيـاذُ بالله - كما قـال اللهُ تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

والإخلاصُ من أعظم الأصول المهمَّة ، ومن أهمِّ أعمال القلوب عمومًا .

قال ابن قيم الجوزية : « أعمـالُ القُلوبِ هي الأصلُ ، وأعمـالُ الجَوَارح تبعٌ ومُكَمِّلَةٌ ، وإنَّ النِّيَّة بمنزلةِ الرُّوح ، والعمل بمنزلة الجـسد للأعضاء الذي إذا فارق الرُّوحَ مات ، فمعرفةُ أحكامِ القُلوبِ أهمُّ من معرفةِ أحكامِ الجوارح » (١) .

وقال أيضًا : « وَمَنْ تَأَمَّلَ الشَّريعة في مصادرها ومواردها ، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعـمال القلوب ، وأنَّها لا تنتـفع بدونها ، وأنَّ أعمـالَ القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح ، وهل يُمَيَّزُ المؤمنُ عن المنافق إلاَّ بما في قلب كُلِّ واحدٍ من الأعـمال التي مَيَّـزَتْ بينهما ؟! ، وعُـبوديَّة القلب أعظم من عُـبوديَّة الجوارح ، وأكثرُ وأدْوَمُ ، فهي واجبةٌ في كُلِّ الأوقات » (٢) .

وقال ابن تيمية : « والنَّوعُ الواحـدُ من العمل قد يـفعله الإنسان عـلى وَجْهٍ يكمل فيه إخـلاصُهُ وعبوديَّتُهُ لله ، فيـغفر اللهُ به كبائرَ الذُّنوب كـما في حديث البطاقة ، فهذا حال مَنْ قالها بإخلاصٍ وصدقٍ ، كما قالها هَذا الشَّخص ، وإلاَّ فأهلُ الكبائر الذين دخلوا النَّار كُلُّهم يقولون كلمـة التَّوحيد ، ولم يترجَّحْ قولهم علَى سيِّئاتهم ، كما ترجَّحَ قولُ صاحب البطاقة » .

---

(١) « البدائع » (٣/ ٢٢٤) .
(٢) المرجع السَّابق (٣/ ٣٣٠) .

ثُمَّ ذكر حديث البَغِيِّ [١] التي سقتْ كَلْبًا ، فغفر اللهُ لها ، والرَّجُلُ الذي أماطَ الأذى عن الطَّريق ، فغفر الله له ، ثمَّ قال : « فهذه سقتْ كلبًا بإيمان خالصٍ كان في قلبها ، وإلاَّ فليس كُلُّ بَغِيٍّ سَقَتْ كلبًا يغفرُ لها ، فالأعمالُ تتفاضلُ بتفاضُلِ ما في القلوب من الإيمان والإجلال » [٢] .

ومن المسالك الدَّقيقة للرياء أنْ يجعلَ الإخلاص لله وسيلةً لا غايةً ، وقصدًا لأحد المطالب الدُّنيويَّة ، وقد نبَّه ابن تيميَّة على تلك الآفة الخفيَّة ، فكان ممَّا قاله :

« حُكِيَ أنَّ أبا حامدٍ الغزاليَّ بَلَغَهُ أنَّ مَنْ أخْلَصَ لله أربعين يومًا تفجَّرَت الحكمةُ في قلبه ، قال : فأخْلَصْتُ أربعين يومًا ، فلم يتفجَّرْ شيءٌ ، فذكرْتُ ذلك لبعضِ العارفين ، فقال لي : إنَّك إنَّما أخلَصْتَ للحكمةِ ، ولم تُخْلِصْ لله تعالى » [٣] .

وهذه نكتةٌ لطيفةٌ : هي أنَّ الإنسانَ قَدْ يذمُّ نفسه بينَ النَّاسِ ، يُريدُ بذلك أنْ يَرَى النَّاسُ أنَّه مُتواضعٌ عند نفسه ، فيرتفع بذلك عندهم ، ويمدحوه به ، وهَذَا من دقائقِ أبواب الرِّياءِ ، وقَدْ نبَّهَ عليه السَّلَفُ الصَّالحُ .

قال مُطَرِّفُ بن عبد الله الشِّخير : « كَفَى بالنَّفسِ إطْراءً أنْ تَذُمَّها على الملإِ ، كأنَّكَ تُريدُ بذمِّها زينتها ، وذلك عند اللهَ سَفَهٌ » [٤] .

وإذا كُنْتَ طالبَ حقٍّ فكنْ داعيةً إليه ، واحذرْ من كلِّ ما يُفْسِدُ عليك هذه المهمَّة الجليلة .

---

(١) البَغِيّ : الزَّانية ، والجمع بَغَايَا .
(٢) « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » (٦/٢١٨) .
(٣) « دَرْءُ تعارض العقل والنَّقل » (٦/٦٦-٦٧) .
(٤) شرح حديث « ما ذئبان جائعان » (ص٤٦) .

قال الخطيب البغداديُّ في ذكر آداب الجدل والمناظرة : « وليكُنْ قصدُهُ في نظره إيضاحَ الحقِّ وتثبيتَهُ دُونَ المغالبَةِ للخَصْمِ » (١) .

ومتى أخْلَصَ المُحاورُ لله ، فـإنَّه لا يُبالي أأَظْهَرَ اللهُ الحقَّ على يديهِ أم على يد مَنْ يُحاوره ، ويَرَى مُحـاوره مُعينًا لا خَصْمًا ، فيـشكرُهُ إذا عَرَّفَهُ الخطأَ ، أو أَظْهَرَ له الصَّوابَ .

ورحم الله الإمام الشافعيّ القائل : « مـا ناظرْتُ أحـدًا قَـطُّ فـأحبـبتُ أنْ يُخْطِئ» (٢) .

وقال أيضًا : « ما كلَّمْتُ أحدًا قَطُّ إلاَّ وأحبـبتُ أنْ يُوَفَّقَ ويُسَدَّدَ ويُعَانَ ، وما كلَّمتُ أحدًا قَطُّ إلاَّ ولم أُبالِ بَيَّنَ اللهُ الحقَّ على لساني أو لسانه » (٣) .

قال الحافظ ابن رجب مُعلقًا على كلام الشافعيّ : « وهَذَا يدلُّ عَلَى أنَّه لم يكن له قصدٌ إلاَّ في ظُهُـور الحقِّ ، ولو كان عَلَى لسان غيره ممـن يُناظره أو يُخالفه ، ومَنْ كانَتْ هـذه حاله ، فإنَّه لا يكرَهُ أنْ يُـرَدَّ عليه قَولُهُ ، ويتـبيَّنَ له مُـخالفـتُهُ للسُّنَّة ، لا في حـياتـه ولا بَعْدَ مماته ، وهَذَا هو الظَّنُّ بـغيـره من أئمَّة الإسـلام الذَّابِّين عنه ، القائمين بنصره من السَّلَفِ والخَلَفِ ، ولم يكونوا يكرهون مُخالفةَ من خالفـهم - أيضًا - بدليلٍ عُرِضَ له ، ولو لم يكن ذلـك الدَّليلُ قوياً عندهم بحيثُ يتمسَّكون به ، ويتركون دليلهم له » (٤) .

وقال أبو حامدٍ الغزاليّ : « فانظرْ إلى مُناظري زمانك اليوم ، كيف يَسْوَدُّ وَجْهُ أَحَدهمْ إذا اتَّضَحَ الحقُّ على لسـان خصْمه ؟! ، وكيف يَخْـجَلُ به ؟! ، وكيف يجْهَدُ في مُجاهدته ؟! ، وكيف يَذُمُّ من أفحمه طولَ عمرِهِ ؟! » (٥) .

---

(١) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٥) .
(٢) « مناقب الشَّافعيِّ » للرَّازيِّ (ص٣٦٠) .
(٣) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٢٦) .
(٤) « الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير » (ص٣١) .
(٥) « الإحياء » (١/ ٤٤) .

العِلْمُ

من الخطإ أنْ يتصدَّى للحوار مَنْ لا يُدْرِكُ مسالك الحقِّ والباطل ، وليس كُلُّ واحدٍ مُؤَهّلاً للدُّخول في حوارٍ يُؤْتي ثمارًا يانعةً ، ونتائجَ طيِّبَةً ، ولكن الذي يجمع لك ذلك كُلَّهُ العلمُ ؛ فلابُدَّ من التَّأهيلِ العلميِّ للمحاورِ ، إذْ أنَّ الجاهلَ بالشَّيءِ ليس كُفُؤًا للعالم به ، فمن الخطإ أنْ يدخُلَ المحاورُ ساحةَ الحوارِ قَبْلَ أنْ يستكمل أدواته العلميَّة والعقليَّة ، وقد ذمَّ اللهُ سبحانه وتعالى الذين يُجادلون بغير علمٍ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجّ : ٨] .

والعلم لا يُنال بالتَّمنِّي والأمل ، ولكن بالجدِّ والعمل .

قال أبو بكر الدينوريُّ (ت٥٣٢هـ) - رحمه الله - :

تَمَنَّيْتَ أَنْ تُسَمَّى فَقيهًا مُناظرًا ... بغيرِ عناءٍ ، والجُنُونُ فُنُونُ
فليس اكتسابُ المالِ دُونَ مشقَّةٍ ... تلقَّيْتَها ، فالعلمُ كَيفَ يكونُ ؟!

ونَهَى السَّلَفُ الصَّالحُ رضوان الله عليهم ، عن مُناظرة المبتدعة ؛ لئلاَّ يُناظرهم مَنْ ليسَ لديه العلم الذي يُظْهر به الحُجَّة عليهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في التأكيد على ضرورة العلم لِمَنْ يتصدَّى للحوار والمناظرات : « وقد ينهونَ عن المجادلة والمناظرة ، إذا كان المُناظرُ ضعيفَ العلم بالحُجَّة ، وجوابِ الشُّبْهَة ، فيُخاف عليه أنْ يُفسدَهُ ذلك المُضِلُّ ، كما يَنْهَى الضَّعيفُ في المُقاتلة أنْ يُقاتلَ عِلْجًا قويًّا من عُلُوجِ الكُفَّارِ ؛ فإنَّ ذلك يضرُّهُ ، ويضرُّ المسلمين بلا منفعةٍ » (١) .

---

(١) « دَرْءُ تعارض العقل والنَّقل » (٧/ ١٧٣) .

وقال أيضًا : « والعَجَبُ من قومٍ أرادوا نصرَ الشَّرْعِ بعقولهم النَّاقصَة ، وأَقْيِسَتِهِم الفاسدة ، فكان ما فعلوه مِرًّا ، جرَّأ الْمُلحِدينَ أعداءَ الدِّين عليه ، فلا الإسلامَ نصَروا ، ولا الأعداءَ كسروا »[(١)] .

قال الشاعرُ :

بِنُورِ العِلْمِ يُكْشَفُ كُلُّ رَيْبٍ ... ويَبْصُرُ وَجْهَ مَطْلَبِهِ المريدُ
فَأَهْلُ العِلْمِ في رَحْبٍ وقُرْبٍ ... لَهُمْ مِمَّا اشْتَهَوْا - أبدًا - مَزِيدُ
إذا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا فَكُلٌّ ... لَهُ مِمَّا ابْتَغَاهُ مَا يُرِيدُ
فَإِنْ سَكَتُوا فَفِكْرٌ في مَعَادٍ ... وإنْ نَطَقُوا فَقَوْلُهُمُ سَدِيدُ[(٢)]

والعلمُ المقصودُ يقتضي أمرين مُتلازمين :

أولهما : العلم بشرع الله المطهَّر كتابًا وسُنَّةً ، ومعرفة ما يجب على الْمُكَلَّفِ من أمر دينه في عبادته ومعاملاته ، والعلم بالله ما يجب له من القيام بأمره ، وتنزيهه عن النقائص ، ومدار ذلك على التَّفسير ، والحديث ، والفقه[(٣)] .

ثانيها : العلم بمنهج السَّلَف قولاً وعملاً ، وفَهْمًا ، واعتقادًا .

قال الأوزاعيُّ - رحمه الله - لِبَقِيَّة بن الوليد : « يا بَقِيَّةُ ، العلم ما جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وما لم يجِئ عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فليس بعلمٍ »[(٤)] .

وقال ابن تيمية : « فالصَّحابةُ كانوا أعلمَ النَّاسُ بأُصولِ الدِّين ؛ فإنَّهم تلقَّوهُ عن أَعْلَمِ الخَلْقِ بالله على الإطلاقِ ، وكانوا إذا استشكلوا شيئًا سألوه عنه ، وكان يُجيبهم بما يُزيلُ الإشكال ، ويُبيِّنُ الصَّوابَ ، فهم العارفون بأصولِ الدِّينِ

(١) المرجع السَّابق (١/٥٣٧) ، و« الفتاوى » (٢٠/١٦٥) .
(٢) « جامع بيان العلم » (١/٤٩) .
(٣) « الفتح » (١/١٤١) .
(٤) « جامع بيان العلم » (٢/٢٩) .

حقّاً ، لا أهل البدع والأهواء من المتكلّمين ، ومَنْ سَلَكَ سبيلهم » [١] .

قال الشاعرُ :

لَو أنَّ العِلْمَ مِثْل كان نورًا ... يُضاهي الشَّمْسَ ، أَو يَحْكِي النَّهار
كذَاكَ الجَهْلُ أظْلَمَ جَانِبَاهُ ... ونُورُ العِلْمِ أشْرَقَ واستنارَ [٢]

علَى كُلٍّ لابُدَّ للمحاور أنْ يكون عالمًا بالمسألة التي يُريدُ أنْ يُحاورَ فيها ، قادرًا على النَّظر والموازنة والتَّرجيح بين الأدلَّة المختلفة ، مُلِمّاً إلمامًا عامّاً بأُصول الأدلَّة ، يعرفُ النَّاسخَ والمنسوخ ، والمُطْلَقَ والمُقَيَّدَ ، والخاصَّ والعامَّ ، والصَّحيحَ والضَّعيفَ ، ومدار ذلك على أصولِ الفقه ، وعلوم الحديث ، كما عليه أنْ يكون على علمٍ بالواقعِ ، فالعلم بواقع النَّاس لابُدَّ منه لكُلِّ مُتَصَدِّرٍ لحوارِ النَّاس ؛ لـ«حكم عَلَى الشيء فرعٌ عن تصورِه» .

ومنه أن يكون المحاورُ واسعَ الاطِّلاعِ على أدلَّة الطَّرفِ الآخرِ ، والوقوف علَى مصادره ، وإنْ لم يتخصَّصْ فيه ، كما يلزمه الاطِّلاع على العوامل التي أدَّتْ إلى تلك الشُّبُهات ، والوقوف على تفاصيلها الدَّقيقة ، حتَّى يكونَ أشبه بالطَّبيب الذي يعلم تفاصيل المرض أكثرَ من المريضِ ، فيحصُل بحواره شِفاءُ الصُّدور ، وطُمَأْنِينَةُ النُّفوس .

واخيراً قال الشاعر :

عليكَ بِأهْلِ العلْمِ فارْغَبْ إليهمُ ... يُفيدُوكَ عِلْمًا ؛ كَي تكونَ عليمًا
ويَحْسَبُ كُلُّ النَّاسِ أنَّكَ منْهمُ ... إذا كُنْتَ في أَهْلِ الرَّشاد مُقيمًا
فَكُلُّ قَرينٍ بالمُقارَنِ مُقْتَدِ ... وَقَدْ قالَ هَذا القائلُونَ قَديمًا (١)

---

(١) « الفرقان » (ص٦) .
(٢) « جامع بيان العلم » (١/٥٨) .
(٣) المرجع السابق (١/٤٩) .

الرجوع إلى النص لدرء النزاع

لابُدَّ من تحديدِ أصولٍ يُرجعُ إليها عند الاختلاف ، وبذلك ينضبط الحوار ويتحدَّدُ مساره ، قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النِّساء : ٥٩] .

قال ابنُ قيِّم الجوزية : « ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرطِ ، تَعمُّ كُلَّ ما تنازع فيه المؤمنون في مسائل الدِّين دِقِّه وَجِلِّه [١] ، جَلِيِّه وَخَفِيِّه ، ولو لم يكن في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ بيانُ حكم ما تنازعوا فيه ، ولم يكن كافيًا ، لم يأمرْ بالرَّدِّ عليه ؛ إذْ من المُمْتَنَعِ أنْ يأمرَ الله تعالى بالرَّدِّ عند النِّزاع إلى مَنْ ليس عنده فَصْلُ النِّزاع » [٢] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « فإذا تنازعَ المسلمون في مسألة ، وَجَبَ ردُّ ما تنازعوا فيه إلى الله والرَّسول ، فأيُّ القولين دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ » [٣] .

وقال أيضًا : « وهَذَا لأنَّ النَّاسَ لم يفْصِلْ بينهُمُ النِّزَاعَ إلاَّ كتابٌ منزَّلٌ من السَّماء ، وإذا رُدُّوا لعقولهم ، فلكُلِّ واحدٍ منهم عَقْلٌ » [٤] .

---

(١) **دقِّه وجلِّه** : يعني صغيره وكبيره .
(٢) « أعلام الموقعين » (٤٩/١) .
(٣) « الفتاوى » (١٢/٢٠) .
(٤) « درء تعارض العقل والنَّقل » (٢١٩/١) .

رسـولِه ﷺ ، فـقدْ دعـا إلَى بدعـةٍ وضـلالةٍ ، وإلاَّ في نظره مع نفسـه ، ومُناظرته لغيرهِ ، إذا اعتصمَ بالكتـابِ والسُّنَّة ، هداهُ اللهُ إلى الصِّراطِ المستقيم ، فإنَّ الشَّـريعـة مِثْـلُ سَـفينةِ نُوحٍ عليه السلام ، مَنْ رَكَبهـا نجـا ، ومَنْ تَخَـلَّفَ عنها غَرِقَ » [(١)] .

ويُشير ابن تيمـيَّة إلى قاعدة نفيسة حينمـا يقول : « وقلَّ أنْ تعوزَ النُّصوصُ مَنْ يكونُ خبيرًا بها ، وبدلالتها على الأحكام » [(٢)] .

وقال الإمام الشَّاطبيُّ : « وبيانُهُ أنَّ الخصمين إمَّا أنْ يتَّفقَا على أصلٍ يرجعان إليه أم لا ، فإنْ لم يتَّفقا على شيءٍ لم يقعْ بمناظرتهما فائدةٌ بحالٍ ، وقد مرَّ هذا فصار الإتيانُ به عبثًا لا يُفيد فـائدةً ، ولا يُحصِّلُ مقصودًا ، ومقصود المناظرة رَدُّ الخصم إلى الصَّـواب بطريقٍ يعرفـه ؛ لأنَّ ردَّهُ بغيرِ مـا يعرفه مـن تكليف ما لا يُطاق ، فلابُدَّ من رجـوعهما إلى دليـلٍ يعرفه الخَصْمُ مـعرفة الخصم المُسـتَدلِّ ، وعلى ذلك دلَّ قـولُ الله تعـالى : ﴿ فَـإِن تَنَازَعْـتُمْ فِي شَيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ؛ لأنَّ الكتاب والسُّنَّة لا خـلاف فيهما عنـد أهل الإسلام ، وهما الدَّليلُ والأصلُ المرجوع إليه في مسائل النِّزاع » [(٣)] .

قـال ابن عـبَّاسٍ رضي الله عنهما : « أَرَاهُمْ سيـهلكون ، أقـولُ : قـال النَّبيُّ ﷺ ويقولون : قال أبو بكرٍ وعُمَرُ ! » [(٤)] .

قُلْتُ : وفي زماننا يحتـجُّون بقول شُيُوخهم ، وأين شـيوخهم من أبي بكرٍ وعُمَرَ ؟! .

---

(١) المرجع السَّابق (١/ ٢٣٤) .
(٢) « الحسبة في الإسلام » (ص٦٥) .
(٣) « الموافقات » (٤/ ٢٣٥) .
(٤) أخرجه أحمد وغيره ، و صحَّحه أحمد شاكر .

قال الشَّاعرُ مُنكرًا على المحتجِّينَ بقول شيوخهم :

أَقـولُ : قالَ اللهُ ، قـالَ رَسُـولُهُ   فَـتُجِـيبُ : شـيخـي إِنَّهُ قَدْ قـالَ !

فلابُدَّ من الرُّجُوع عند التنازعِ لنصوص الوَحْيَيْنِ الشَّريفَين على ضوء فَهْم سَلَفِنا الصالحِ ، وإنّما قدّمَ فَهْمُ السلفِ على الخَلَفِ لأمورٍ ، منها :

{ ١ } أنَّ خطابَ الشَّارع مُتَوجِّهٌ إليهم في الأصل، وهم المرادون به قَبْلَ غيرهم .

{ ٢ } أنَّهم عاصروا التَّشريع وعايشوه ، فعلمـوا مواقع التَّنزيل ، وورود الأدلَّة على الوقائع والأحوال .

{ ٣ } لأنَّهم أَهْلُ الفَصَاحة والبَيان ، والوَحْيُ جاء بلسـانهم ، والرَّسولُ ﷺ يوضِّح لهم ما أُشكل عليهم .

{ ٤ } أنَّ النُّصوص من الكتاب والسُّنَّة الدَّالة علَى فَـضْلهم ، وعُلُوِّ قَدْرهم ، قد تواترتْ .

{ ٥ } ولأنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لهمُ الإمامَةَ في الدِّين لِمَنْ بَعْدَهُمْ ، وأثنَى عليهـم ، وعلَى مَنْ تبعهـم ، وسلكَ سبيلـهم ، وإنَّما نال التَّابـع الفَضْلَ بفضل المتبوع .[1] .

ولعلَّكَ - أخي الحبـيب - قد فهمتَ من خلال مـا سبق أنَّ أغلبَ الطَّوائفَ مُتَمسكَـةٌ بالكتاب والسُّنَّة ، لكن بفَهْمِ مَنْ أنشأها وأسَّسـها ، فالجهميَّة مُـتمسكَةٌ بالكتاب والسُّنَّة بفَهْمِ جَهْمِ بن صفوان ، والجـعد بن درهم ، والأشعريَّة مُتمسكَةٌ بالكتابِ والسُّنَّة بفَهْمِ أئمَّتِـهمُ المنتسـبين لأبي الحسن الأشعريِّ [2] . . . إلخ ، وقِسْ علَى ذلك بعض الجمـاعات ، ونظير هذا كـثيرٌ ، فأَلْحِقِ النَّظيـرَ بنظيرِه ،

(١) « العقيدة السَّلفيَّة » (ص٢٥) .

(٢) لقد مرَّ أبو الحسن الأشعريُّ بثلاثة أطوارٍ :

الأوّل : طور الاعتزال .

والثاني : طور الكلابيَّة .

والثالث : رجوعه إلى مذهبِ السَّلَفِ الأصيلِ .

فالأشاعرة ينتسبون لطوره الثَّاني .

وهل تُعْرَفُ الأنظمةُ إلاَّ بكبارها ، ومُنشئيها ؟! .

وقد تجـدْ - أخي الحبيب - مُـستشرقًـا أو مُلحدًا ، أو كافـرًا ، أو صاحبَ هوىً ، لا يُقيم وزنًا لأدلتك ، مع أنَّهـا قويَّة واضحةٌ وضوحَ الـشَّمسِ في رابعة النَّهار ، فلا يُحيِّرك ذلك ؛ فإنَّما يُنكرها غيرُ المُنْصِف ، وَمَنْ لا يُريدُ الحقَّ .

ولله دَرُّ القائل :

قَدْ تُنْكِرُ الـعَيْنُ ضوءُ الشَّـمسِ مِنْ رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَـمُ طَعْـمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

كما قد يُورد عليها الشُّبهَـات ، وهذا مُمكنٌ لعدَّة اعتبارات يُدْركها الفَطِنُ ، وعندما يحصل مثلُ هَذَا فسيكون له تأثيرٌ في نفس مُخالفيه ، فعليكَ ألاَّ تستسلم للأثر الخفيِّ لمثل هذا الموقف ، بل تخـطو الخطوة الأُخرى ، وهي النَّظرُ في أدلَّة المخالف ، ووزنها علميّاً ، أو مُطالبته بإيراد أدلَّتـه على ما ذهب إليه ؛ لأنَّه لا يكفي لإثبات رأيه أو شبهته فقط ، بل لابُدَّ أنْ يُقيمَ عليها الدَّليل ، ولا يكفيه - أيضًا - إقامته لحجَّته أن يُورِدَ الاحتمالات على أولئـكَ ، وليس بهذا وحده يُقيم الدَّليل على نقيضها ، فعلى سبيل المثال إذا قال لك المستشرق «شاخت» -مثلاً- : السُّنَّة النَّبويَّـة هذه لا وجودَ لها ؛ لأنَّهـا من وضع الفقهـاء والمحدِّثين ، ثُمَّ أورد بعض الشُّبهات التي دعته للقول بهـذا الرأي ، فلا يكُنْ موقفك هو إقامة الدَّليل على رأيك بأنَّ الأمـر عكسُ مـا ادَّعاه ، ثمَّ تـسرد أدلتك فـقط ، بل ينبـغي أنْ تُطالبه - بَعْدَ ذلكَ أو قَبْلَهُ - بالأدلَّة على رأيه ، أو تنظر في أدلَّته وتُفَنِّدها ، فإذا احتـجَجْتَ على أنَّ السُّنَّة النَّبـويَّة ليست من وضْعِ الفقـهاء والمُحدِّثـين بأدلة منها الأسـانيد ، فـقال لك : هذه الأسـانيدُ لا تُثْبِتُ ما تقـولُ ؛ لأنها - أيضًـا - موضوعةٌ مكذوبةٌ ، فلا تقفْ عند هَذَا ، وإنَّمـا طالبْهُ بالدَّليل على زَعْمِهِ ؛ فإنَّه يعود خاسِئًا وهو حسير [1] .

---

(١) « قواعد ومنطلقات في أصولِ الجدل »(ص ٢٠) .

عدم ادعاء العلم في كل حال

ينبغي لك - أخي المحاور - أنْ تكونَ كلمةُ (لا أدري) أَصْلاً ترجع إليه ، خاصَّةً إذا سُئِلْتَ عمَّا لا عِلْمَ لك به ، فقد كان السَّلَفُ الصَّالحُ رضوان الله عليهم ، يقولون : ينبغي للعالم أنْ يُعَلِّمَ جُلَسَاءَهُ قولَ : لا أدري ، حتَّى يكون ذلك في أيديهم أصلاً ، فإذا سُئِلَ أَحَدُهُم عمَّا لا يدري ، قال : لا أدري .

ومتى سكتَ المحاور عن قول : لا أدري - إذا كان لا يدري - اتُّهِمَ بالجَهْلِ ، والتَّستُّرِ عليه ، وإذا تكلَّفَ ما لا يُحسن ، وتكلَّمَ في غيرِ فَنِّه ، أَتَى بالعجائبِ ، ومن أَقْدَمَ على حوارٍ ليس له أَهْلاً ، استحقَّ الذَّمَّ ، ولم يُلْتَفَتْ إليه ، وربَّمَا افتضَحَ ونقله ذلك إلى السُّقوطِ المُبكِّرِ ، كما قيل :

مَنْ تَحلَّى بالَّذي ليس فيه ... فَضَحَتْهُ شواهدُ الامتحان
وجَرَى في العُلُومِ جَرْيَ سكيتٍ ... خَلَّفَتْهُ الجيَادُ [(١)] يَومَ الرِّهَانِ [(٢)]

فاحذرْ - أخي - من الخنفشاريِّين [(٣)] الذين يركبون مَطَايا الخير للشَّرِّ ، فقد

---

(١) **الجياد** : جَمْعِ جَوَادٍ ، وهو الفرس .

(٢) **الرِّهان** : السِّباق .

(٣) **الخنفشاريِّين** : جمع خنفشاريٍّ ، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ به لمن يدَّعي ما ليس فيه ، أو يدَّعي العلم ، وليس بعالمٍ ... إلخ .

وقصة ذلك : أنَّ رجلاً كان يُفتي النَّاسَ دُونَ توقُّفٍ ، فلحظ أقرانُهُ ذلك منه ، فأجمعوا أمرهم لامتحانه بنحت كلمة ليس لها أصلٌ هي (الخنفشارُ) ، فسألوه عنها ، فأجاب على البديهة : بأنَّه نبتٌ طيِّبُ الرَّائحة ، ينبتُ بأطراف اليمنِ ، إذا أكلتْهُ الإبلُ عقد لبنها ، قال شاعرهم اليَمَاني :

لَقَدْ عَقَدَتْ محبَّتُكم فُؤادي ... كما عَقَدَ الحَليبَ الخُنفشارُ

وقال داود الأنطاكيُّ في مذكرته كذا ، وقال فلانٌ وفلانٌ ، وقالَ النَّبيُّ ﷺ ، فاستوقفوه ، وقالوا: كذبت علَى هؤلاء ، فلا تكذب على النَّبيِّ ﷺ .

ومن الخنفشاريين : خبيرُ النَّعنع ، ففي ملح التَّاريخ - كما ذكر السَّخاويُّ - : أنَّ جهينًا كان من ندماء المهلبيِ ، وكان يأتي بالطَّامَّات ، فجرى مَرَّةً حديثٌ في النَّعنع ، فقال : في البِلد الفلانيِّ نعنعٌ يطولُ حتَّى يصيرشجراً ، ويُعْمَلُ من خشبه سلالم ، فثار منه أبو الفرج الأصفهانيِّ ، فقال : =

تتابعتْ الشكْوَى منهم على مَدَى العصور ، فشكى حالَهُمْ الحسنُ البصْرِيُّ بقوله : « اللَّهُمَّ نشكو إليك هَذا الغثاءَ » .

وشكَى حالَهَمُ الشافعيُّ بقوله : « وقد تكلَّمَ في العِلمِ مَنْ لو أَمْسَكَ في بعض ما تكلَّمَ فيه منه ، لكان الإمساكُ أولى به ، وأقرَبَ من السَّلامة له إنْ شاءَ اللهُ » .

وشكى حالهم الحافظ ابنُ القيِّم بقوله :

هَذا وإنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بأَرْبَعَة ، وكُلُّهُمْ ذَوُو أَضْغَان

فَظٌّ ، غليظٌ ، جاهلٌ ، مُتَمَعْلِمٌ ضَخْمُ العِمَامَةِ ، واسعُ الأَرْدان [١]

مُتَفَيْهِقٌ ، مُتَضَلِّعٌ بالجَهْلِ ، ذُو ضلعٍ وذو جلحٍ منَ العِرفان

مُزْجَى البِضَاعَةِ [٢] في العُلُوم وإنَّه زاجٍ مِنَ الإِيهامِ والهَذَيان

يَشْكو إلى الله الحُقوقَ تَظلُّمًا مِنْ جهلة كشكاية الأَبْدَان

مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الوَرَى [٣] ويحيلُ ذاكَ عَلَى قَضَا الرَّحمنِ [٤]

وشكى حالهم الحافظ الذَّهَبيُّ من وَجْهٍ آخر ، فقال : « فوالله ، لأَنْ يعيشَ

= نَعَمْ ، عجائب الدُّنيا كثيرةٌ ، ولا يُنكر هذا والقدرة صالحةٌ ، وأنا عندي ما هو أغربُ من هذا : أنَّ زوج الحمام يبيض بيضتين ، فآخذهما وأضع تحتهما سَنْجة مئة وسَنْجَة خمسين (السَّنجة كَفَّة ميزان) ، فإذا فرغ زمن الحضانة وانقسَمَتْ السَّنجتان عن طست وإبريق ، فضحك أهلُ المجلس ، وفَطِنَ الجُهَنيُّ لما قصد به أبو الفرج من (الطنز) ، وانقبَضَ عنْ كثيرٍ منْ حكايته .
ومن الخنفشاريين من يكون ظريفًا باحثًا سريع الجواب : كصاعد بن حسن البغداديِّ ، فإنَّه لَمَّا سأله رجلٌ أعمى على سبيل التَّهكُّم : ما الخرنقلُ ؟ ، أَطْرَقَ ساعةً ، وعرف أنَّه افتعل هذا من عند نفسه، ثُمَّ رفع إليه رأسَهُ ، وقال : هو الذي يأتي نساءَ العُميان ، فاستحيا ذلك الأعمى ، وضَحِكَ الحاضرون .

(١) **الأَرْدَان** : جمع رُدْن ، وهو مقدم كمِّ القميص .
(٢) **مُزْجَى البضاعة** : قليلها .
(٣) **الورَى** : الخَلْقَ والنَّاس .
(٤) النُّونيَّة (ص٢٥٢) .

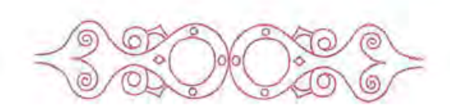
المُسْلِمُ أَخْرَسَ خيرٌ له من أن يعيشَ » .

وهذه الأقوال منتشرةٌ ، أضعافُها في مثاني كلام أهل العلم على تعاقبِ القرونِ ، فإنَّ الترخيصَ في ذلك عقبة تؤدي إلى جُرمِ القول على الله بلا علم ، ولنقل هنا : إنَّ أَصْلَ الشِّرْكِ والكفران وأساسَ البدعِ والعِصيانِ ، وما هو أغلظُ منها ، ومن جميع الفواحشِ والآثام ، والبغي والعدوانِ القول على الله بغير علم، والدَّليلُ قولُ الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الأعراف : ٣٣] [١] .

قال ابن قيِّم الجوزيَّة في تفسير هذه الآية :

« وقدْ حَرَّمَ اللهُ سبحانه وتعالى القولَ عليه بغير علمٍ في الفُتيا والقضاء ، وجعله من أعظم المحرَّمات ، بل جعله في المرتبة العُلْيَا منها » .

ثم ذكرَ الآيــة ، ثُمَّ قال : « فرتَّبَ المحرَّمات أربعَ مراتبَ ،وبدأ بأسهلها وهي الفواحشَ ، ثُمَّ ثَنَّى بما هو أشدُّ تحريمًا منها وهو الإثم والظُّلْم ، ثُمَّ ثلَّثَ بما هو أعظمُ تحريمًا منها وهو الشِّرْكُ به سبحانه ، ثُمَّ ربَّعَ بما هو أشَدُّ تحريمًا من ذلك كُلِّه وهو القولُ على الله بلا علمٍ » [٢] .



(١) ممَّا اطَّلَعتُ عليه ، واستفدتُ منه في هذا الباب كتابُ التَّعالم ، لمؤلِّفه العلاَّمة بكر أبو زيد - حفظه الله - بتصرُّف يسير .
(٢) « أعلام الموقِّعين » (١/٣٨) .

حُسْنُ الفَهْمِ

لكي يسيرُ الحِوار إلى الطَّريقة الصَّحيحة ، لابُدَّ من حُسْنِ الفَهْمِ لحُجَج الطَّرف الآخر ، وأدلَّته ، وأقواله ، والظُّروف المؤثِّرَة على أفعاله وتصرُّفاته ، فكثيرًا من الأحيانِ ما يتحاور الطَّرفان ، ويطول الحوار ، وتتشعَّب المسائل ، ويستمرُّ الخلاف ، ولا يصِلان إلى نتيجةٍ ، والسَّبب أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما لم يفهَمْ مرادَ الآخر ، ومستندَهُ مِنَ الأدلَّة والبراهين .

ولله دَرُّ أبي الطَّيِّب المتنبِّي القائل :

وَكَمْ مِنْ عائِبٍ قولاً صحيحًا ... وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقيمِ
ولكِنْ تَأْخُذُ الأذهانُ مِنْهُ ... عَلَى قَدْرِ القَرائِحِ والفُهُومِ

وقديمًا أوصى يحيى بن خالد بن جَعْفر - رحمه الله - ابنَهُ ، فقال له : « لا تردَّ على أَحَد جوابًا حتَّى تفهم كلامَهُ ؛ فإنَّ ذلك يصرفُكَ عن جواب كلامه إلى غيره ، ويُؤكِّدُ الجهْلَ عليك ، ولكن افهمْ عنه ، فإذا فَهِمْتَهُ فأجِبْهُ ، ولا تَعْجَلْ بالجوابِ قَبْلَ الاستفهام ، ولا تستحِ أنْ تستفهِمَ إذا لم تفهمْ ؛ فإنَّ الجواب قَبْلَ الفَهْمِ حُمْقٌ ، وإذا جَهِلْنا فاسألْ فيبدو لك ، واستفهامُكَ أجملُ بك وخيرٌ من السُّكوت على العِيِّ » (١) .

وقال ابن القيِّم - رحمه الله - : « ولَمَّا كان المقصودُ بالخطابِ دلالةَ السَّامع ، وإفهامه مُرَادَ المتكلِّم من كلامِهِ ، وأنْ يُبيِّنَ له ما في نفْسِهِ من المعاني ، وأن يدُلَّهُ على ذلك بأقرَبِ الطُّرُقِ ، كان موقوفًا على أمرين : بيانُ المتكلِّم وتمكُّنُ السَّامع من الفَهْمِ ، فإنْ لم يحصل البيانُ من المتكلِّم ، أو حصل ولم يتمكَّن السَّامعُ من

---

(١) « جامع بيان العلوم » (١/١٤٨) .

الفَـهْمِ ، لـم يحصلْ مُـرادُ المتكلِّمِ ، فإذا بيَّـنَ المتكلِّمُ مرادَهُ بالألفـاظ الدَّالَّة على مُراده ، ولـم يعلم السَّامعُ مَـعاني تِلكَ الألفاظِ ، لـم يحصل البـيانُ ، فلابُدَّ من تمكُّنِ السَّامع من الفَهْمِ ، وحصول الإفهام من المتكلِّمِ » (١) .

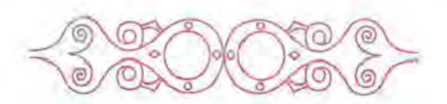
قال صفيّ الدّين الحلّي :

اسمعْ مخـاطَبَةَ الجَليسِ ، ولا تكُنْ عَـجِـلاً بنُـطْقكَ قَـبْلَمَـا تَـتَـفَـهَّـمُ
لَمْ تُعْـطَ مَعَ أُذُنَيْكَ نُطْقًـا واحــدًا إلاَّ لتَـسـمعَ ضِـعْفَ مـا تتكلَّمُ (٢)

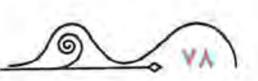
والحوار بدون فَهْمٍ يجْعَلُ المرءَ يُحَمِّلُ المسائل مـا لا تحتمل ، كما قال الإمام السبكيُّ - رحمه الله - : « فكثيرًا ما رأيتُ مَنْ يسمعُ لفظَةً ، فيفهمها على غيرِ وَجْهِهـا ، فَيُغَيِّـرُ على الكتاب والمؤلِّف ، ومَنْ عاشره ، واسـتَنَّ بسُنَّتِهِ ، مع أنَّ المؤلِّفَ لَمْ يُرِدْ ذلك الوَجْهَ الذي وصَلَ إليه ذلك الرَّجلُ » .

ومن اللطائف في هذا الباب : أنَّ الخليلَ بْنَ أحمـدَ الفراهيـديَّ كان يُقَطِّعُ عِلْمَ العُروضِ ، فدخلَ عليه وَلَدُهُ في تلك الحالة التي لم يسـبقْ له بها مثيلٌ ، فخرجَ إلى النَّاس ، وقال : إنَّ أبـي جُنَّ (أي أصابه الجنون) ، فدخلَ الـنَّاسُ عليه ، وأخبروه بما قال ابْنُهُ ، فقال له :

لَو كُنْتَ تَعْـلَمُ مـا أَقُـولُ عَـذَرْتَني أو كُنْتَ تَعْلَمُ مـا تقولُ عَـذَلْتُكا (٣)
لكنْ جَـهِلْتَ مَـقَـالـتي فَـعَـذَلْتَني وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَـاهِلٌ فَعَـذَرْتُكا (٤)



(١) « مختصر الصَّواعق المرسلة » (١/ ٣٩) ، وانظر كتاب « الرُّوح » (ص٧٨) .
(٢) « جواهر الأدب » (ص٤٦٩) .
(٣) العَذل : الملامة .
(٤) المفرد العلم (ص٨٩) .



تحديد الهدف

قد يختلف المتحاورون في مسائل عديدةٍ وليس في مسألةٍ واحدة ، ثُمَّ يَحْدُثُ الحوارُ بين الطَّرفين في مسائلَ الخلاف مجتمعةً ، فينقل الحوار من مسألة إلى أخرى بدون أنْ يتَّفقا على المسألة الأولى ، فيتشَعَّبُ الحوار ، ويطولُ في أمورٍ بعيدة عن الهدفِ ، فيكون الحوار عائمًا ، لا زِمام له ولا خِطام ، سائبًا لا ينتهي إلى نتيجةٍ .

إذًا تحديد الهدف من أهمِّ أُصولِ الحوار ؛ لأنَّه لا يصحُّ أن يكون الحوار في مسألتين مختلفتين ، كُلٌّ منهما يقصدُ بحواره إحداهما في آنٍ واحد ، وما لم يُحَدَّد الهدفُ فإنَّ الطَّرفَ الآخَرَ سوفَ يُحاولَ إحراقَ الفروع بعرضِ الأصول ، فإذا تحدَّثَ المحاور عن الغَزْوِ الفضائيِّ ، تأوَّهَ وبدأ في عرض آلام الأمَّة ؛ ليبتعدَ عن مُواجهة الموضوع الأساسيِّ للحوار ، كما قيل :

شكَوْنَا إلَيْهِمْ خَرَابَ العِراق فَعَابوا عَلَيْنَا لُحُومَ البَقَرْ
فَصِرْنَا كما قِيلَ فيما مَضَى: أُرِيْها السُّهى [1] وتُرِيني القَمَرْ

قال الرَّبيعُ بن سليمانَ - رحمه الله- : « كان الشَّافعيُّ إذا نَاظَرَهُ إنسانٌ في مسألة ، فَغَدا إلى غيرها ، يقول : نفرغ من هذه المسألةِ ، ثُمَّ نصير إلى ما تُريدُ » [2] .

وقال الخطيبُ البغداديُّ - رحمه الله - في « ذكر آداب الجدل والمناظرة » : « ويكون كلامُهُ يسيرًا جامعًا بليغًا ؛ فإنَّ التَّحفُّظَ من الزَّلَل مع الإقلال دونَ الإكثار ، وفي الإكثارِ ما يُخفي الفائدة ؛ ويُضيِّعُ المقصود ، ويُورث الحاضرين المَلَلَ » [3] .

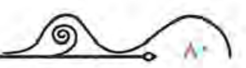
(١) السُّهَى : نَجْمٌ خَفِيٌّ ، يمتحنُ النَّاسُ به أبصارهم .
(٢) « تذكرة السَّامع والمتكلِّم »(ص ٤٠) .
(٣) « الفقيه والمتفقِّه »(٢/٢٨) .

وقال إمامُ الحرمين الجوينيُّ - رحمه الله : « وعليك بمراعاةِ كـلام الخَصْمِ ، وتَفَهُّمِ مـعانيه علَى غاية الحَـدِّ والاستقـصاءِ؛ فإنَّ فيـه أمانًا من اضطراب ترتيب فصول الكلام عليك ، فيسهُلُ عليك عند ذلك وَضْعُ كُلِّ شيءٍ مَوضعَهُ ، وفيه - أيضًا - أمـانٌ من تلبـيسِ الخصم ، والذَّهاب عن تزويره ، ولا تمكنْهُ من جـمع القصور عليك في الأسئلة والأجوبة ؛ فـإنَّهُ يُؤَدِّي إلى انتشار الكلامِ ، واختلاطِ مواضع النُّكتـة ، والتباسِ موضعَ الحقِّ بغـيره ، وإنْ طوَّلَ عليك كلامَهُ بعـباراته الطَّويلة ، فَلَخِّصْ من جَميعـها موضعَ الحاجة إليه ، فتـحضره عليه ، ثُمَّ تكلَّمْ فـيه بما يليق به ؛ لأنَّك إذا فـعلتَ ذلك ، زال مـا أوهم به الحاضـرين من إيراد العلوم الكثيـرة ، وإذا لم تحصر عليـه موضع الفائدة ، فـوَّه عليهم بتقصـيرك ، ولأنك إذا أحصـرتَ عليه في كلامـه ألفاظَهُ ومـعانيه ، وأخـذتَ إقْرَارَهُ في كُلِّ ذلك، فقُلتَ : ألسْتَ قُلْتَ كذا ، ومعناه كذا ، لم يُمكنْهُ الهربَ ممَّا يلزمه عليه من كلامه ، ولا الرُّجوع ، وإذا لم تفعلْ ذلك ، ربَّما ناكرك عند الإلزام ، فتسدَّ مواضعَ الخلل حين تَنَبُّهُ له عند الإلزام » [1] .

ومن الأمثلة في هذا المقام : مُناظرة عـبد الله بن عـبَّاس رضي الله عنهما مع الخَـوَارج المذكورة آنفًـا ، في هذه المناظرة الشَّهيرة سـأل ابنُ عبَّاسٍ الخَوَارجَ عن مـأخذهم على الإمام عليٍّ رضي الله عنه وأصحابِه ، فحدَّدَ بـذلك مسائلَ الاختلافِ بدقَّة ، ثُمَّ بدأ باستـعراض هذه المسائل الواحـدَة تلْوَ الأُخْرَى ، لا ينتقلُ من واحـدة إلاَّ بَعْدَ أن ينتهيَ الحوارُ منها ، ويقولُ لهم بَعْدَ كُلِّ مسألة بَيَّنَ وَجْهَ الحقِّ فيها : أَخْرَجْتُ من هذه ؟ ، فإذا قالوا : اللَّهُـمَّ نَعَمْ ، انتقَلَ إلى المسألةِ التي تليهـا ، حتَّى مَرَّ على جميع المسائل التي أشكلتْ عليهم .

---

(١) « الكافية في الجَدَل » (ص٥٣٥) .



الأمانة والتَّوثيق

لاشكَّ - أخي الحبيب - أنَّ الأقوالَ المُجَرَّدَةَ من الشَّواهد والأدلَّة والبراهين أقَلُّ تأثيرًا في النّفوسِ من سَوْقِها مُدَعَّمةً بالشَّواهدِ المعتمدة الصَّحيحة والثَّابتة ، سواء من الكتابِ والسُّنَّة ، وأقْوالِ عُلمَاءِ الأمَّة ، إذا كانت ممَّا له صِلَةٌ بها ، أم من أقوال أهل الاختصاص : كالنَّقلِ عن علماءِ الطِّبِّ في مسائلِ الطِّبِّ ، وما إلى ذلك مع الحَذَرِ من الاستشهاد بآراء وأقوال مَنْ لا يُطْمَئَنُّ إلى علمه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « والمجادلة المحمودة إنَّما تكونُ بإبداءِ المدارك ، وإظْهارِ الحُجَج التي هي مُستندُ الأقوال والأعمال ، وأمَّا إظهار الاعتماد عمَّا ليس هو المعتَمدَ في القول والعمل ، فنَوْعٌ من النِّفاقِ في العلمِ ، والجَدَلِ ، والكلامِ والعملِ » [1] .

وكما أنَّه يُطْلَبُ منك الأمانة في العرضِ والتَّوثيق ، فإنَّ الرَّغبةَ في تفنيد أوهام المخالف أو أخطائه تدعوك إلى الاطِّلاع أوَّلاً على مصادره ، والتَّعرُّف على أدلَّته ؛ فإنَّ تقصيرك في هذا يبدو وكأنَّه قُصورٌ في أدلتك على ما تدعو إليه من حقٍّ ، فعليكَ أنْ تُدْرِكَ هذه الحقيقة ، وأنْ تعْلَمَ أنَّه عندما يكونُ المخالفُ أعْلَمَ منك بتخصُّصه الذي يلزمُكَ الاطِّلاع عليه ؛ كي تَرُدَّ قَوْلَهُ من خلاله ، فإنَّه سينكشف له ضَعْفُ اطِّلاعكَ عَلَى تَخصُّصه ، ولعلَّهُ بعدَ ذلكَ أنْ ينخَدِعَ بهَذَا ، فيقيل ضَعْفَكَ هذا عَلَى ضَعْفٍ منك يتخيَّلُهُ في إدراكك صوابَ ما تدعو إليه ، فتكون أنت فتنة له [2] .

---

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » .
(٢) « في أصول الحوار » (ص ٤١) .

الابتعاد عن الرخص المفتعلة

أخي الحبيب ، اعلمْ - علَّمني اللهُ وإيَّاكَ - أنَّ الرُّجوع إلى غثاثة الرُّخَصِ المفتعلة ، والأقوال الشَّاذَّة ، والآراء الفَجَّة ، مُنابذةٌ لاعتقاد أهلِ السُّنَّة .

قال الإمامُ الطحاويُّ : « ونجتنبُ الشُّذوذَ ، والخلافَ والفُرْقَةَ » (١) .

والمُحاور النَّاجح بناءُ حوار علَى الجدِّ والصِّدْقَ .

قال ابن القيِّم : « أهلُ العَزَائمِ بناءُ أمرهم على الجِدِّ والصِّدْقِ ، فالسُّكون فهم إلى الرُّخَصِ رُجُوعٌ وبَطَالةٌ » (٢) .

وقال أيضًا : « ثُمَّ ذلك الخلافُ قد يكون قولاً ضعيفًا ، فيتولَّدُ ذلك القولُ الضَّعيفُ الذي هو من خطإٍ بعض المجتهدين ، وهذا الظَّنُّ الفاسدُ الذي هو خَطَأُ بعض الجاهلين تبديلُ الدِّين ، وطاعةُ الشَّيطانِ ، ومعصية ربِّ العالمين ، فإذا انضافتِ الأقوالُ الباطلَةُ إلى الظُّنونِ الكاذبةِ ، وأعانتْها الأهواءُ الغالبةُ ، فلا تسْأَلْ عن تبديلِ الدِّين بَعْدَ ذلك ، والخروجِ عن جُملَةِ الشَّرائع بالكُلِّيَّة » (٣) .

وقال الإمامُ الذَّهبيُّ : « وقال شيخٌ : إنَّ الإمام بمَنِ التزَمَ بتقليدِهِ كالنَّبيِّ معَ أُمَّته ، لا تحلُّ مُخالفتُهُ .

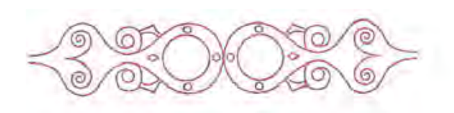
قُلتُ : قوله : لا تحلُّ مخالفته مُجرَّدُ دعوى واجتهادٌ بلا معرفةٍ ، بل له مخالفةُ إمامه إلى إمامٍ آخرَ حُجَّتُهُ في تلك المسألة أقوى ، لا بل عليه اتِّباع الدَّليل فيما تبرهنَ له ، لا كمن تَمَذْهَبَ لإمامٍ ، فإذَا لاحَ له ما يُوافقُ هواهُ ، عَمِلَ به من أيِّ مذْهَبٍ كان ، ومَنْ يَتَّبِعْ رُخَصَ المذاهبِ ، وزلاَّت المجتهدين ، فقد رَقَّ

---

(١) « شرح الطَّحاويَّة » (٢/ ٥٤٤) .
(٢) « مدارج السَّالكين » .
(٣) « إغاثة اللَّهفان » (٢/ ١٤٦) .

دينُهُ ، كما قال الأوزاعيُّ أو غيره : مَنْ أخذَ بقول المكّيِّينَ في المُتْعَة ، والكُوفيِّينَ في النَّبِيْــذِ ، والمَدَنيِّينَ في الغناء ، والشَّاميِّينَ في عـصمة الخلفاءِ ، فـقدْ وقَعَ في الشَّــرِّ ، وكذا مَنْ أَخَـذَ في البُيُــوعِ الرِّبَوِيَّةِ لمن يتحـيَّلُ عَلَيْهَـا ، وفي الطَّلاقِ ، ونكاحِ التَّحليل لمن تَوسَّعَ فيه ، وشبه ذلك ، فقد تعرَّضَ للانحلال ، فنسألُ اللهَ العافيةَ والتَّوفيقَ » (١) .

وقال أيضًا في دخولات إسماعيل القاضي على المعتضد العباسي: « ودخلْتُ مرَّةً، فَدَفَعَ إليَّ كـتابًا ، فنظرتُ فـيه ، فـإذا قَدْ جمَعَ له الرُّخَصَ من زَلَــلِ العلماء ، فقـلتُ : مُصَنِّفُ هَذَا زِنْديقٌ ، فـقال : أَلَمْ تَصِحَّ هَذِه الأحـاديثُ ؟! ، قلتُ: بلى، ولكنْ مَنْ أباحَ المُسْكِرَ لمْ يُبِح المُتْعَةَ ، ومَنْ أباح المُتْعَةَ لم يُبِح الغناءَ ، وما مِنْ عالمٍ إلاَّ ولَهُ زَلَّةٌ ، ومَنْ أخَـذَ بكُلِّ زَلَلِ العلماءِ ذَهَبَ دِينُهُ ، فأمـر بالكتابِ فأُحْرِقَ » (٢) .



(١) « السِّيَر » (٨/ ٨١) .
(٢) المرجع السَّابق (١٣/ ٤٦٥) .

عدم الدخول في النية

يَجْمُلُ بِكَ - أخي الحبيب - أنْ تُحْسِنَ الظَنَّ بمن تُحاوره ، وأنْ تحملَ كلامَهُ علَى أحسن المحامل ما استطعتَ إلى ذَلكَ سبيلاً ، وإذَا رأيتَ أنَّ صاحبكَ قد أخطأ ، وترجَّحَ لك ذلك بالدَّليل ، فقل له : أَخْطَأتَ ، ثُمَّ اذكر مُستندك الشَّرعيَّ ، ومتى لم يتبَيَّنْ لك الخطأُ ، لم يَحلَّ لك الإنكارَ على قائله حتَّى يتبيَّنَ لك خَطَؤُهُ ، فإذَا تَحَقَّقْتَ من ذلك الخطإ بَيَّنْتَهُ ، ولا تتعدَّ في ذلك إلى غيره ، فمن قواعدَ الإسلام البيِّنَة أنَّ القلوبَ عِلْمُها عند الله سبحانه وتعالى ، فما علينا إلاَّ الأخذُ بالظَّاهرِ .

عن أُسامَةَ بن زيد رضي الله عنهما قال : « بَعَثَنَا رسولُ الله ﷺ في سَرِيَّة [(١)] ، فَصَبَّحنا الحُرَقَات [(٢)] مِنْ جُهَيْنَةَ ، فأدْرَكْتُ رجلاً ، فقال : لا إلَهَ إلاَّ اللهُ ، فطَعَنْتُهُ ، فَوَقَعَ في نفسي من ذلك ، فذكَرْتُهُ للنَّبيِّ ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ : « أقالَ : لا إلَهَ إلاَّ اللهُ وَقَتَلْتَهُ ؟! » قلتُ : يا رسولَ الله ، إنَّما قالها خَوْفًا مِنَ السِّلاحِ ، قال : « أفلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِه ؛ حتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أمْ لا ؟! » ، فما زالَ يُكرِّرُهَا ، حتَّى تَمَنَّيْتُ أنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئذٍ » [(٣)] .

وفي حديث أبي سعيد الخُدَريِّ رضي الله عنه في ذكرِ أوصاف الخَوَارِجِ ، فقال خالدٌ: « وكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يقولُ بلسانه ما ليس في قلبه » ، فقال رسولُ الله ﷺ : « إنِّي لمْ أُومَرْ أنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ ، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُم » [(٤)] .

---

(١) السَّرِيَّةُ : القطْعَةُ منَ الجيشْ ، سُمِّيَتْ سريَّةً ؛ لأنَّها تسري في خفيةٍ ، وجمع سريَّة : سَرَايَا .
(٢) الحُرَقَات : جمع حُرَقَة ، وهي بَطْنٌ من جُهَيْنَةَ القبيلة المعروفة .
(٣) أخرَجه البخاري (٤٢٦٩) و (٦٨٧٢) ، ومسلم (٩٦) .
(٤) أخرجه البخاري (٤٣٥١) ، ومسلم (١٠٦٤) .

ولا شكَّ - أخي الحبيب - أنَّ السَّلَفَ الصَّالحَ رضوان الله عليهم قرنوا بين البدعَةَ والهوى ، وسَمَّـوُا الْمُخالفين بأهلِ البدع والأهواء ، ولكن ذلك كان على الغالب (أَيْ عَلَى مَنْ ظَهَرَتْ عليه علاماتُ الهوى ظُهُورًا مُسْتَحْكَمًا لا خفاءَ فيه) ومن الأُمـورِ الْمُقَرَّرة عندهـم أنَّه ليس كُلُّ مُخـالفٍ صـاحبَ هوىً ، وليس كُلُّ مُخْطِئٍ قصد ذلك ، فلعلَّهُ كان متأوِّلاً أو مجتهدًا ، وأنَّ الغلط الذي صدَرَ منه له فيه تأويلٌ سائغٌ ، وله اجتهادٌ هو فيه معذورٌ ، والقادحُ فيه غيرُ معذورٍ .

صَحَّ عَنْ عَـمْـرو بن العـاصِ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قـال : « إذا حَكَمَ الحاكمُ فـاجتـهدَ ، ثُمَّ أَصَـابَ ، فلَهُ أَجْرَانِ ، وإذا حَكَمَ فـاجْتَهَـدَ ، ثُمَّ أَخْطَأَ ، فَلَهُ أَجْرٌ » [1] .

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية : « وكثيرٌ من مُجتَهِدِي السَّلَف قد قالوا وفعلوا ما هو بِدْعَةٌ ، ولم يعلـموا أنَّه بدعةٌ ؛ إمَّا لأحاديثَ ضـعيفةٍ ظنُّوها صحـيحةً ، وإمَّا لآياتٍ فهموا منها ما لم يُرَدْ منها ، وإمَّا لرأيٍ رآه ، وفي المسألةِ نصوصٌ لم تَبْلُغْـهم ، وإذا اتَّقَى الرَّجُلُ ربَّهُ ما استطاعَ ، دخَلَ في قوله تعـالى : ﴿ ربَّنا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وفي الصَّـحيحِ قال : « قد فَعَلْتُ » [2] » [3] .

ومن اللطائفِ في هذا الباب ما ذكره العلامة السعْدِيُّ - رحمه الله -في الفتاوى (٤٧ - ٤٨) قوله : « يُعْجبني ما وقَعَ لبعْضِ أهل العلم ، وهو أنَّه كتبَ له إنسانٌ من أهل العلم والدِّين ينتقدُهُ انتقادًا حاراً في بعض المسائل ، ويزعُمُ أنَّه مُخْطِئٌ فيها ، حتَّى أنَّه قَدَحَ في قـصده ونيَّتِهِ ، وادَّعى أنَّه يدين اللهَ ببغـضِهِ بناءً علَى ما توهَّمَ

---

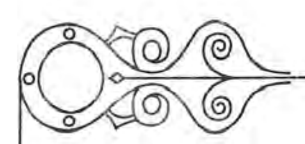
(١) أخرجه البخاريُّ (٧٣٥٢) ، ومسلمٌ (١٧١٦) .
(٢) أخرجه مسلمٌ (١/ ١١٦) .
(٣) « الفتاوى » (١٩/ ١٩٢) .

من خطئه ، ، فأجَابَ المَكْتُوبُ له : يا أخي ، إنَّكَ إذا تَرَكْتَ ما يجبُ من المودَّة الدّينيَّة ، وسَلَكْتَ ما يَحْـرُمُ عَلَيكَ من اتِّهام أخيكَ بالقصْـدِ السَّيِّئ - عَلَى فَرْضِ أَنَّهُ أَخْطَأَ - وتجنَّبْتَ الدَّعوَةَ إلى الله بالحكمـةِ في هذه الأمور ، فإني أُخْـبرُكَ قبل الشُّروعِ في جـوابي لك عمَّـا انتقـدْتَني عليه ، بأنِّي لا أَتْرُكُ مـا يجبُ عليَّ من الإقامة عَلَى مَودَّتك ، والاسـتمرار علَى محبَّتك المبنيَّـة علَى ما أعرفه من دينك انتصارًا لنفسي ، بل أزيدك بإقامة العُذْرِ لك في قَدْحكَ في أخيكَ بأنَّ الدَّافعَ لك علَى ذلك قَصْدٌ حَسَنٌ ، لكن لم يَصْحَبْهُ عِلْمٌ يُصَحِّـحُهُ ، ولا معرفةٌ تُبيِّنُ مرتبتهُ ولا وَرَعٌ صحـيحٌ يُوقفُ العَـبْدَ عند حَدِّه الـذي أَوْجَبَهُ الشَّـارِعُ عليه ، فَلِـحُسْنِ قَصْدِكَ عَفَـوْتُ لك عمَّا كان منك لي من الاتِّهامِ بالقَصْـدِ السَّيِّئِ ، فَهَبْ [1] أنَّ الصَّوابَ معك يقينًا ، فهل خَطَأُ الإنسـانِ عُنْوانٌ عَلَى سُوءِ قَصْدِه ؟! ، فلو كانَ الأمْرُ كَذلك لوجَبَ رَمْيُ جميع عُلَماءُ الأُمَّة بالقُـصودِ السَّيِّئةِ ! ، فهَلْ سَلِمَ أَحَدٌ من الخَطَإِ ؟! ، وهَلْ هَذَا الذي تَجَرَّأْتَ عليه إلاَّ مُخالفٌ لما أجْمَعَ عليه المُسلمونَ من أنَّه لا يحلُّ رَمْيُ المسلم بالقصدِ السَّيِّئ إذا أَخطَأَ ؟! ، والله تعالى قد عَفَا عن خطإ المؤمنين في الأقوالِ والأفعال ، وجميعِ الأحوالِ ، ثُمَّ نقولُ : هَبْ أنَّه جازَ للإنسانِ القَدْحُ في إدارةِ مَنْ دَلَّتْ عـليه القرائنُ والعلاماتُ علَى قَـصدِه السَّيِّئ ، أَفَيَحلُّ القَـدْحُ فيما عندك من الأدلَّة الـكثيرة علَى حُسْنِ قَـصْدِه وبعدِه عن إرادة السُّوءِ ما لا يسوغُ لك أنْ تتوهَّمَ فيه شيئًا مِمَّا رَمَيْتَهُ به ؟! .

وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمنـين أنْ يَظُنُّوا بإخوانهم خـيرًا ، إذا قيل فـيهم خِـلافَ ما يقتضيـه الإيمانُ ، فقال تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ { النُّور : ١٢ } .

---

(١) هَبْ : ظُنَّ وافترضْ ، وهو فعلٌ جامدٌ ملازمٌ لصورة الأمريَّة .

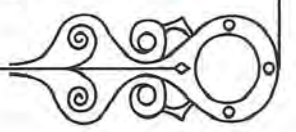


الباب الثَّاني

آداب الحوار :

- فَنُّ الأسئلةِ .
- تحديدُ الشَّخصيَّةِ .
- تقويمُ اللِّسانِ .
- البَيَانُ .
- الأمثِلَةُ .
- لِكُلِّ مقامٍ مَقَالٌ .
- الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ .
- حَاوِرْهُ باسْمِهِ .
- لا تَسْتَخْدِمْ لَفْظَةَ « أنَا » .
- حُسْنُ الاستماع .
- الحِوارُ الصَّامتُ .
- مُحَاوَرَةُ الصِّغارِ .
- لا تُحاوِرْ هؤلاءِ .
- المُعارَضَةُ .
- فُضُولُ الحِوارِ .





فَنُّ الأسئلة

الأَسْئلَةُ هي وسيلتنا للتَّعارُف عَلَى الطَّرَف الآخر ، ومَنْزِلَتِه وعلْمه ، ومستواهُ العلْميِّ والجدليِّ ؛ حتَّى نعرفَ حالَهُ فَنَسْتَعِدّ له ، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يسألُ عن أصْلِ شخصٍ غريبٍ ، أو وَفْد [1] غريبٍ عند التقائه بهم ؛ كي يتمكَّنَ من التَّعارُف عَلَى مَنْ قَدِمَ عليه ، أو التقى هو ﷺ بهم ، فينزلهم منازلهم ، ويتحاور معهم مُراعيًا أحوالهم ، ومن ذلك - على سبيل المثالِ - :

(أ) سؤاله ﷺ رجلاً من هَمْدان [2] عَنْ أصلِه :

عن جابرٍ رضي الله عنه قال : كانَ النَّبيُّ ﷺ يعرضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاس بالموقف [3] فيقول : « هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إلى قومه ؛ فإنَّ قُريشًا قَدْ منعوني أنْ أُبَلِّغَ رسالةَ ربِّي عزَّ وجلَّ ؟ » ، فأتاهُ رجلٌ مِنْ هَمْدان ، فقال : « مِمَّنْ أنتَ ؟ » ، فقال الرَّجُلُ : « منْ هَمْدان» ، فقال : « هل عنْدَ قَومكَ منْ منعة ؟ » قال : « نَعَمْ » ثُمَّ إنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أنْ يَحقِرَهُ قومُهُ ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : آتيهم فأُخبرهم ، ثمَّ آتيك من عامٍ قابلٍ . قال : « نَعَمْ » ، فانطلقَ وجاءَ وَفْدُ الأنصارِ في رَجَب [4] .

(ب) سؤاله ﷺ نَفَرًا من الخَزْرَج عندَ عَقَبة المِنَى عن أصلهم :

لَقِيَ النَّبيُّ ﷺ نَفَرًا من الخَزْرَجِ عِنْدَ عَقَبَة المِنَى في موسمِ الحجِّ ، فسألهم عن أصلهم - أيضًا - قبل دعوتهم إلى الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) الوَفْدُ : الجماعة .

(٢) هَمْدان - بفتح الهاء ، وسكون الميم - : قبيلة باليمن ، «بلوغ الأماني» (٢٠/ ٢٦٧) .

(٣) الموقف : أي موقف النَّاس بعَرَفات في موسم الحَجِّ . المرجع السَّابق (٢٠/ ٢٦٧) .

(٤) أخرجه أحمد (٣٤١-٢٠) ، والحاكم (٢/ ٦١٢-٦١٣) ، وقال عنه : صحيحٌ على شرطِ الشَّيخين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذَّهبيُّ . انظر « التَّلخيص » (٢/ ٦١٣) .

رَوَى الإمامُ ابن إسحاق أنَّه لَمَّا لَقِيَهُمْ (نفرًا من الخَزْرَجِ) رسولُ الله ﷺ قال لهم : « مَنْ أنتُمْ ؟ » ، قالوا : نَفَرٌ من الخَزْرَج ، قال : « أَمِنْ مَوَالي يَهُود ؟ » قالوا : نعمْ . قال : « أفَلا تجلسونَ أُكَلِّمْكُمْ ؟ » قالوا : « بَلَى » فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعَرَضَ عليهم الإسلامَ ، وتلا عليهم القرآنَ [١] .

(جـ) سؤاله ﷺ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ عن أصلهم :

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال : قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْسِ عليه ﷺ ، فسألهم بقوله : « مَنِ القَوْمُ ؟ » أو « مَنِ الوَفْدُ ؟ » ، قالوا : « رَبِيعَةُ » ، قال : « مَرْحبًا بالقَوْمِ - أو بالوَفْدِ - غَيْرَ خَزَايا [٢] ، ولا نَدَامَى [٣] » الحديث [٤] .

قال ابن حجر : قال ابن أبي جمرةَ : في قوله : « مَنِ القَوْمُ ؟ » دليلٌ علَى استحباب سؤال القاصد عن نفسه ؛ ليُعْرَفَ فيُنْزَل مَنْزِلَتَهُ » [٥] .

والأسئلة فَنٌّ ، فلابُدَّ أن يكون المُحاور ماهرًا في صياغة السُّؤال ، والتَّعليق عليه بصورةٍ أو بأُخرى ؛ لأنَّه يجب أن يسأل ، ويستوضحَ قبل أنْ يُصْدِرَ حُكْمًا أو يرفُضَ رأيًا ، فالعلم سؤالٌ وجوابٌ ، ومن ثَمَّ قيل : « حُسْنُ السُّؤالِ نصفُ العِلْمِ » [٦] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٤) ، وحسَّنه الألبانيُّ ، انظر تعليقه على فقه السِّيرة للغزاليِّ هامش (ص١٥٤) ، وحسَّنَ إسناده - أيضًا - الدّكتور العمري ، والأستاذان شعيبٌ وعبد القادر الأرناؤوط ، انظر هامش زاد المعاد (٣/ ٥٤) .

(٢) خَزَايا : جمع خازٍ . والمعنى : أنَّهم أسلموا طَوْعًا من غَيْرِ حَرْبٍ أو سَبْيٍ يُخْزِيهم ويَفْضَحُهُم . الفتح (١/ ١٣١ - ١٣٢) .

(٣) نَدَامى : جمع ندمان ، أي المنادم في اللَّهو . المرجع السَّابق (١/ ١٣١-١٣٢) .

(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٣) ، ومسلمٌ (١٧) .

(٥) « الفتح » (١/ ١٣١) .

(٦) المرجع السَّابق (١/ ١٤٢).

قال القحطانيُّ - رحمه الله - :

أَصْلُ الجِـدالِ مِنَ السُّؤَالِ ، وفَـرْعُهُ حُـسْنُ الجـوابِ بأَحْـسَنِ التِّـبْـيـانِ
لا تَلْتَـفِتْ عِنْدَ السُّؤَالِ ، ولا تُعِـدْ لَفْظَ السُّـؤَالِ كلاهمـا عَـيْبـانِ (١)

ويُمكن تقسيم الأسئلة إلى ثلاثة أقسام :

[١] الأسئلة المفتوحة :

وهي التي تَسْمَحُ للآخر بالإجـابة عن السُّؤال بطريقةٍ غير مـحدَّدة ، مثل : أنْ تقولَ لمحاورك : الأخُ مِنْ أينَ ؟ ما اسـمُكَ ؟ ، كيفَ حَالُكَ ؟ ، أينَ طَلَبْتَ العِلْمَ ؟ ، كيف أنتَ والقراءَةَ ؟ ، إلى غير ذلك ، وأنت تُعَلِّق بقولك : ما شاءَ اللهُ ، نَعَمْ ، زِدْني ، حَدِّثْني عَنْ هَذَا الكتاب ، أو تُعَلِّق عَلَى جُزئيَّةٍ من حديثه ، سواء بالإيماء ، أو الهَـمْهَمَـاتِ ، وتعبيـرات الوَجْهِ ، ممَّا يضطرُّهُ إلى التَّـوضيحِ أكثر ، ويبدأ تبادل الحوار والأُلفة والمحبَّة بينكما ، وهذا له دورٌ عظيمٌ في اكتشاف شخصـيَّة مُحاورك ، وكذا تحقـيق الانسجام بصورةٍ طبيـعيَّةٍ وتلقائيَّةٍ ، كـما أنَّها وسيـلةٌ لكسبِ الثِّقَـة ، وكسْبُ الثِّـقَة يُولِّدُ بالتَّـالي المودَّة والمحبَّـة في القلوب ، ناهيكَ عن تنشيط عمليَّـة التَّحاور ، وإثارة تفكير الآخر ، ومعـرفة الطَّريقة التي يُفكِّرُ بها ، واختبار صحَّة بعض المعلومات .

[٢] الأسئلة الموجَّهة :

وهي التي تُقيِّدُ الآخر بوضع الإجـابة في إطارٍ محدود ، مثل : أنْ تسألَ : ما دليلُكَ عَلَى ما ذهبتَ إليه ؟ ، هَلْ سَبَقَكَ بهذا القول إمامٌ ؟ ، أينَ مَظَانُّ هَذَا القول ، أو هذه الفائدة ؟ .

---

(١) « النُّونيَّة » (ص٣٩) .

[٣] الأسئلة التَّقريريَّة :

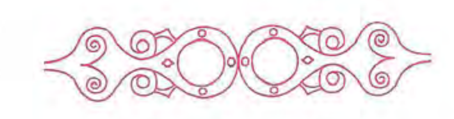
وهي التي تستدرجُ الطَّـرفَ الآخر إلى الإقرار بقوله ، وتجعل جـوابه إيجابياً نافعًـا ، والإقرارُ يتميَّـزُ بسيطرة السَّائل على الأسـئلة والأجوبة معًـا ، وبطريقة تُمكِّنه من الوصولِ إلى أهدافِهِ من أقْرَبِ طريقٍ .

والأسئلة التقريرية قد جاءت في مواضعَ عدةٍ من كتاب الله . فعلى سبيل المثال :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ { لُقمان : ٢٥ } .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ { العنكبوت : ٦١ } .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) ﴾ { الزُخرُف : ٩ } .



تحديد الشَّخصيَّة

ترجع نسبةٌ كبيرةٌ من الحوارات الفاشلةِ إلى عدمِ معرفةِ المحاور للطرفِ المقابلِ لهُ معرفةً دقيقةً ؛ لأنَّ الجهلَ يُؤدِّي إلى سوءِ الفَهْمِ بكُلِّ تأثيراته السَّلبيَّة التي تصل إلى حدِّ الانشقاقِ والفُرقة ، ومن هنا كانت المعرفة الدَّقيقة لشخصيَّة الآخر ، وظروفه ، وبيئته ، واهتماماته ، ومُبرِّراته في التَّمسُّكِ بما يقول ، كُلُّ ذلك هو الطَّريق إلى تحديد الأسلوب المُناسب للتَّحاور معه ، والمفتاح الصَّحيح لفتح قلبه ، والقرب منه وضبط أعصابه .

وتُعَرَّفُ الشخصيَّة بأنَّها : الصِّفات المُعَيَّنة التي يتَّصِفُ بها إنسانٌ ما دون غيره .

ويُمكن تقسيم الشخصيَّة التي نتعامل معها إلى أربعة أقسام :

[١] الشخصيَّة اليائسة :

وهي شخصيَّة مَنْ تَعرَّضوا للفشلِ المستمرِّ على طريق الدَّعوَة إلى الله ، أو على طريقٍ آخر ، وأسلمهم هذا الفشلُ إلى يأسٍ مُطْلَقٍ من أيِّ عملٍ ، وهؤلاءِ لا يتصوَّرون عملاً يمكنه الوصول إلى التغيير للأفضل ، بل ويكرهون من يُحاول القيام بأيِّ مُحاولةٍ إيجابيَّةٍ للتَّغيير ، ويجدون مُتْعَتهم الحقيقيَّة في رَصْدِ تجارِبِ الفَشَل .

ولا شَكَّ أنَّ الحوار مع هؤلاء يتطلَّب الحذر الشَّديد ؛ حتَّى لا يضيع وقتُ الحوار فيما لا ينفعُ ، أو يدورُ الحوار في حلقةٍ مفرغةٍ دون الوصول إلى أهدافٍ محدودةٍ يُبْنَى عليها الحوار .

ومن هنا وَجَبَ على من يتحاور مع هذا الصِّنف عدمُ الخوض في الأمورِ التي سبَّبت لهؤلاء الفشلَ ؛ لأنَّ هذه الأمور تستشير شَهِيَّتهم لترسيخ اليأسِ ، وإنَّما يكون التَّركيزُ في الحوارِ على ترسيخ اليقين بأنَّ هناك ما يُمكن عمله ، وأنَّ

كُلُّ عملٍ مُفيدٌ .

[٢] الشَّخصيَّة المصنِّفة :

وهي الشَّخصيَّة التي تميلُ - دائمًا - إلى تصنيفِ الآخر وتأخيره بجهالة دونَ تروٍّ ، بل وتَعْتَبِرُ الآخر عندَ أدنى مُخالفةٍ من معسكر الخُصُومِ الذين يجب التَّصارع معهم وسحقهم .

ولا شكَّ أنَّ التَّحاور مع أصحابِ هذه الشَّخصيَّة يتطلَّبُ قَدْرًا كبيرًا من الذَّكاء والحذر ، ويقتضي إبراز أكبر قَدْرٍ ممكن من مواطن الاتِّفاق بين الطَّرفين في بداية التَّحاورِ ؛ لأنَّ ذلك يُقَلِّلُ فجوةَ الخلافِ ، ثُمَّ استثمار الفرص للتأكيد على خطإِ تصنيفهم عبر رسالةٍ أَخَوِيَّةٍ تُثبتُ حُسْنَ النِّيَّة والحُبَّ للآخر ؛ لأنَّ ذلك يُقلل الكراهية .

فإذا ضاقتْ فَجْوَةُ الخِلاف ، وانحسَرَتْ حِدَّةُ الكراهية من الآخر ، فلابُدَّ من الالتزام خلال الحوار بترك الفرصَة الدَّائِمَة للمخالف يرجعُ عَنْ أفكاره مع حِفظِ ماء الوجْه .

إنَّ مَنْ نحاوره ونُخالفه في الرَّأي بطريقة صحيحة للحوارِ والخلاف ، لا يَشْعُرُ بالانهزامِ والإرغامِ ، بل يشعر بفضيلة انكشاف الحقِّ ، والرضوخ له دون إرغامٍ من أحدٍ ، والحوار النَّاجح هو الحوارُ الَّذي لا يَشْعُرُ فيه المتراجعُ عن الخطإِ بالذُّلِّ كما لا يشعر فيه الدَّاعي إلى الحقِّ بالغرور .

[٣] الشَّخصيَّة المتَصيِّدَة :

وهي التي يقومُ صاحبها بتصيُّد الحروف والألفاظ ، دون الاهتمام بمقاصدها ، أو إحسان الظَّنِّ بقائلها ، وهذه الشَّخْصيَّة - وليس لنا مَثَلُ السَّوْءِ - كشخصيَّة الخنزير ، أو الذُّباب .

قال ابن القيم - رحمه الله -: « ومِنَ النَّاسِ مَنْ طَبْعُهُ طَبْعُ خنزيرٍ ، يَمُرُّ بالطَّيِّباتِ فلا يَلْوي عليها ، فإذا قام الإنسانُ عن رَجيعِهِ قَمَّهُ ، وهكذا كثيرٌ من النَّاسِ ،يسمَعُ منك ويرى من المحاسن أضعَافَ المساوئ ، فلا يَحْفَظُها ، ولا يَنْقُلُها ، ولا تُناسبُهُ ، فإذا رأى سَقْطَةً ، أو كلمَةَ عَوْراءَ ، وَجَدَ بُغْيَتَهُ وما يُناسبها ، فجعلها فاكِهَتَهُ ونُقْلَهُ » [1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: « إنَّ الجاهلَ بمنزلة الذُّباب ، لا يقعُ إلاَّ عَلَى العقير (أي الجريح) » [2] .

قال عبد الكريم العماد :

لا تَكُنْ كَالذُّبابِ يَتْرُكُ مَا طَا	بَ ، ويَلْوي عَلَى الأَذَى والقُرُوحِ
وتَنَزَّهْ كَنَحْلَةِ الرَّوْضِ فَوْقَ الزَّ	هْرِ ، تَبْغي الرَّحيقَ بَيْنَ السُّفُوحِ

ولاشكَّ أنَّ التَّحاورَ مع أصحابِ هذه الشَّخصيَّات يحتاجُ إلى التَّذكير الدَّائم بأنَّه ليس أحدٌ من العلماء إلاَّ وله نادرةٌ ينبغي أنْ تُغمَرَ في جنب فَضْلِهِ وتُجتَنَب [3] ، ولابُدَّ من التَّخلُّقِ بأدبِ الاعتراف بالخطإ إنْ وَقَعَ منَّا ، وعدم الدِّفاع عن الأخطاء أو تبريرها ؛ لأنَّ ذلك هو السَّبيلُ لإقامة جسورِ التَّواصُلِ مع أصحابِ الشَّخصيَّة المُتَصيِّدَة .

وهنا نقطةٌ مُهمةٌ في هذا الباب :

هي أنَّهُ ليس كُلُّ مَنْ يَغْلبُ عليه النَّقْدُ صاحبَ شَخْصيَّة مُتَصَيِّدَة ؛ فالنَّقْدُ - في الوقت ذاته - يُعْتَبرُ ضرورةً مُلحَّةً لا يُسْتَغْنَى عنها ، خاصَّةً إذا كان مبنيّاً عَلَى تمام العدلِ والإنصافِ والتَّجرُّدِ ، وهو من باب النَّصيحَةِ والتَّواصي بالحقِّ

---

(١) « مدارج السَّالكين » (١/ ٤٣٥) .
(٢) « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » (٦/ ١٥٠) .
(٣) « الموافقات » (٤/ ١٨٩-١٩٠) .

المأمور بهما شرعًا .

وما أجمل ما قاله الإمام الربّاني ابنُ القيّم - رحمه الله - :

« عادتنا في مسائل الدِّين كُلِّها دِقِّها وجلِّها أن نقولَ بموجبها ، ولا نضربَ بعضَها ببعضٍ ، ولا نتعصَّبَ لطائفَةٍ علَى طائفَةٍ ، بل نُوافق كُلَّ طائفَةٍ على ما معها من الحقِّ ، نُخالفها فيما معها من خلافِ الحقِّ ، ولا نستثني من ذلك طائفةً ولا مقالةً ، ونرجو من الله أنْ نحيا على ذلك ، ونموت عليه ، ونَلْقَى اللهَ به ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله » [١] .

ومن اللطائفِ ما نقله المدائنيُّ قال : « لَحَنَ الحجَّاجُ يومًا ، فقال النَّاسُ : لحن الأمير ، فأَخْبَره بَعْضُ من حَضَرَ ، فَتَمثَّلَ بشعرِ قعنب بن أمِّ الصَّاحب :

صُمٌّ إذا سَمعوا خيرًا ذُكِرْتُ به ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بسُوءٍ عِنْدَهُم أَذِنوا [٢]
فطانةٌ فَطِنُوها ، لو تكُنْ لَهُم ... مُروءةٌ أو تُقَى ، ما فَطِنُوا [٣]
إنْ يَسْمَعُوا شيئًا طاروا به فَرَحًا ... منِّي وإنْ سَمِعوا مِنْ صالحٍ دَفَنوا» [٤]

[٤] الشّخصيّة الهروبيّة :

وهي التي تُسيطر على أصحابها فكرة أنَّهم لا يملكون فعلَ شيءٍ في مواجهة المتآمرين عليهم ، فيدفعهم ذلك إلى الهروب من مواجهة تجاربهم الفاشلة ، ومُحاولة مَعْرفة الأخطاء التي سبَّبَتْ لهمُ الفشل إلى تبرير هذه التَّجارب بما يُبرِّئُ ساحتهم ، ويضع المسئولية على الآخرين الذين لا يكفُّونَ عن التآمر عليهم .

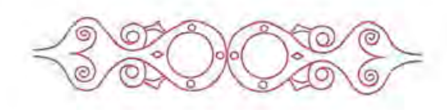
ولا شكَّ أنَّ التَّحاور مع أصحابِ هذه الشَّخصيَّة يحتاجُ إلى التَّذكير بأنَّ

---

(١) « طريق الهجرتين » (ص٣٩٣) .
(٢) **أذنوا** : استمعوا وأصْغَوْا بآذانهم إلى ما يُقال .
(٣) **الفَطانة** : الفَهْمُ ، والمعنى : أنَّهم يتقبَّلون الإساءة دون أنْ يردُّوها عنك .
(٤) « عيون الأخبار » (٣/٩٦) .

العوامل الدَّاخليَّة - في أيِّ عَمَلٍ كان - هي التي تُعْطي العـوامل الخارجيَّة تأشيرة العمل والتَّـأثير ، وأنَّ علينا أنْ نُتْقِـنَ العملَ بدلاً من أنْ نُبَرِّرَ الفـشَلَ ، ونُمارس عبوديَّة الأخذ بالأسبابِ ضمْـنَ ممارسة عبوديَّة التَّوكُّلِ ، وأنْ نعلمَ عِلْمَ اليقين أنَّ أوَّلَ خُطْوَةٍ في طريقِ ضربِ تآمر الآخرين هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرَّعد : ١١] ، فهذه الآية هي نواة التَّـغيير المنشود الذي يجبُ أنْ يسْعى إليه الجمـيعُ في حدود الاستطاعة مع الحذر الواجب وعدمِ اليأسِ .

وهكذا تحتاج كُلُّ شَخْصِيَّةٍ إلى طريقـة في الحوارِ تختلف - قليلاً أو كثيرًا - عن الأخرى ، ومن هنا يُصـبح من الأهميَّةِ بمكـان معرفةُ شـخصيَّـات الآخرين الذين نتحاور مـعهم لأيِّ سبب كان ، فإنَّ أسلوبً « جسِّ النَّبْضِ » عـبْرَ أسئلَة عن أمرٍ عامٍّ ليس لها علاقةٌ مباشرةٌ بموضوع الحوار ، قد تُكسبُ بعض الخِبْرَة عن الآخرين ، وتُعطينا فرصة التَعرُّف على أفكارهم وشخصيَّاتهم من خلال ميولهم، وطريقتهم في الإجابة، بل وحتَّـى من خلال نبرات أصواتهم في الرَّدِّ، وإشارات أيديهم المُصاحبة لها [(١)] .



(١) من الكتب الَّتي اطَّلـعتُ عليهـا ، وأفـدتُ منها في هـذا الباب كـتـاب « لمحات في فنِّ الحـوار » (ص١٤-١٦) بتصرُّفٍ .

تقويمُ اللسانِ

أي أخي، لا شكَّ أنَّ النَّحْوَ من أشرف العُلُومِ ، مَنْ نالَهُ نالَ فَضلاً عظيمًا، وخيرًا جزيلاً ، وهَلْ يُفْهَمُ الكتابُ والسُّنَّةُ إلاَّ بفَهْمِ النَّحوِ ؟! .

قال الشافعيُّ - رحمه الله - : « اللِّسانُ الذي اختارهُ اللهُ - عزَّ وجَلَّ لسانُ العربِ ، فأنزلَ به كتابَهُ العزيزَ ، وجَعَلَهُ لسانَ خاتم أنبيائه مُحَمَّد ﷺ ؛ ولهَذَا نقول : ينبغي لكُلِّ أَحَدٍ يَقْدرُ على تَعَلُّمِ العربيَّة أنْ يَتَعَلَّمها ؛ لأنَّها اللِّسَانُ الأولى» [١] .

وقال أيضا : « يجبُ على كُلِّ مُسْلِمٍ أن يتعلَّمَ من لِسانِ العَرَبِ ما يبلغه جهده في أداء فَرْضِه » [٢] .

وقال الماورديُّ - رحمه الله - : « ومعرفةُ لسان العرب فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ من مُجْتَهِدٍ وغَيرِه » [٣] .

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « واعلمْ أنَّ اعتيادَ اللُّغَة يُؤَثِّرُ في العَقْلِ والخُلُقِ ، والدِّينِ تأثيرًا قويًا ، ويُؤَثِّرُ - أيضًا - في مُشَابَهَة صَدْر هَذه الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين ، ومُشابهتُهُمْ تزيدُ في العقل ، والدِّين والخُلُق ، وأيضًا فإنَّ نفسَ اللُّغَة العربيَّة من الدِّين ، ومعرفتها فرض واجب ؛ لأنَّ فَهْمَ الكتابِ والسُّنَّة فَرْضٌ ، ولا يُفْهَمُ إلاَّ بفَهْمِ اللُّغَة العربيَّة ، وما لا يتمُّ الواجبُ إلاَّ به فهو واجبٌ » [٤] .

« اقتضاء الصِّراط المستقيم » (١/ ٤٦٤) .
(١) « إرشاد الفحول » (٢٢٢) .
(٣) المرجع السَّابق (٢٢٢) .
(٤) « اقتضاء الصراط المستقيم » (١/ ٤٦٨) .

وقال - أيضًا -: « وكـان السَّلَفُ يُؤَدِّبون أولادهـم على اللَّحنِ [١] ، فنحنُ مأمورون - أَمْرَ إيجـابٍ أو أمْرَ استحباب - أنْ نَحْـفَظَ القانونَ العربيَّ ، ونُصْلِحَ الألسنَةَ المائلَةَ عنه ، فيحفظ لنا طريقة فَهْمِ الكتابِ والسُّنَّة ، والاقتداء بالعرب في خطابها ، فلو تُرِكَ النَّاسُ على لحنِهِمْ كان نقصًا وعَيْبًا » [٢] .

قال ابن بسام:

فَـلاَ تَعْـدُ إصْـلاحَ اللِّسـان ؛ فـإنَّهُ ... يُخْـبِّـرُ عَـمَّـا عنْـدَهُ ويُبيِّـنُ
ويُعْـجِـبُني زيُّ الفَـتَى وجَـمَـالُهُ ... وَيَسْـقُطُ منْ عَـيْنـي سَـاعَـةَ يَلْحَنُ
عَلَى أنَّ للإعــرابِ حَـداً ، وربَّمـا ... سَمِعْتُ منَ الإعرابِ ما ليسَ يَحْسُنُ
ولا خَيْـرَ في اللَّفْظِ الكَرِيهِ سَمَـاعُهُ ... ولاَ في قبـيحِ الظَّنِّ بِالفِعْـلِ أَحْصَنُ

وقال عبد الملك بن مروان: «اللَّحْنُ في الكلامِ أقبَحُ من الجُدَرِيِّ في الوجْهِ»[٣].

وأَوصَى بَعْضَ بَنِيـه ، فقـال : « يا بَنيَّ ، أَصْلِحوا أَلْسِنَتَكُمْ ؛ فـإنَّ الرَّجُلَ تَنُوبُهُ النَّائبَة ، فَيَتَجمَّلُ فيها ، فيـستعيرُ من أخيه دابَّتَهُ ، ومن صَديقِه ثَوبَهُ ، ولا يجدُ مَنْ يُعيرُهُ لسانَهُ » [٤] .

قال الشاعرُ:

إنِّي وَإنْ كَـانَتْ أثْوابي مُلَـفَّـقَـةً ... لَيْسَتْ بِخَزٍّ[٥] ولا مِنْ نَسْجِ كتَّانِ[٦]
فَـإنَّ في المَجْـدِ هِمَّـاتي وفي لُغَـتي ... فَـصَاحَـةً ولِسـاني غَـيْرَ لَحَّـانِ [٧]

---

(١) اللَّحْن : الخَطَأ .
(٢) « الفتاوى » (٣٢/ ٢٥٢) .
(٣) « القواعد الأساسيَّة » (ص٣) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٣) .
(٥) الخَزّ : الحَرير .
(٦) الكتَّانُ : القُطْنُ .
(٧) « المفرد العلم » (ص٣٩) .

قال ابنُ فارسٍ - رحمه الله - : « من العلوم الجليلة التي اختصَّتْ بها العربُ الإعرابُ الذي هو الفارقُ بين المعاني المُتكافئة في اللَّفظ ، وبه يُعْرَفُ الخَبَرُ الذي هو أصلُ الكلام ، ولولاه ما مُيِّزَ فاعلٌ من مفعولٍ ، ولا مُضافٌ من مَنْعوت ، ولا تَعَجُّبٍ مِنِ استفهامٍ ، ولا صَدْرٌ من مَصْدورٍ ، ولا نَعتٌ من تأكيد »[1] .

وقال - أيضًا - : « وقدْ كانَ النَّاسُ قديمًا يجتنبون اللَّحنَ فيما يكتبون أو يقرءونه اجتنابَهُمْ بَعْضَ الذُّنوبِ ، فأمَّا الآن فقد تجاوزوا ، حتَّى إنَّ المُحَدِّثَ يُحَدِّثُ فيلحنُ ، والفقيه يُؤَلِّفُ فَيَلْحَنُ ، فإذا نُبِّهَا قالا : ما ندري ما الإعراب ، وإنَّا نحنُ مُحدِّثونَ وفُقهاء ، فهُما يُسَرَّانِ بما يُسَاءُ به اللَّبيبُ ، ولقد كلَّمتُ بعضَ مَنْ يذهبُ بنفسه ، ويراها من فقه الشَّافعيِّ بالرُّتبةِ العُلْيَا في القياسِ ، فقلتُ : ما حقيقةُ القياسِ ومعناه ؟ ، ومن أيِّ شَيءٍ هو ؟ ، فقال : ليس على هَذَا ، وإنَّما عَلَى إقامة الدَّليل علَى صِحَّتِه .

فقُلْ لي الآن في رجلٍ يرومُ إقامَةَ الدَّليل علَى صحَّةِ شيءٍ لا يعرفُ معناه ، ولا يدري ما هو ، ونعوذُ بالله من سوءِ الاختيارِ »[2] .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

النَّحْوُ مِفْتاحُ العُلُومِ وفَهْمُهُ	يَكْفِي العُقُولَ مَشَقَّةً وَعَنَاءَ
فَافْهَمْهُ واحْرِصْ أنْ تنالَ زِمَامَهُ	يَجْعَلْ طَرِيقَكَ للعُلُومِ ضِيَاءَ

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ : « عِلْمُ العربيَّةِ على ما تسمعُ من خاصٍّ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ لجماله في دُنياه ، وكمالِ آلته في عُلومِ دينه ، وعلَى حسبِ تقدُّمِ العالِمِ فيه وتأخُّرِهِ يكون رُجْحانُهُ ونُقْصَانُهُ إذا ناظرَ أو صَنَّفَ ، ومعلومٌ أنَّ مَنْ

(١) « الصاحبي » (ص٧٦) .
(٢) المرجع السابق (ص٧٧) .

يطلبُ التَرَسُلَ ، وقَرضَ الشِّعْر ، وَعَمَلَ الخُطَب والمقـامات ، كانَ محتاجًا - لا محالةَ - إلى التَّوسُّعِ في عُلُومِ اللُّغَةِ العربيَّة » [١] .

قالَ الشاعرُ :

النَّحوُ يُصْلِـحُ مِنْ لسانِ الأَلْكَنِ [٢] والمَرْءُ تُـكْرِمُـــــهُ إذا لَـمْ يَلْـحَنِ
وإذا طَلَـبْتَ مِنَ الـعُلُومِ أَجَـلَّهـــا فَـأَجَلُّهـا نَفْـعًا مُـقِـيمُ الأَلْسُنِ [٣]

قالَ حمادُ بن سلمة : « مَنْ طَلَبَ الحديثَ ، ولم يتعلَّم النَّحوَ -أو قال العربية- فهو كمثلِ الحِمَارِ ، تُعَلَّقُ عليه مخلاةٌ فيها شَعِيرٌ » .

قال الشاعرُ :

إنَّ الَّذي مَـلأَ اللُّـغَـاتِ مـحـاسنًا جَـعَلَ الجَـمَـالَ وسِـرَّهُ في الضَّـادِ

وقـد يقولُ قـائلٌ : إنَّ العـاميَّـة ضرورةٌ لازمـةٌ لُمخـاطبةِ النَّاسِ عَلَى قَـدْرِ عُقولهم، والجوابُ عليه :

قال الدكتور فتحي جمعة أستاذ العلوم اللغوية بكليَّةِ دارِ العلوم جامعة القاهرة - حفظه الله - :

« إنَّ المخاطبـة على قَدْرِ العُقُـولِ لا تعني تبَذُّلَ اللُّغَـةِ ، أو هبوطَ الكلام ، وانحرافَهُ عن سُنَنِ الفُصْحَى، وإنَّما تعني الابتعـادَ عنْ تعْقيدِ الفكرة ، والتَّقعُّرِ في اللُّغة (أي تَعَمُّد اختيارِ الصَّعْبِ من التَّركيبِ والغريبِ الوحْشِيِّ من الكلامِ) .

أمَّا الجُنُوحُ إلى العاميَّةِ بدعوى إفهامِ العوامِّ ، فإنْ لم يكنْ مُدَاراةً للعَجْزِ عن الفُصْحَى ، وقِصَرَ البـاعِ في استعمالها ، فهو ادِّعـاءٌ يَظْلِمُ الفُصْحَى والعوامَّ في وقْتٍ معًا ، يظلمُ الفُـصْحَى بأنَّها غيرُ مـفهومةٍ ، ووالله إنَّها لَمَفْـهومةٌ ، ويظلمُ

---

(١) القواعد الأساسيَّة » (ص٤) .
(٢) الألْكَنَ : الَّذي لا يُقيمُ العربيَّةَ لعجَمَةٍ لسانِهِ .
(٣) « القواعدِ الأساسيَّة » (ص٤) .

العوامَّ بأنَّهم لا يفهمون ، وتاللهِ إنَّهم ليفهمون ، وإلاَّ فكيف يخشعونَ للقرآنِ ، ويتأثَّرون ببالغِ الموعظَةِ ، وجميلِ البيانِ ؟! » ا. هـ .

قالَ الشاعرُ :

مَنْ فَاتَهُ النَّحوُ فَذَاكَ الأَخْرَسُ ... وَفَهْمُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مُفْلِسُ
وَقَدْرُهُ بَيْنَ الوَرَى مَوْضُوعُ ... وإِنْ يُنَاظِرْ فَهُوَ المَقْطُوعُ
لا يَهْتَدِي لحِكْمَةٍ في الذِّكْرِ ... ومَا لَهُ مِنْ غَامضٍ مِنْ فِكْرِ

ومن اللطائفِ : ما ذكرَهُ ابنُ الجوزيِّ - رحمه الله - في كتابه « الحمقى والمغفلين » :
أنَّ رجلاً قال لرجلٍ آخرَ : يا أخي ، لقدْ فهمتُ النَّحْوَ كُلَّهُ ما عَدَا ثلاثَ مَسَائِلَ ، قال : ما هيَ ؟ ، قال : قَوْلُ الرَّجُلِ : أبو ، وأبا ، وأبي ، فقال المسئولُ : أبو تُسْتَخْدَمُ للرَّجُلِ السَّمِينِ ، وأَبَا للرَّجلِ المتوسِّطِ ، وأبي لِلرَّجلِ النَّحيفِ ! .

قال الشاعرُ اللغويُّ مُحمدٌ الخضر حسين - رحمه الله - :

لُغَةٌ قَدْ عَقَدَ الدِّينُ لها ... ذمَّةً يَكْلَؤُها [1] كُلُّ البَشَرْ
أَوَ لَمْ تُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهَا ... كَلِمُ التَّنْزِيلِ في أَرْقَى سُوَرْ
يَا لَقَوْمي لِوَفَاءٍ إنَّ مَنْ ... نَكَثَ العَهْدَ أَتَى إِحْدَى الكِبَرْ
فَأَقِيمُوا الوَجْهَ في إِحْيائِها ... وَتَلافَوْا عَقْدَ ما كَانَ انْتَثَرْ

وأخيراً قال شاعرُ النيل مُحَمَّدٌ حافظ إبراهيم متحدثاً بلسانِ حالِ اللغةِ العربيةِ ، مُبيناً مأساتها :

رَجَعْتُ لِنَفْسِي [2] فاتَّهَمَتُ حَصَاتي [3] ... ونَاديْتُ قَوْمي فاحتَسَبْتُ حياتي [4]

---

(١) يَكْلَؤُها : يَحفَظُها ويَرْعَاها .
(٢) رَجَعْتُ لِنَفْسِي : تأمَّلْتُ نَفْسِي .
(٣) حَصَاتي : عَقْلِي .
(٤) احتَسَبْتُ حياتي : عَدَدْتُها عِنْدَ اللهِ .

رَمَونِي بِعُقْمٍ في الشَّبابِ [(١)] ولَيْتَنِي عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عُداتي [(٢)]

ولَدْتُ ولَمَّا لَمْ أَجِدْ لِعَرَائسِي رِجَالاً وأَكْفَاءً وأَدْتُ بَنَاتي [(٣)]

وَسِعْتُ كِتَابَ اللهِ لَفْظًا وغَايَةً [(٤)] ومَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ

فَكَيْفَ أَضِيقُ اليَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ وتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ ؟!

أَنَا البَحْرُ في أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتي [(٥)] ؟

فَيَا وَيْحَكُمْ [(٦)] أَبْلَى وَتَبْلَى مَحَاسِنِي [(٧)] وَمِنْكُمْ وإنْ عَزَّ [(٨)] الدَّوَاءُ أُسَاتي [(٩)]

فَلا تَكِلُونِي لِلزَّمَانِ فَإِنَّنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِينَ وَفَاتي

أَيُطْرِبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الغَرْبِ نَاعِبٌ [(١٠)] يُنَادِي بِوَأْدِي في رَبِيعِ حَيَاتي ؟!

سَقَى اللهُ في بَطْنِ الجَزِيرَةِ أَعْظُمًا يَعِزُّ عَلَيْهَا أَنْ تَلِينَ قَنَاتي [(١١)]

حَفِظْنَ وِدَادِي [(١٢)] في البِلَى [(١٣)] وَحَفِظْتُهُ لَهُنَّ بِقَلْبٍ دَائِمِ الحَسَرَاتِ

وفَاخَرْتُ أَهْلَ الغَرْبِ والشَّرْقُ مُطْرِقٌ حَيَاءً بِتِلْكَ الأَعْظُمِ النَّخِرَاتِ [(١٤)]

---

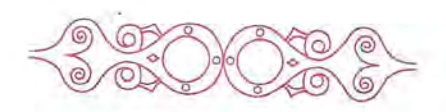
(١) **رَمَوْني بعُقْمٍ في الشَّباب** : اتَّهموني بِأنِّي لا أَلِدُ وأنا شابَّةٌ وَلُودٌ .
(٢) **عدَاتي** : أَعدائي .
(٣) **وأَدْتُ بناتي** : دفَنْتُهنَّ أحياءً .
(٤) **لَفْظًا وغَايَةً** : مَبْنىً ومَعْنىً .
(٥) **صَدَفَات** : جمعُ صَدَفَة ، وهي غِشَاءُ الدُّرِّ .
(٦) **وَيْحكُمْ** : رَحْمَةً لكُم .
(٧) **بَلِيَ الثَّوبُ** : قَدِمَ وخَلِقَ ، وصَارَ غَيْرَ صالحٍ للاستعمال ، وبَلِيَ الجِسْمُ : انحلَّ لِعَاهَةٍ ، أو لِطولِ الزَّمنِ عليه .
(٨) **عزَّ يعزُّ - بفتح العين في المضارع أو بكسرها - :** أي صعب .
(٩) **أُسَاة** : جمعُ آسٍ ، وهو الطَّبيبُ والجرَّاح .
(١٠) **نَاعِبٌ** : الغُرَابُ حينَ يُصَوِّتُ ، والرَّجلُ يُخْبِرُ بِخَبَرِ السُّوءِ كالغُرابِ .
(١١) **قَنَاة** : المُرادُ بها هنا القامة ، وبلينها الضَّعفُ والانحلال ، والمعنى : يَشُقُّ عَلَيْها أنْ أَكونَ ضعيفةً مُنْحَلَّةً .
(١٢) **ودَادي** : مَحَبَّتي وصُحْبَتي .
(١٣) **البِلَى** : الموتُ وذهاب الأَثَرِ .
(١٤) **النَّخِرَات** : البالية .

أَرَى كُلَّ يَوْمٍ بِـالجَـرَائِد مَـزْلَقًـا ... مِنَ القَبْـرِ يُدْنِيني بِغَيْـرِ أَنَاة (١)

أَيَهْجُرُنِي قَوْمِي - عَفَا اللهُ عَنْهُمُ - ... إلَى لُغَـةٍ لَمْ تَتَّـصِلْ بِرُوَاة (٢)

سَرَتْ لَوْثَةُ الإِعْجَامِ(٣) فيها كما سَرَى ... لُعَابُ الأَفَاعِي(٤) في مَسِيلِ فُرَاتِ(٥)

فَجَاءَتْ كَثَوْبٍ ضَمَّ سَبْعِينَ رُقْعَةً ... مُشَكَّلَةَ الأَلْوانِ مُخْتَلِفَاتِ



(١) **الأَنَاة** : التَّأَنِّي والتَّمَهُّل .

(٢) **لم تتَّصل برواة** : أي لَمْ يَأخُذها الخَلَفُ عَن السَّلَفِ بطَرِيقَةِ الرِّواية الَّتي تحفظُها مِنَ التَّغيير .

(٣) **الإِعْجَام** : ضَعْفُ البَيَان ، وسُوء التَّعبير .

(٤) **لُعاب الأَفَاعي** : ما يسيلُ مِنْ أَفْوَاهِ الحيَّاتِ الخبيثاتِ ، يُرِيدُ السُّمَّ .

(٥) **مَسِيل فُرات** : مَجْرَى ماءٍ عَذْبٍ .

البَيَانُ

أَيْ أخي المحبَّ ، مازلتُ موصـولاً بما تُحبُّ ، اعلمْ - باركَ اللهُ فيكَ وفي علمكَ - أنَّ قوَّة التَّعـبيرِ ، وفصاحَـةِ اللِّسانِ ، وحُسْنَ البيانِ من أركـانِ المَنَاقَشَةِ الجَيِّدَةِ ، والحوار النَّاجح .

فكم من حقٍّ ضـاعَ لسوءِ التَّـعبـيرِ عنه ، وكم من باطلٍ ظَهَـرَ ؛ لأنَّ الذي يدعو إليه فصـيحٌ بليغٌ ! ، بلْ إنَّ الحقيقَةَ الواحدَة قد يَخْتَلِف فَـهْمُنا لها بحسبِ الطَّريقَةِ التي قُدِّمَتْ بها إلينا .

وقديماً قال الشاعرُ :

في زُخْـرُفِ الـقَـوْلِ تَزْيينٌ لبـاطله ... والحقُّ قَـدْ يَعْـتـريهِ سُـوءُ تَعْـبـيـرِ
تقولُ : هَذَا مُجاجُ[1] النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإنْ ذَمَـمْتَ فـقلْ : قَـيءُ الزَّنابيـرِ
مَدْحًا وذَمّاً ، وما غَـيَّرْتَ مِنْ صفةٍ ... سِحْرُ البَيَانِ يُرَي الظَّلْمَاءَ كالنُّورِ [2]

وعن عبـد الله بن عمـر رضي الله عنهما أنَّه قَدِمَ رجلان من المشـرقِ خطبًا ، فـعجبَ النَّاسُ لبيانهمـا ، فقال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ منَ البيَـانِ لَسِحْرًا » أو : « إنَّ بَعْضَ البَيَانِ سِحْرٌ » [3] .

قال ابن دُريد فيما معناه :

« يُريدُ أنَّ البليغَ يبلُغُ ببيانِهِ ما يبلُغُهُ السَّاحِرُ في لطافةِ حِيلَتِهِ » [4] .

---

(١) المُجَاج : ما سالَ مِنَ الفَمِ .
(٢) « مفتاح دار السَّعادة » .
(٣) أخرجه البخاريُّ (٥١٤٦) و (٥٧٦٧) .
(٤) « المجتَبى » (ص١١) .

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - رحمه الله - :

« قوله : « إنَّ من البيـان لَسحْرًا » هذا من التَّشبـيه البَليغِ لكون ذلك يعمل عَمَلَ السَّاحر ، فيجعل الحقَّ في قَالبِ الباطِلَ ، ويجعل الباطلَ في قالبِ الحقِّ ، فيسـتميل به قلوبَ الجُـهَّال ، حتَّى يقبلوا البـاطلَ ، ويُنكروا الحقَّ ، ونسأل اللهَ الثَّبات والاستقامة عـلى الهُدَى ، وأمَّا البيانُ الذي يُوضِّحُ الحقَّ ويُقَرِّرُهُ ، ويُبطلُ الباطِلَ ويُبَدِّنُهُ ، فهذا هو الممدوحُ » [١] .

وقال الخطابيُّ - رحمه الله - :

« **البَيَانُ اثنان** : أحدهما ما تَقَع به الإبـانةُ عن المرادِ بأيِّ وَجْهٍ كان ، والآخرُ ما دَخلتْهُ الصَّنْعـةُ بحيثُ يروقُ للسَّامعينَ ، ويستمـيلُ قلوبهم ، وهو الَّذي يُشَبَّهُ بالسِّحْرِ إذا خلب القلب ، وغلبَ عَلَى النَّفْسِ ، حتَّى يحولُ الشيءَ عن حقيقته ، ويصرفه عن جهته ، فـيلوحُ للنَّاظرِ في معرضِ غيره ، وهذا إذا صُرِفَ إلى الحقِّ يُمْدَحُ ، وإذا صُرِفَ إلى الباطِلِ يُذَمُّ » [٢] .

عن أُمِّ سَلَمَـةَ رضي الله عنها أنَّ رسـولَ اللهِ ﷺ قـال : « إنَّمـا أنَا بَـشَـرٌ ، وإنَّكُمْ تَخْتَـصمونَ إليَّ ، ولعلَّ بَعـضَكَمْ أنْ يكونَ أَلْحَنَ [٣] بحجتِّـه من بَعْضٍ ، فأقْضي على نَحْوِ مَـا أَسْمَعُ ، فمَنْ قَضَـيْتُ لَهُ بحقِّ أخيهِ شيـئًا فلا يَأْخُذُهُ ؛ فـإنَّما أَقْطَعُ له قطْعَةً منَ النَّارِ » [٤] .

قال ابن حجرٍ - رحمه الله - مُعلِّقًا على هذا الحديث :

« وفي هذا الحديث من الفوائد إثمُ مَنْ خَـاصَمَ في باطلٍ ، حتَّى استحقَّ به

---

(١) « فَتح المجيد شرح كتاب التَّوحيد » (ص٣٥٣) .
(٢) الفتح (٣٤٨/١) .
(٣) **أَلحن** : أعْلَم .
(٤) أخـرجه البـخـاريُّ ، واللَّفظ له (٢٤٥٨) ، و(٢٦٨٠) ، و(٦٩٦٧) ، و(٧١٦٩) ، و(٧١٨١) ، و (٧١٨٥) ، ومسلم (١٧١٣) .

في الظاهر شيئًا هو في الباطن حرامٌ عليه » .

إلى أنْ قالَ : « وفيه أنَّ التَّعَمُّقَ في البلاغة بحيثُ يحصلُ اقتدارٌ على تزيينِ الباطلَ في صورة الحقِّ وعكسه مذمومٌ ، فإنَّ المراد بقوله : أبلغ ، أي أكثر بلاغةً، ولو كان ذلك في التَّوصُّلِ إلى الحقِّ لم يُذَمَّ ، وإنَّما يُذَمُّ من ذلك ما يُتَوصَّلُ به إلى الباطلِ في صورةِ الحقِّ » (١) .

وليس من البيانِ استخدامُ الغريب من الألفاظ ، أو التَّقَعُّرِ في الكلامِ (وهو أنْ يتكلَّمَ المرءُ بأقْصَى قَعْرِ فَمِهِ إظهارًا لفصاحتِهِ وبراعتِهِ) ، فذلك ممقوتٌ مذمومٌ؛ لما فيه من قصدِ التَّكلُّفِ البعيد عن الطَّبْعِ .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ ، وأَبْعَدَكُمْ منِّي في الآخِرَةِ أَسْوَؤُكُمْ أخلاقًا : الثَّرْثارونَ (٢) ، المُتَفَيْهِقونَ (٣) ، المُتَشَدِّقونَ (٤) » (٥) .

وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ يُبْغِضُ البليغَ مِنَ الرِّجَال ، الذي يَتَخَلَّلُ بلسانه كما تَخَلَّلُ البَقَرَةُ بلسانها » (٦) .

وهو الذي يُظهر التَّفاصُحَ تِيْهًا على الغيْرِ ، وتفَاصُحًا واستعلاءً ، ووسيلةً إلى الاقتدار في تصغير عظيمٍ ، أو تعظيمِ حقيرٍ ، أو بقصْدِ تعجيزه ، أو تزيين

(١) الفتح (١٣/ ١٨٦) .
(٢) الثَّرثار : هو كثير الكلام تكلُّفًا فيما لا فائدةَ فيه .
(٣) المُتَفَيْهِق : أصله من الفَهْق ، وهو الامتلاء ، وهو الذي يَمْلأُ فَمَهُ بالكلام ، ويتوسَّعُ فيه ، ويُغْرِبُ به تكبُّرًا وارتفاعًا ، وإظهارًا للفضيلة على غيره .
(٤) المُتَشَدِّق : المتطاول على النَّاسِ بكلامه ، المتكلِّمُ بِمِلْءِ فِيهِ تفاصُحًا وتعظيمًا لكلامه .
(٥) أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٠١٨) ، وأحمد (٤/ ١٩٣) ، وابن حِبَّان (٤٨٢) ، وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥) والبَغَوِيُّ (٢٠١٨) ، وقال الهيثَميُّ في المجمع (٨/ ٢١) : رجالُهُ رجالُ الصَّحيح ، وحسَّنه الألبانيُّ في الصحيحة (٧٩١) .
(٦) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥) والترمذيُّ (٢٨٥٣) ، وأحمد (٢/ ١٦٥) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١/ ١٨٧٥) ، و الصَّحيحة (٨٨٠) .

الباطلِ في صورة الحقِّ وعكسه، أو يقصد إجلال الحُكَّامِ له، ووَجاهته ، وقَبول شفاعته، وهو يتشدَّق بلسانه كما تتشَدَّقُ البقرَةُ بلسانها، ووَجْهُ الشَّبَه إدارةُ لسانه حَوْلَ أسنانه وفَمِه حَالَ التَّكَلُّمِ كما تَفْعَلُ البقرةُ بلسانِها حَالَ الأكْلِ ، وهذا كُلُّه ما كان على جهةِ الإعجابِ والتَّعاظُمِ [(١)] .

قال النَّوَوِيُّ - رحمه الله - : « يُكْرَهُ التَّقْعير في الكلام بالتَّشَدُّقِ ، وتكلُّف السَّجْعِ ، والفصاحةَ ، والتَّصَنُّعِ بالمقدِّمات التي يعتادها المُتفاصحون ، وزخارف القول ، فكُلٌّ ذلك من التَّكلُّفِ المذموم ، وكذلك تكلُّف السَّجْعِ ، وكذلك التَّحرِّي في دقائقِ الإعراب ، ووحشيِّ اللُّغَة في حالِ مُخاطَبَة العوامِّ ، بل ينبغي أنْ يقصدَ في مُخاطبته لفظًا يفهمه صاحبه فَهْمًا جليّاً ، ولا يستثقله » [(٢)] .

وليس معنى ذلك ألاَّ يحرصَ المرءُ على حُسْنِ مَنْطقه ، ورشاقَة لَفْظه ، وجودةِ عبارته ، فيلجأ إلى الألفاظ السُّوقيَّة المُبتذلة فرارًا من التَّكلُّفِ والتَّقَعُّر بزَعْمه ، وإنَّما المقصود ألاَّ يُغْرِقَ في التَّكلُّف ، فَيَتَعدَّى حدودَ الذَّوْق ، وإلاَّ فإنَّ حُسْنَ المَنْطق ، وروعةَ البيانِ من مظاهرِ المُرُوءَة الصَّادقَة ، ومن أَعْظَمِ الأسباب الدَّاعية لِقَبُولِ الحقِّ ؛ ولهذا قيلَ : « كُلَّمَا كانَ اللِّسانُ أَبْيَنَ كانَ أَحْمَدَ » [(٣)] .

بل لقد ذكرَ اللهُ تبارك وتعالى جميلَ بلائه في تعليمِ البيان ، وعظيمَ نعمته في تقويمِ اللسان ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن : ١ - ٤] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] ، ومَدَحَ القرآنَ بالبيانِ والإفصاحِ ، وبحُسْنِ التَّفصيل والإيضاح ، وبجودَةِ الإفهامِ ، وحكمةِ الإبلاغ ، وسمَّاهُ فُرْقانًا كما سمَّاهُ قُرآنًا .

---

(١) انظر « فيض القدير » (٢/ ٢٨٣) .
(٢) « الأذكار » (ص٣٣١) .
(٣) « البيان والتَّبيين » (١/ ١١) .

وبالجُملَة فليحرِص المرءُ على تَجَنُّبِ السُّوقِيِّ القريب ، والوحشيِّ الغريب ؛ حتَّى يكونَ كلامُهُ حالاً بين حالين ، كما قال الشَّاعرُ :

عَلَيْكَ بأوساطِ الأُمورِ ؛ فإنَّها   نَجَاةٌ ولا تركَبْ ذَلُولاً ولا صعبًا [(١)]

قال أبو هلال العسكريُّ : «وأجوَدُ الكلام ما يكون جَزْلاً سَهْلاً ، لا ينغلقُ معناه ولا يُستبهَمُ مَغْزَاهُ ، ولا يكونُ مكدودًا مُسْتَكْرَهًا ، ومتوعِّرًا مُتَقَعَّرًا ، ويكونُ بريئًا من الغثاثة ، عاريًا من الرَّثاثَة ، والكلام إذا كان لَفْظُهُ غَثًّا ، ومعرضُهُ رثًّا ، كان مردودًا ، لو احتوى على أجلِّ معنىً وأنْبَلِهِ وأرفعه وأفضَلِه » [(٢)] .

ومن هُنا يتبيَّنُ لك - أخي المحاور - أنَّ المذمومَ من البيان إنَّما هو ما كان مُتكلَّفًا ، ومُشتملاً على التَّقعيرِ ، أمَّا حُسْنُ المنطِقِ ، وجمالُ العبارةِ ، وحُسْنُ الإشارةِ ، وإيضاحُ الدلالةِ ، وتصحيحُ الأقسامِ ، واختيارُ الكلامِ ، ورشاقةُ الألفاظ ، وروعَةُ البيان فمحمودٌ مرغوبٌ فيه ، بَلْ هَذا هو السِّحْرُ الحلالُ ، ولا سيَّمَا إذا كان في بيَانِ حقٍّ ، قال عُمَرُ بْنُ عبد العزيز لرجلٍ سألهُ حاجَةً ، فأَحْسَنَ المسألَةَ ، فأعجَبَهُ قولُهُ : « هَذَا - والله - السِّحْرُ الحَلالُ » [(٣)] .

قال ابن الرُّوميّ - وأحسَنَ - :

وَحَديثُها السِّحْرُ الحَلالُ لَو أنَّها   لَمْ تَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ
إنْ طَالَ لم يُمْلِلْ ، وإنْ هِيَ أَوْجَزَتْ   وَدَّ الْمُحَدَّثُ أَنَّها لم تُوجِزِ
شَرَكُ العُقُول ونزهةٌ ما مِثْلُها   للسَّامعينَ وعقْلِه الْمُسْتَوفِزِ
دُرَرٌ تَعِيشُ الآذَانُ في نَغَمَاتِها   بمطرزٍ عَذْبٍ وَغَيرِ مطرزِ [(٤)]

---

(١) « العمدة » (٢/٢٦٦) .
(٢) « كتاب الصناعتين » (ص٦٧) .
(٣) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/٥٧) ، و« التَّمهيد » (١٧٤) ، و« أدب المجالس » .
(٤) « الأمالي » (١/١١٥) ، و« نهاية الأدب » (٢/٧١) ، و« أدب المجالس » (ص٤٦) ، وفي ديوانه : « لو أنَّه لم يُحبَّ » ، و« التَّمهيد » (٥/١٧٥) .

وقال يوسف بن هارون :

نطقت بسحرٍ بعدها غَيْرَ أنَّهُ ... منَ السِّحْرِ ما لم يَخْتَلِفْ في حلاله
كَذَلكَ ابْنُ سيرينَ بنفثةِ يُوسُف ... تكَلَّمَ في الرُّؤْيا بِمِثْلِ مَقالهِ [1]

ونظرَ معاويةُ إلى ابن عباسٍ رضي الله عنهما فأتبعَهُ بصرَه ، ثمَّ قال متمثلاً :

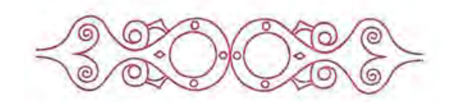
إذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقالاً لقائلٍ ... مُصيبٍ ولَمْ يَثْنِ اللِّسَانَ عَلَى هُجْرِ [2]
يصرفُ بالقَوْلِ اللِّسَانَ إذا انْتَحَى ... ويَنْظُرُ في أَعْطافِهِ [3] نَظَرَ الصَّقْرِ [4]

ولحسانَ بن ثابتٍ في ابن عباسٍ رضي الله عنهما قوله :

إذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقالاً لقائلٍ ... بمنطَلَقاتٍ لا تَرَى بينها فَصْلا
شَفَى وكَفَى مَا في النُّفوسِ فَلَمْ يَدَعْ ... لِذي إرْبَةٍ [5] في القولِ جِداً ولا هَزْلا [6]

قال ابنُ عبد البرِّ - رحمه الله - : « ومَنْ أَحْسَنِ ما قِيلَ فـي مَدْحِ البلاغة من النَّظْمِ قولُ حَسَّانَ في ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما :

صَمُوتٌ إذا ما الصَّمْتُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... وفتَّاق أبكار الكلامِ المُخَتَّمِ
وَعَى ما وَعَى القُرْآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ ... ونيطَتْ لَهُ الآدابُ باللَّحْمِ والدَّمِ » [7]



---

(١) « التَّمهيد » (٥/ ١٧٥) .
(٢) هُجْر - بضمِّ الهاء - : القبيح من القول .
(٣) الأعطاف : جمع عَطف ، و هو الجانب .
(٤) « التَّمهيد (٥/ ١٧٥) .
(٥) إرْبَة : حاجة .
(٦) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٥٨) ، و« التَّمهيد » (٥/ ١٧٩) .
(٧) « التَّمهيد » (٥/ ١٧٨) .

دور الأمثلة في الحوار

أيْ أخي ، إنَّكَ لن تَسْتطيعَ الاستغناءَ عن الأمثلَةِ ، وكيفَ تستغني عنها وهي أنْجَحُ مطلبًا ، وأقْرَبُ مذهبًا لتوضيحِ الفكرةِ ، وتقريبُ المعاني ، وشرحها بالنَّظائرِ والأشباه والأشكالِ ؟! ، وكيفَ تستغني عنها وهي تُساعدُكَ على الوصولِ إلى الحقِّ بأقربِ الطُّرُقِ مع نزهَةِ البالِ ، وترويحِ الخاطرِ ، وحُسْنِ موقعها في القُلوبِ والأسماعِ ، بما لا يكادُ الكلامِ المُرسَلِ يبلُغُ مَبْلَغَهَا ، ولا يُؤَثِّرُ تأثيرها ؟! ، ولهذا قيل : « المَثَلُ أَعْوَنُ شَيءٍ على البيانِ » ، وقيلَ : « فالضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضدُّ » .

وقال المتنبّي :

ونَذيمهـمْ [(١)] وبِهِمْ عَرَفْنا فَضْلَهُ وبضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشيَاءُ [(٢)]

ونظرًا لأهميَّة المثل وخطورته ، فقدْ ضَرَبَ اللهُ تباركَ وتعالَى للنَّاسِ في كتابه الكريم من كُلِّ مَثَلٍ ، قال اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم : ٥٨] ، وقال اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وتجدْ الرَّسول ﷺ يضربُ أروعَ الأمثلَةِ في حديثِه ، ولو تتبَّعْنَا ذلك لخرجْنَا بكراريسٍ ، ولكن أكْتَفي بمثالين ، كما قيل : « يكفيكَ مِنَ الزَّادِ ما يُبلغُكَ المحلَّ » .

فعنْ أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مَثَلُ الذي يذكُرُ ربَّه،

---

(١) نذيمهم : نَذُمُّهُمْ .
(٢) ديوان المتنبِّي (١/ ٢٢) .

والَّذي لا يذكُرُ ربَّه مَثَلُ الحَيِّ والميِّت »[(١)].

وعن جابرٍ بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال النَّبيُّ ﷺ : « مَثَلي ومَثَلُ الأنْبياء كرجلٍ بَنَى داراً ، فأكْمَلَهَا وأحْسَنَهَا إلاَّ مَوْضعَ لَبِنَة[(٢)] ، فَجَعَلَ النَّاسُ يدخُلُونها ، ويتعجَّبونَ ، ويقولون : لولا مَوْضِعُ اللَّبِنَة »[(٣)].

ففي هذين الحديثين الشَّريفين ضربَ النَّـبيُّ ﷺ المثالين لتقريبِ المعاني إلى الأفهـامِ ، قال الحافظُ ابن حـجرٍ مُعَلِّقًـا على الحديثِ الثَّـاني : « وفي الحديث ضَرْبُ الأمثالِ للتَّقريبِ للأفهامِ »[(٤)].

ومن خلالِ هذه النَّماذج وأمثالها يتأكَّدُ لنا أنَّ القرآنَ الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة يعتمدان اعتماداً كبيرًا على الأمثلة في توضيح المواقِف ، وجلاء الحقائق ، وهداية العقْلِ ، ومـا من بابٍ من فُنون العلمِ إلاَّ وله منها نـصيبٌ بقدْرِ أهَمِّـيَّتِه ، فـما أحْوَجَنَا إلى العـودة إلى تِلْكَ الثِّمار اليـانعَةِ ، والدَّلائل الباهرَة ، نجنيهـا ونحذو حذوها ، ونسـيرُ في ظلالِ هَدْيها ، وأريج نسيـمها ، إنَّها دلائلُ خـيرٍ مِنْ لَدُنْ ربٍّ حكيمٍ خبيرٍ .

قال اللهُ تباركَ وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾ [القَصَصْ : ٥١] ، وهُنا فائدةٌ في آداب الأمثلَة ، لعلَّ الله ينفعك بها ، لكنْ لا تَظُنَّ أنِّي سوفَ أُفْـرِغُ لك ما في جُـعْبَتِي ، فـما كُلُّ ما يـلمعُ ذهبًا ، ورحِمَ الله القائل :

ومـا كُـلُّ نـارٍ نَارَ مُـوسى لِمُهْـتَـدٍ ... ولا كُلُّ بَرْقٍ في الـشِّـقَـالِ الهـواضِبِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٤٠٧) .
(٢) اللَّبِنة : هي الَّتي يُبْنَى بها الجدار .
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٤) ، ومسلمٌ (٢٢٨٧) .
(٤) « الفتح » (٦/٥٥٩) .

وها هي الفائدَةَ دُونَكَ ، وعليْكَ مَهْرُهَا :

قال الإمامُ الماورديُّ - رحمه الله - في بيان آداب الكلام : « ومنْ آدابه أنْ يجتَنبَ أمثالَ العامَّـة الغَوْغَاء [١] ، ويتخصَّصَ بأمثـال العلماءِ الأُدباءِ ؛ فإنَّ لكُلٍّ صنفٍ من النَّاسِ أمثالاً تُشاركهم ، فلا تجدُ لساقط إلاَّ مثلاً ساقطًا ، وتشبيهًا مستقبحًا .

وللسُّقَّاط أمثالٌ ، فمنها تمثّلهم للشيءِ المُريبِ ، كما قال الصنوبريُّ :

إذَا مَـــا كُنْتَ ذَا بَوْلٍ صَـــحِـــيحٍ ... أَلاَ فَـاضْـــرِبْ بِـهِ وَجْـهَ الـطَّـبِـــيبِ

ولذَلكَ علَّتان :

إحداهما : أنَّ الأمثـالَ منْ هواجِسِ الهِمَمِ وخطراتِ النّفـوسِ ، ولم يكُنْ لذي الهمَّة السَّاقطَة إلاَّ مَثَلٌ مرذولٌ ، وتشبيهٌ معلولٌ .

والثانيةَ : أنَّ الأمثالَ مُسْتَـخْرَجَةٌ مِنْ أَحْوالِ المَتَمثِّلين بها ، فـبحسب ما هُمْ عليه تكونُ أمثالُهُمْ .

فلهاتَيْنِ العلَّتـيْنِ وَقَعَ الفَرْقُ بين أمثالِ الخـاصَّة وأمثال العـامَّة ، وربَّما أَلَّفَ المُتَخَـصِّصُ مثَلاً عامِّـيًا ، أو تشبيـهًا ركيكًا لكثْرَةِ مـا يَطْرقُ سَمْعَهُ من مُـخالطَةِ الأراذلِ ، فيـستـرسلُ في ضربِـه مثَلاً ، فـيصـير به مَـثَلاً ، كـالذي حُكِيَ عن الأصمعيِّ أنَّ الرَّشيـدَ سألَهُ يومًا عنْ أنْسابِ بعض العربِ ، فقـال : على الخبيرِ سـقطت يا أميـر المؤمنين ، فقـال له الفَـضْلُ بْنُ الرَّبيع : أسْقَطَ اللهُ جَنْبَـيْكَ ، أتُخاطِبُ أميرَ المؤمنينَ بمثْلِ هذا الخطاب ؟! .

وكان الفَـضْلُ بْنُ الرَّبيع - معَ قلَّة علْمه - أَعْلَمُ بما يُسْتَـعْمَلُ من الكلامِ في مُحاورَة الخُلَفَاءِ مِنَ الأَصْمَعِيِّ الذي هو واحدُ عصْرِه ، وقَرِيعُ دَهْرِه .

ولِلأمـثالِ من الـكلامِ موقعٌ في الأسْـمـاعِ ، وتأثيـرٌ في القُلُوبِ ، لا يكادُ

---

[١] الغَوْغاء : سقط النَّاس وهملهم .

الكلام المُرْسَل يَبْلُغُ مَبْلَغَها ، ولا يُؤَثِّرُ تأثيرها ؛ لأنَّ المعانيَ بها لائحَةٌ والشَّواهِدَ بها واضحةٌ ، والنُّفوسَ بها وامِقَةٌ [١] ، والقُلوبَ بها واثقةٌ ، والعُقولَ لها موافقةٌ؛ فلذلك ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ في كتابِه العزيز ، وجَعَلَها من دلائلِ رُسُله ، وأوضحَ بها الحُجَّةَ على خَلْقِه ؛ لأنَّها في العُقُولِ مَعْقولَةٌ، وفي القُلوبِ مقبولَةٌ.

ولها أربعةُ شُروطٍ :

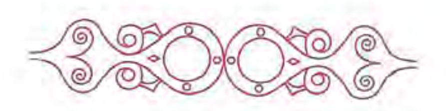
أحدها : صحَّةُ التَّشبيه .

والثَّاني : أنْ يكونَ العِلْمُ بها سابقًا ، والكُلُّ عليها موافقًا .

والثَّالثُ : أن يُسْرِعَ وصولها للفَهْمِ ، ويعجِّل تصوُّرها في الوهْمِ من غير ارتياءٍ في استخراجها ، ولا كَدٍّ في استنباطها .

والرَّابع : أنْ تُناسبَ حالَ السَّامِعَ ؛ لتكونَ أَبْلَغَ تأثيرًا ، وأَحْسَنَ موقِعًا .

فإذا اجتمعَتْ في الأمثالِ المضروبةِ هذه الشُّروطُ الأربعةُ ، كانتْ زينةً للكلامِ، وجلاءً للمعاني ، وتدبُّرًا للأفهامِ » [٢] .



(١) وامقَة : مُحبَّة ، يُقال : وَمقَهُ يَمِقُهُ مقَةً ، إذَا أَحبَّهُ فهو وامقٌ .
(٢) « أدبُ الدُّنيا والدين » (ص٢٨٥-٢٨٦) ، وقد آثَرْتُ نَقْلَ كلامِهِ هَذا علَى طُولِهِ لنفاسَتِهِ .

لكل مقامٍ مَقَالٌ

لكُلِّ مقامٍ مقـالٌ ، ولكُلِّ مُناسَبَةٍ حالٍ ، وليسَ كُلُّ ما يُسـمَعُ يُقال ، وخيرُ الكلامِ ما وافق الحال .

قال الشاعرُ :

تَـرَفَّـقْ عَـلَـيَّ - هَـدَاكَ المَـلِيكُ - فَـإِنَّ لِكُـلِّ مَـقَـامٍ مَـقَـالاً

قال الإمامُ الشاطبيُّ - رحمه الله - : « ليسَ كُلُّ ما يُعْلَمُ مِـمَّا هو حَقٌّ يُطْلَبُ نَشْرُهُ ، وإنْ كانَ من علْمِ الشَّريعَةِ ، وممَّا يُفيدُ علْمًا بالأحكامِ ، بل ذلك ينقَسِمُ : منه ما هو مطلوب النَّشـر - وهو غالبُ علمُ الشَّريعَـة - ، ومنهُ ما لا يطلب نشره بالنِّسْبَةِ إلى حالٍ ، أو وقْتٍ ، أو شخْصٍ » [1] .

فعليكَ - أخي الحبيب - أن تنظُرَ للظروفِ الثَّـلاثةِ التي ذكرَهَا الشاطبيُّ قَبْلَ أيِّ حوارٍ .

والظروف الثَّلاثة هي :

{ ١ } المكان : وقد عبَّرَ عنه بالحالِ .

{ ٢ } الزَّمان : وقدْ عبَّرَ عنه بالوقتِ .

{ ٣ } الإنسانُ : وقد عبَّرَ عنه بالشَّخْصِ .

أوَّلاً : المكان :

قـد يكون ناديًا عـامًّـا ، أو بيت صـديقٍ ، أو مكتبَ عـملٍ ، وقـدْ يكونُ طيَّارَةً، أو سيَّارةً ، أو نزهَةً ، فلابُدَّ أن نُراعي المكانَ المناسبَ ، فلو جاءَكَ إنسانٌ - مثلاً - وقـال لك : عندي مشكلةٌ ، وكنتمـا على مَرٍّ ضيِّقٍ يمرُّ به النَّاس ، أو

---

(١) « الموافقات »(٤/١٨٩-١٩٠) .

شارعٍ تقفُ معه فيه ، فهل هذا المكان مُناسبٌ للحوارِ ، أمْ أنَّه لابُدَّ أن تختارَ مكانًا مُناسبًا يشعرُ فيه مُحاورك بالتَّقديرِ ؟ .

ومن ذَلكَ أن يكونَ الحوارُ في مسجدٍ ، فهذا يتطلَّب قَدْرًا كبيرًا من الحكْمَةِ والهدوءِ ، وقَدْرًا كبيرًا من العِلْمِ ، ولاسيَّما إذا كان الحوارُ عامّاً ، طَالما أنَّ في بعضِ المساجدِ طوائف ذات أهواء ومشارب ، فإذا كُنتَ تُحاور شخصًا معيّنًا ، فما تكادُ تظهرُ عليه إلاَّ وتجِدْ شخصًا آخر قد أخذَ دَفَّةَ الحوار ذات اليمين وذات الشّمال ، وهكذا دواليك ، والأمرُ كما قيل :

ولو كانَ سَهْمًا واحدًا لاتَّقيتُهُ ولكنَّهُ سَهْمٌ ، وثانٍ ، وثالثُ

وإنْ كانَ الحِوارُ في مكان مليءٍ بالنَّاسِ ، فذلكَ مدعاةٌ للرِّياءِ والعِنادِ ، والحرصُ على الغَلَبَةِ والإطاحَةُ بالخَصْمِ، فمن الأفضَلِ أنْ يكونَ الحوار في مكانٍ مُحَدَّدٍ ؛ فذلك أجمعُ للفكرةِ ، وأدْعَى لِقبولِ الحقِّ ، وأسْلَمُ لحُسْنِ القَصْدِ .

ثانيًا : الزّمان :

من حيثُ اتِّسَاعِهِ للموضوعِ ، وذلك بألاَّ يكونَ الحوارُ في وقتٍ لا يتَّسعُ للأخْذِ والرَّدِّ، كأنْ يكونَ قُبَيْلَ وقْت الصَّلاة، أو يكونَ أحدهما على جناحِ سفَرٍ، أو يكونَ مستعداً للنَّوْمِ ، أو قدْ يكونَ قادمًا من سفرٍ في حالة إرهاقٍ نفسيٍّ فيحتاجُ للرَّاحَةِ ، أو نحو ذلك .

فلابُدَّ من تهيئَةِ الجوِّ المناسِبَ ، وذلك بأنْ تُحَدِّدَ الوقْتَ والمكانَ والموعدَ ؛ حتَّى يشعُرَ مُحاورك أنَّكَ أعطيته اعتبارَه وأهميَّته ، فتكسب ثقته ، وتستعبدَ قلبه ويكون تأثيرك فيه عظيمًا .

وقد يكون الزَّمانُ زمانَ بدعٍ ، أو جَوْرِ سُلطان ، أو غَلَبَة باطلٍ ، فهذا يتطلَّب قدرًا من الحِكْمَةِ والتفطُّن ؛ حتَّى لا تُشَوِّشَ علَى العامَّةِ ، فتحدُثُ نكبَةٌ تكون أنتَ سببها .

قال الشاعرُ :

وإنَّ كـلامَ المَـرءِ فـي غَـيرِ كُنْهِـهِ كالنَّبْلِ [١] تَهوي ليسَ فيها نِصَالُها [٢]

ثالثًا : الإنسانُ :

لابُدَّ من مراعاة حـالة الحضورِ ، هلْ هُمْ على مُسـتوى الحِوار ، أم أعلى ، أم أدْنَى ؟ ، فالنَّاسُ لَيْسُـوا طرزًا واحدًا ، والعقولُ تتفاوت ، والأفـهامُ تتباينُ ، ولابُدَّ من مُراعاةِ هذا التَّبايُنِ ، وذلك التَّفاوتِ .

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية : « ليسَ كُلُّ ما عرفه الإنسانُ أمكَنَهُ تعريف غيره به ؛ فلهذا كان النَّظَرُ أوسَعَ من المـناظَرَةِ ، فكُلُّ ما يُمكن المناظرة به يُمكن النَّظرُ فيه ، وليسَ كُلُّ ما يُمكِنُ النَّظَرُ فيه يُمكنُ مناظَرة كُلِّ أَحَدٍ بِهِ » [٣] .

فلابُدَّ للمحاور من الاقتصار على قَدْرِ فَهْمِ السَّامعِ ، فقد قيل : « كِلْ لكُلِّ عبْد بمـعيارِ عَقْلِه ، وَزِنْ له بميـزان فَهْمِهِ ؛ حـتَّى تَسْلَمَ منه ، وينتفعَ بك ، وإلاَّ وقَعَ الإنْكارُ لتفاوتِ المعيارِ » [٤] .

وعرَّفَ العلماءُ البلاغةَ بأنَّها : مُطابقة الكلام لمُقتضى حال السَّامعينَ [٥] .

واللهُ تبارك وتعـالى ، أمَرَ نبـيَّه ﷺ بمراعـاة الأحوالِ والأشـخاصِ ، ثُمَّ اختيار الوسيلة والأسلوب المناسب لهم .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحل : ١٢٥] .

---

(١) **النَّبْل** : واحد النِّبال ، وهي السِّهام العربيَّة .
(٢) **النِّصال** : واحدها نَصْل ، وهو الحديدة التي في رأسِ السَّهمِ ، ويجمع - أيضًا - على أَنْصُلٍ .
(٣) « الفتاوى » (٣/ ٣١٢٥) .
(٤) « الإحياء » (١/ ٧١) .
(٥) « بغية الإيضاح » (١/ ٢٦) .

قال ابن القيِّم في تفسير هذه الآية : « جَعَلَ اللهُ سبحانه وتعالى ، مراتبَ الدَّعوة بحسبِ مراتبَ الخَلْقِ ، فالمستجيب الذَّكيُّ الذي لا يُعاندُ الحقَّ ولا يأباه يُدْعَى بطريقة الحِكْمَة ، والقابل الذي عنده نوعُ غَفْلَة وتأخُّر يُدْعى بالموعظة الحسنة (وهي الأمر والنَّهي المقرون بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ)، والمُعانِدُ الجاحِدُ يُجادَلُ بالَّتي هي أحْسَنُ » (١) .

ولقدْ حذَّرَ سَلَفُنا الصَّالِحُ من تحديثِ النَّاسِ أو مُناظرتهم فيما لا تُدْرِكُهُ عقولهم .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما أنتَ بمُحَدِّثٍ قَوْمًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهم إلاَّ كان لِبَعْضِهِمْ فتنةً » (٢) .

وقالَ عُرْوَةُ بن الزُّبَيْر رضي الله عنه : « ما حدَّثتَ أحدًا بشيءٍ من العِلْمِ قَطُّ لا يَبْلُغُهُ عَقْلُهُ إلاَّ كانَ ضلالَةً عليه » (٣) .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : « حَدِّثوا النَّاسَ بِما يَعْرِفُونَ ، ودَعُوا ما يُنكِرونَ ؛ أَتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ » (٤) .

ومعنى يَعْرِفون: يَفْهَمونَ، والمُرادُ بقوله: يُنكِرونَ :ما يَشْتَبِهُ عليهم فَهْمُهُ (٥) .

قال صاحبُ عمدة القارئ - رحمه الله - : « أمر عليٌّ رضي الله عنه في قوله هذا بمراعاة مُسْتَوى فَهْمِ النَّاس عنْدَ التَّحَدُّثِ إليهم ، وبيَّنَ ما يترتَّبَ عَلَى عَدَمِ مُراعاتِهِ من

(١) « التَّفسير القيِّم » (ص٣٤٤) .
(٢) مُقدِّمَة صحيح مسلم (١/١١) .
(٣) « سير أعلام النُّبلاء » (٤/٤٣٧) .
(٤) أخرجه البخاريُّ مُعَلَّقًا حيث قال : « باب مَنْ خَصَّ بالعلم قومًا دُونَ قومٍ كراهيةَ ألاَّ يفهموا » الفتح (١/٢٢٥) .
(٥) الفتح (١/٢٢٥) .

تكذيبِ الله تعالى ورسولِه ﷺ ؛ لأنَّ الشَّخْصَ إذا سَمِعَ ما لا يفهمه ، وما لا يتصوَّر إمكانه ، يعتقدُ استحـالته جَهْلاً ، فلا يُصَدِّق وجودَهُ ، فإذا أُسْنِدَ إلى الله ورسولِه يلزَمُ تكذيبهما »[(١)] .

وقال الحافظُ ابنُ حجرٍ - رحمه الله - مُعلِّقًا علَى قولِ عليٍّ رضي الله عنه : « وفيه دليلٌ على أنَّ المُتشابِه لا ينبغي أَنْ يُذْكَرَ عندَ العامَّة »[(٢)] .

ومن اللَّطائف : أنَّ أحدهم سَأَلَ الخـليل بن أحمد الفراهيـديَّ - رحمه الله - عن مسألَة ، فـأطْرَقَ مَلِيّاً[(٣)] فتَعَجَّبَ السَّـائلُ ، وقال له : « إنَّ هذه المسألَةَ لا تحتاجُ لكُلِّ هَذَا » ، فقال له الخليل : « قدْ علمتُ مسألتك ، وعلمتُ جوابها ، ولكنَّني أُفكِّرُ في جوابٍ أسرعَ لفَهْمِكَ ، فأَعْياني[(٤)] ذلك » .

وعليـه إذا اسـتطاعَ المحـاور أن يُلاحظَ الـظَّرفَ المناسبَ في هذه الجـهـات الثلاث، أخْلصَ النِّيَّةَ ، ودَخَلَ في الحوارِ ، وإلاَّ سكَتَ أو تَرَيَّثَ .

قال ابنُ القيِّم - رحمه الله - : « وضابطُهُ أنَّكَ تَعْرِضُ مسألتك على الشَّريعة ، فإنْ صَحَّتْ في ميزانها ، فـانظرْ إلى ما لها إلى حال الزَّمان وأهله ، فإنْ لم يُؤدِّ ذكْرُها إلى مَـفْسَدَة ، فاعـرِضْها في ذهنكَ على العـقول ، فإنْ قابلتـها فلك أنْ تتكلَّمَ فيها ، إمَّـا على العمومِ إنْ كانت ممَّا تقبله العقـولُ ، وإمَّا عَلَى الخُصوصِ إنْ كانتْ غيْرَ لائقَةٍ بالعمومِ ، وإنْ لم يكُنْ لمسألتكَ هذا المساغ ، فالسُّكوتُ عنها هو الجاري وِفْقَ المصلَحَة الشَّرعيَّة والعقليَّة »[(٥)] .

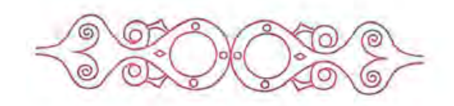
---

(١) « عمدة القارئ » (٢/٢٠٥) .
(٢) الفتح (١/٢٢٥) .
(٣) مَلِيّاً : وقتًا طويلاً .
(٤) أعْياني : أَعْجَزَني .
(٥) « أعلام الموقعين » (٤/١٦٣) .



قال عبد الكريم العماد :

إِذَا شِئْتَ يَوْمًا مَنْطِقًا فَاحْتَرِزْ لَهُ مَتَى ثُمَّ مَاذا ثُمَّ كَيْفَ سَتَنْطِقُ
فَكَمْ مِنْ فَتَى في قَلْبِه العِلْمُ زَاخِرٌ وَلَكِنَّهُ في سَاحَةِ القَوْلِ يُخْفِقُ
وَرُبَّ فَتَى قَدْ حَازَ عِلْمًا وَمَنْطِقًا فَهَذَا لَهُ فَخْرٌ ، وذَلِكَ رَوْنَقُ



الكلمةُ الطَّيبةَ

يا لله كم للكلمة الطَّيِّبة من أثرٍ في النُّفوسِ ! ، وكمْ لها من وَقْعٍ في القلوب ، فكم من مودَّة استُجْلِبَتْ بها ! ، وكمْ من عداوةٍ وُئِدَتْ بسببها !! .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

قال ابن كثيرٍ - رحمه الله - في تفسير هذه الآية : « يأمر - تبارك وتعالى - عَبْدَهُ ورسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ عبادَ الله المؤمنين أنْ يقولوا في مخاطبتهم ومُحاورتهم الكلامَ الحسنَ ، والكلمة الطيِّبة ؛ فإنَّهم إنْ لم يفعلوا ذلك نَزَغَ الشَّيطانُ بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفَعالِ ، ووقع الشَّرُّ والمخاصمة والمقاتلةُ ؛ فإنَّه عَدُوٌّ لآدمَ وذُرِّيَّتِه من حين امتنعَ عن السُّجُودِ لآدمَ ، وعداوتُهُ بَيِّنَةٌ » [(١)] .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] .

قال العلاّمة السّعديُّ في تفسير هذه الآية : « ومن القول الحسن أمْرُهُم بالمعروف ، ونَهْيُهُمْ عنِ المنكرِ ، وتعليمُهُم العلمَ ، وبَذْلُ السَّلامَ والبشاشَةَ ، وغيرِ ذلك من كُلِّ كلامٍ طَيِّبٍ ، ولَمَّا كانَ الإنسانُ لا يَسَعَ النَّاسَ بمالِهِ أُمِرَ بأمرٍ يقدر به على الإحسان إلى كُلِّ مخلوقٍ ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون ضمن ذلك النَّهْي عن الكلام القبيح حتَّى للكفَّارِ » [(٢)] .

وقال الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام عندما بعثه إلى فرعون : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ .
[طه ٤٣ - ٤٤] .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٤٥) .
(٢) « تيسير الكريم الرّحمن » (ص٥٧) .

وفي الآية الأخرى قال : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) ﴾ { النَّازعات : ١٧ - ١٩ } .

قال ابن القيِّم - رحمه الله - : « وتأمَّلْ امتثالَ موسى لما أُمرَ به ، كيف قال لفرعون : ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) ﴾ ، فأخرَجَ الكلام معه مخرج السُّؤال والعَرْض ، لا مخرج الأمر ، وقال : ﴿ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ، ولم يَقُلْ : إلى أنْ أُزكِّيك ، فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التَّزكِّي دون غيره ؛ لما فيه من البركة والخير والنَّماء ، ثُمَّ قال : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ، أكون كالدَّليل بين يديك الذي يسيرُ أمامَكَ ، وقال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ؛ استدعاءً لإيمانه بربِّه الذي خلقه ورزقه وربَّاه بنعمه صغيرًا وكبيرًا »[1] .

فانظر - أخي الحبيب - في تلك الكلمات النَّيِّرات المباركات الطَّيِّبات التي تأخذُ باللُّبِّ ، وتنفذ إلى شغاف القلب[2] ، لولا أنَّها وجدت قلبًا قاسيًا عاتيًا ماردًا ، تشرَّبَ الكفر والطُّغيان ، لأثَّرتْ به ، وقادتْهُ إلى الهُدَى والرَّشادَ .

ولقدْ أجادَ مَنْ قالَ - وأحسنَ - :

بِاللهِ لَفْظُكَ هَذَا سَالَ مِنْ عَسَلٍ ... أَمْ قَدْ صَبَبْتَ عَلَى أَفْواهنا العَسَلا؟!
أَمِ المعانـي اللَّواتي قَدْ أَتَيْتَ بها ... بها الدَّراري والياقوتُ مُتَّصِلا ؟!

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ .
{ مريم : ٤٢ - ٤٥ } .

---

(١) « البدائع » (٣/ ١٣٢) .
(٢) شِغاف القلب : غِشَاؤُهُ وغلافُهُ .

قال ابن القيِّم - رحمه اللهُ - مُعلقًا على هذه الآيات :

« فابـتدأَ خطَابَهُ بذكـر أُبُوَّتِه الدَّالة على توقيـره ، ولم يُسَمِّـه باسمـه ، ثُمَّ أخرجَ الكلام معه مخرَجَ السُّؤال ، فقال : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ ، ولمْ يقلْ : لا تعبدْ .

ثمَّ قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ، فلم يقلْ : إنَّكَ جاهلٌ لا علمَ عندك ، بل عَدَلَ عن هذه العـبارة إلى ألطفِ عبارةٍ تدلُّ على هذا المعنى ، فقال : ﴿ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ .

ثُمَّ قـال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ ، فنسبَ الخوف إلى نفسـه دون أبيه ، كما يفـعلُ الشفيق الخائف على مَنْ يُشْفِقُ عليه ، وقال : ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ فذَكَرَ لفظَ المسِّ الذي هو ألطَفُ من غـيره ، ثمَّ نكَّر العـذاب ، ثمَّ ذكَرَ الرَّحـمَن ، ولم يذكر الجـبَّار ولا القَهَّار ، فأيُّ خطابٍ ألطَفُ وألْينُ من هذا ؟! » [(١)] .

وإذا كان القـول الحسنَ يَجْمُلُ مع كُلِّ أَحَدٍ ، فَـمِنْ بابِ أولى أن يَجْمُلَ مع مَنْ له حقٌّ ، أو جاهٌ ، أو رياسَةٌ ، فهكذا كانَ رسول الله ﷺ يُخاطبُ رُؤساء العشائرِ والقبائلِ .

قال ابنُ عقيلٍ الحنبليُّ في الواضح : « وإنْ كان أعلى فليـتحرَّ ويتـجنَّبَ القولَ له : هذا خطأٌ أو غلطٌ ، أو ليس كـما تقـول ، بل يكون قوله : أرأَيْـتَ إنْ قال قائلٌ : يَلْزَمُ على ما ذكرتَ كذا ، وإنْ اعترض على ما ذكرتَ معترضٌ بكذا ؟ ؛ فإنَّ نفوس الكرام الرُّؤساء المقدَّمين تأبى خُشونَةَ الكلامِ ؛ إذ لا عادَةَ لهم بذلك ، وإذا نُفِّرَتْ عَمـيتِ القلوبُ ، وجمدت الخواطرِ ، وانسدَّتْ أبواب الفـوائد بِسَفَهِ السَّفيهِ ، وتقصير الجاهل في حُقوقِ الصُّدورِ » [(٢)] .

---

(١) « البدائع » (٣/ ١٣٣) .

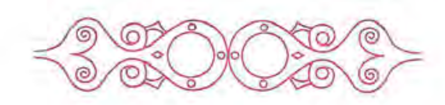
(٢) « شرح الكواكب المنيرة » (ص٣٧٩) .

وقال بدرُ الدِّين بن جماعة - رحمه الله - في بيانِ آداب الطَّلِبِ مع شيخه : « ولا يقــولُ لما رآه الشــيخ - وكــان خطأً - : هذا خطأٌ ، ولا هَـذا ليس برأيٍ ، بل يُحَسِّنُ خطابَهُ في الرَّدِّ إلى الصَّوابِ ، كقــوله : يظهر أنَّ المصلحة في كذا ، ولا يقولُ : الرَّأيُ عندي كذا ، وشِبْه ذلك » [1] .

وما أجملَ ما قاله يحيى بن معاذٍ - رحمه الله - : « أَحْسَنُ شيءٍ كلامٌ رقيقٌ ، يُسْتَخْرَجُ من بَحْرٍ عميقٍ على لسانِ رجلٍ رفيقٍ » [2] .

ومن اللَّطائفِ ما ذكره الإمام السَّخاويُّ نقلاً عن المزنيِّ قوله : « سمعني الشَّافعيُّ يومًا وأنا أقولُ : فلانٌ كذَّابٌ ، فقال لي : يا إبراهيمُ ، اكسُ ألفاظك أحسنها ، لا تقلْ : كذَّاب ، ولكن قُلْ : حديثُهُ ليس بشيءٍ » [3] .

فاحـذَرْ أخي المحاور من سـقطات فمـك ، وعثراتِ لـسانك ، فقـد تُؤَدِّي بحوارك إلى الضَّياع والفشل الذَّريع ! .



(١) « تذكرة السَّامع والمتكلم » (ص١١٢) .
(٢) « بهجة المجالس للأثري » .
(٣) « الإعلان بالتَّوبيخ لِمَنْ ذَمَّ التَّاريخ » (ص٦٨-٦٩) .

حاوره باسمه
(إيَّاكَ أنْ تنسى اسم مُحاورك)

إذا تعارفتَ على شَخْصٍ بين أُناسٍ ، ثُمَّ انفضَّ النَّاسُ من حولك ، لتجلس بجوارِ الشَّخْصِ نَفْسه ، فتُناديه : يا أبا فُلان ، أو يا فُلانُ ، لأقْبَلَ عليكَ مُسْتَبْشِرًا متهلِّلاً ، ولسانُ حاله : لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ .

وإذا التقيتَ بالشَّخْصِ الذي تعارفتَ عليه سابقًا ، وقال لك : يا فُلانُ ، هَلْ تذكر اسمي ؟ ، أو احتجْتَ أنْ تُناديَهُ ، أو قالَ لك زميلك : مَنْ يكونُ هذا الأخ ؟ ، لأُصِبْتَ بالإحراجِ ، فهَلْ ثَمَّة سِرٌّ ؟ .

نعم ، السِّرُّ أنَّ حفظكَ لاسم مُحاورك دليلٌ على تقديرك واحترامك لشخصه ، فليسَ ثمَّة شيءٌ أجملُ وأحبُّ إليه من اسمه .

فحفظُ الأسماء لابُدَّ منه لمن يُحِبُّ التَّآلف مع النَّاس ، ودعوتهم إلى الله ومُشاركتهم ومُخالطتهم ، وكسب وُدِّهم ، وإعطاءَهم وُدَّهُ .

لكن كيفَ يُمكنُ حفظُ أسماءَ النَّاس ؟ .

هناك أربعُ خُطواتٍ تُمكِّنك من حفظ اسم من التقيْتَ به وتعارفتَ عليه [1] :

[١] معنى الاسم :

بمجرَّدِ أنْ يُذكرَ لك الاسم حاول أن تجد له معنىً .

[٢] الوَجْه :

أي وجْهُ الشَّخص الذي تعارفتَ عليه ، انظر إليه جيِّدًا ، واختَرْ جانبًا بارزًا منه (الأنف ، الجبهة ، العينين ، الذِّقْن . . . أو غير ذلك) .

---

(١) انظر مجلَّة الغذاء العدد ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٠م ، مقال بعنوان « حلول علميَّة » .



[٣] ربط معنى الاسم بالوَجْه :

حاول أنْ تربط بين المعنى وعلامة الوجه المختارة ، إنْ لم تجد استخدم الخيال (أيّ خيالٍ حتَّى ولو كان غريبًا) .

[٤] التّكْرار :

كرِّرْ في نفسك الاسم بالوجه بالمعنى لعددٍ من المرَّات في المجلس نفسه ، ولنضرب لك مثلاً :

تعارفتَ على أخٍ ، وذكر لك اسمه شُكْرِي ، ابدأ بممارسة الأربع خطوات مباشرة :

- معنى الاسم : شكري من الشُّكْرِ ، الشُّكر لله ، شكر النَّاس .
- الوَجْه : عيناه واسعتان وبرَّاقتان (هذه أبرز علامة) .
- ربط معنى الاسم بالوجه : معنى الاسم من الشُّكْر ، وعيناه واسعتان برَّاقتان ، يُمكن أن تربطَ بينهما بقولك : عليْهِ أنْ يشكرَ الله على هاتين العينين .
- التّكْرار : اسمه شكري ، عيناه واسعتان ، إذًا من شكري ، الشكر لله على العَيْنَين الواسعتين .

خلال المجلس - أو الحديث معه - حاول أنْ تُناديَه باسمه : يا أخ شكري، والله يا شكري ، وتذكَّرْ أنَّ عليه أنْ يشكر الله على العينين .

أكثر من حلٌ :

قدْ يتعذَّرُ عليك أنْ تجد للاسم معنىً ، أو تجد علامةً في الوجْهِ ، لا عَلَيكَ إنَّ هناك أكثر من حَلٍّ ، ولكن ومع جميع الحلول إلاَّ أنَّ الفكرة واحدة ، وهي المعنى والرَّبط ، أو الرَّبط والتَّشابه ، فمثلاً : تعارفتَ على شخْصٍ اسمه أحمد، لم تجد في وجهه ما يُمَيِّزُهُ ، أو ما يُمكن أنْ تمسك به ، لا عليكَ تذكَّر أشْهَر

إنسان تعـرفه اسـمه أحمـد ، ليكن أحمـد أخاك الصّـغير ، ستجـد عددًا من المفارقات، فمثلاً : وجدْتَ أنَّ أنفه كبير ، وأنف أخيك صغير ، إذًا كرِّرْ : رغمَ أنَّ اسمه أحمد إلاَّ أنَّ أنفه كبير بعكس أحمد أخي . . . كرِّرْ .

وماذا لو لم تَجِدْ أيَّ سبْطٍ بينهما ؟ .

الأمرُ بسيطٌ ، ابحثْ عن أحمـدٍ آخر ، وثالث ، ورابع حتَّى تربط ، ولكنْ أسرعْ في البحثِ .

الطَّرائق أكثر :

الطَّرائق بفلسـفـة المعنى ، والرَّبط ، والتّكْرار أكـثـرَ من أنْ تُحْـصَى هنا ، فيُمكن استخدام طريقة تفكيك الاسم إلى مقاطع ، وربط أحد المقاطع ـ أو أوَّلها - بمعنى كلمةٍ ، أو شيءٍ معروفٍ ، فمثلاً :

شاهرٌ اسم مكوَّنٌ من « شاهي » و « ر » ، والشَّاي يُشْرَبُ ، ابحثْ في هذا الرَّجُل ما يُمكن أنْ شربه .

ويُمكن تفكيك اسم سارة إلـى « سار » و « هـ » ، ومعنى سار من السَّـيْر . . . إلخ .

ويُمكن ربط الاسم بالمكان الذي تعارفت فيه عليه ، أو بكلمةٍ إنجليزيَّةٍ ، أو اسم سيَّارةٍ ، أو أحد المشَاهير .

خيالٌ مُفَرِّقٌ :

إذا كُنْتَ من أهلِ التَّخَـيُّل الشَّديد ، فإنَّ أمـر الرَّبْط والمعنى سيُـسهِّل عليك كثيرًا ، فمثلاً :

رجلٌ اسمه كمال ، وشفتاه رفيـعتان ، قد يقودك خيالُكَ لربطٍ وفكٍّ وجمعٍ للمعاني ، فتصل إلى حَلٍّ عجيبٍ ، كأنْ تصل إلى أنَّ هناك رجُلَين يجْلِسان على

كرسيَّين فـوق الشَّفتين يتناقشان ، فلو مَرَّتْ عَـشْرُ سنوات ، وشاهدْتَ الرَّجُلَ ، ووقَعَـتْ عيناكَ علَى شَـفَتَـيْهِ الرَّفـيعـتين ، تشعـر وكأنَّكَ تُشـاهد الرَّجلين على الكرسيَّين يتناقشان ، فتقول : أهلاً أخ كمال .

ولو سألتَ أكْـثَرَ النَّاس : لماذا لا يتـذكَّرونَ الأسمـاءَ ؟ لانتحلوا لأنفـسهم العُذْرَ بكَثْرَةِ المشاغِلِ ، ولكنَّهم ليسوا أكثرَ انشـغالاً من نبيِّنا محمَّد ﷺ ، فقد كان يحفظ أسماء أصحابه ، وكُناهم ، وأسماء صِغَارهم ، وكُلّ مَنْ تعارَفَ عليه في الجاهليَّةِ ، وربَّما عرف صفـة الرَّجل ، وسمع به ، فإذا التقى به قالَ : أنت فلانٌ ؟ ، فيكون الأمرُ كما ذكرَ ! .

ومن اللَّطائف أنَّ نابليـون الثـالث - إمبـراطور فـرنسا ، وابن عَمِّ نابليـون الشَّهيـر يُباهي بأنَّهُ - على الرغم من واجبات المُلْكِ الملقاة على عـاتقه - يستطيع أنْ يذكُرَ اسم كُلِّ شَخْصٍ التقى به .

فماذا كانت خُطَّته ؟ .

غايةٌ في البساطةِ ، كان إذا لم يسمعْ اسم محدِّثه واضحًا ، قال له : آسف لم أستطعْ أنْ ألتَقِطَ الاسم تمامًا ، فإذا كان فى الاسم شيءٌ من الغرابة ، سألَ : كيف يتهجَّى ؟ ، ثُمَّ يأخُذْ على عاتِـقهِ - خلال المناقَشَة - أن يُكَرِّر الاسم جملَةَ مرَّات ، ويُحاول أن يربطه في ذهنه بصـورةِ صاحبه ، وملامحـه ، وتعبيراته ، ومظهره العامِّ ، وإذا كان الرَّجُلُ علَى قَدْرٍ من الأهميَّة ، قام نابليون - فضلاً عن هَذَا - بعمَلٍ شاقٍّ آخر ، فمتى خـلا لنفسه كان يُدَوِّنُ الاسم على قرطاسٍ ، ثُمَّ يتأمَّلهُ مليّـاً ويُحضر ذهنه فيـه ، وبهذا يُكَوِّنُ فكرةً (عينيَّةً) عـن الاسم ، كما كَوَّنَ فكرةً (سمعيَّةً) ، فلا يكون هناك ثمَّة سبيلٌ لنسيانه ! [1] .

---

(١) « كيف تكسب الأصدقاء ؟ » (ص٥٦) .

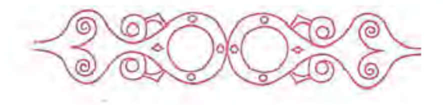
لا تستخدم لفظة « أنا » وما في معناها

أخي المحاور ، إنَّه يَجْمُلُ بك عدمُ استخدام لفظ « أنا » ؛ فهو - كما يُقال- لفظٌ نصْفُ بلاءِ العالم منه ؛ لما يدلُّ عليه من كثيرٍ من المخلوقين من دَعْوى عريضةٍ ، وكذبٍ أعْرَضَ ، ونحوه مثل : لي، وعندي ، وغيرهما [١] .

وفي هذا يقول ابن القيِّم - رحمه الله - : « وَلْيَحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ من طُغْيَانِ أنا ، ولي ، ووعندي ؛ فإنَّ هذه الألفاظ الثَّلاثة ابْتُلِيَ بها إبليسُ ، وفرْعَونُ ، وقارونُ: فـ ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف : ١٢] لإبليس ، و﴿ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزُّخْرُف : ٥١] لفرعون ، و﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص : ٧٨] لقارونَ .

وأَحْسَنُ ما وُضِعَتْ « أنا » في قولِ العَبْدِ : أنا العبدُ المذنبُ المخطئ المستغْفرُ المعترفُ ، ونحوه ، و« لي » في قوله : لي الذَّنْبُ ، وليَ الجُرْمُ ، وليَ المَسْكَنَةُ، وليَ الفَقْرُ ، والذُّلُّ ، و« عندي » في قولـه : اغفرْ لي جِدِّي وَهَزْلِي ، وخَطَئِي وَعَمْدِي ، وكُلُّ ذلك عندي » [٢] .

وقال ابنُ العربيِّ الحاتميُّ الحلوليُّ: « الصُّوفيُّ مَنْ أَسقَطَ الياءاتِ الثَّلاثَ ، فلا يقول : لي ، ولا عندي ، ولا متاعي : أي لا يُضيف لنفسه شيئًا » [٣] .



(١) « مُعْجَمُ المناهي اللَّفظيَّة » (ص ١٥٠) .
(٢) « زاد المعاد » (٢/ ٤٧٥) .
(٣) « شذرات الذَّهب » (٥/ ١٩٩) .

حُسْنُ الاستماع

أخي الحبيب ، اعلمْ - علَّمني اللهُ وإيَّاك ، وجَعَلَ الجنَّةَ مُنتَهى مَسْعَايَ ومَسْعَاكَ - أنَّ مِنْ أدَبِ المروءَةِ حُسنَ إصْغَاءِ الرَّجُلِ لِمَنْ يُحَدِّثُهُ من الإخوان ، فإنَّ إقباله على مُحَدِّثه بالإصغاء إليه بالأُذُنِ ، وطَرْفِ العين ، وحضورِ القلبِ ، وإشراقة الوَجْهِ يدلُّ على ارتياحِهِ لمجالسته ، وأُنْسِه بحديثه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لجليسي عليَّ ثلاثٌ : أنْ أَرْمِيَهُ بطَرْفي إذَا أَقْبَلَ ، وأنْ أُوَسِّعَ له في المَجْلِسِ إذا جلسَ ، وأنْ أُصْغِيَ إليهِ إذا تَحَدَّثَ »[(١)] .

وقال عَمْرُو بْنُ العاص رضي الله عنه : « ثلاثةٌ لا أَمَلُّهُمْ : جَلِيسي ما فَهِمَ عَنِّي ، وثوبي ما سترني ، ودابَّتي ما حَمَلَتْ رَحْلي[(٢)] »[(٣)] .

وقال الحسَنُ البصْرِيُّ : « إذا جالسْتَ فكُنْ على أنْ تَسْمَعَ أَحْرَصَ منك على أنَّ تقولَ ، وتعلَّمْ حُسنَ الاستماعِ ، كما تتعلَّمُ حُسْنَ القَوْلِ ، ولا تَقْطَعْ على أحَدٍ حَديثَهُ »[(٤)] .

وقال مُعاذُ بْنُ سَعْدٍ الأعورُ : « كُنْتُ جالسًا عند عطاء بن أبي رباحٍ ، فَحَدَّثَ رجلٌ بحديثٍ ، فعرَّضَ رجلٌ من القَوْمِ في حديثه ، قال : فغَضِبَ ، وقال : ما هذه الطِّباع ؟! ، إنِّي لأَسْمَعُ الحديثَ من الرَّجُلِ وأنا أَعْلَمُ به ، فأُرِيهِ كأنِّي لا أُحْسِنُ شَيْئًا »[(٥)] .

---

(١) « عيون الأخبار » (١/٣٠٧) .
(٢) الرَّحْل : ما يُوضع من غطَاء علَى ظهر الجَمَلِ للرُّكوب ، مثل السَّرْجُ للفَرَس ، والإكاف والبرذعة للحمار ، وجمع رَحْلٍ رِحَالٌ .
(٣) « عيون الأخبار » (١/٣٠٦) .
(٤) « المنتقى » (ص٧٢) .
(٥) « روضة العقلاء » (ص٧٢) .

وقال المدائني: « أوصى خالد بن يحيى ابنه ، فقال : « يا بُنَيَّ ، إذَا حدَّثكَ جليسُكَ حديثًا فَأَقْبِلْ عليه ، وأَصْغِ إِلَيْهِ ، ولا تَقُلْ : قَدْ سَمِعْتُهُ ، وإنْ كنتَ أَحْفَظَ منه ؛ فإنَّ ذلك يُكْسِبُكَ المحبَّة والميلَ إليك » [١] .

وقال إبراهيم بن الجنيد: قال حكيمٌ لابنه : « يا بُنَيَّ ، تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماعِ كما تتعلَّمْ حُسْنَ الكلام ، فإنَّ حُسْنَ الاستماع إمهالُك المتكلِّمَ حتَّى يُفْضيَ إليك بحديثه ، والإقبالُ بالوَجْهِ والنَّظَر ، وتركُ المشاركة بحديث أنتَ تعرفُهُ » [٢] .

وقال ابن المقفع: « إذا رأيتَ رجلاً يُحَدِّثُ حديثًا قدْ عَلِمْتَهُ ، أو يُخْبِرُ خبراً قد سمعتَه ، فلا تُشاركْ فيه ، ولا تتعقَّبْهُ عليه حِرْصًا على أن يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّكَ قَدْ علمتَهُ ؛ فإنَّ ذلك خِفَّةٌ ، وسُوْءُ أَدَبٍ وسَخفٌ » [٣] .

وقال أيضًا: « من الأخْلاق التي أنت جديرٌ بتركها إذا حدَّثَ الرجلُ حديثًا تعرفهُ ألاَّ تُسابقَهُ ، وتفْتحَهُ عليه وتُشاركَهُ ، حتَّى كأنَّكَ تُظْهِرُ للنَّاسِ أنَّك تريدُ أنْ يعلموا أنَّكَ تعلْمُ مِثلَ الذي يعلمُ ، ومـا عليك إلاَّ أنْ تُهَنِّئَهُ بذلك ، وتُفْرِدَهُ به ، وهذا الباب من أبواب البُخْلِ ، وأبوابُهُ الغامضةُ كثيرةٌ » [٤] .

وأنشدَ الخطيبُ البغداديُّ في هذا المقام:

ولا تُشارِكْ في الحديثِ أَهْلَهُ   وإنْ عَرَفْتَ أصْلَهُ وَفَرْعَهُ

فَعَلَيكَ - أخي الحبيب - أن تُحسِنَ الاستماعَ لُمحاورك ؛ حتَّى يستكملَ حُجَجَهُ وبَرَاهينَهُ ، وإنْ كانَ ما تَسْمَعه منه شبه الوسواس ، فإنْ كان فيه حقٌ استخلصْهُ ، ثُمَّ استفدْ منه ، وإن كان فيه خطأٌ ، استخرَجْ جُذُورَهُ ودافِعَهُ ، والشُّبهات التي أَدَّتْ إليه .

---

(١) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ
(٢) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٣٢) .
(٣) « الأدب الصَّغير والكبير » (ص[illegible]) .
(٤) المرجع السابق (ص١٦٨) .

قال الخطيبُ البغداديُّ في ذكر أدبِ الجدلِ والمناظرة : « وإذا وَقَعَ له شيءٌ في أَوَّلِ كلامِ الخَصْمِ ، فـلا يَعْجَلْ بالحُكم عليه ؛ فربَّمـا كان في آخر كلامـه ما يُبيِّنُ أنَّ الغرضَ بِخلاف الواقع له ، فينبغي أنْ يتثبَّتَ إلى أنْ يَنْقَضِيَ الكلامُ ، وبهذا أدَّب اللهُ تعالى نبيَّـهُ ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه : ١١٤] ، ويكون نُطْقُهُ بِعِلْمٍ ، وإنصاتُهُ بِحِلْمٍ ، ولا يعجل إلى جوابٍ ، ولا يهـجم على سؤالٍ ، يحفظ لسانَهُ من إطلاقه بما لا يعلمُ ، ومن مناظرته فيما لا يفهمُ ؛ فإنَّه ربَّما أخرجه ذلك إلى الخَجَلِ والانقطاعِ » .

ثمَّ قال : « وينبـغي أنْ يكونَ كُلُّ واحدٍ من الخَصْمَـيْنِ مُقْبلاً على صـاحبه بوجهِهِ في حالِ مُناظرته ، مُستمعًا كلامه إلى أن يُنْهِيَهُ ؛ فإنَّ ذلك طريقُ معرفته، والوقوفِ على حقيقته ، وربَّما كان في كلامه ما يدلُّ على فسادِهِ ، ويُنبِّهُ عوارهُ، فيكون ذَلك معونةً له على جوابه » .

إلى أن قال : « وَلْيَتَّقِ المناظرُ مُداخَلَةَ خَصْمِـهِ في كلامِهِ ، وتقطيعَهُ عليه ، وإظهارَ التَّعَـجُّبِ منه ، ولْيُمكِنْهُ من إيرادِ حُجَّتِهِ ؛ فـإنَّما يفعلُ ذلك المبطلون ، والضُّعفاءُ الَّذين لا يحصلون » [١] .

وقال إمام الحرمين الجوينيُّ في آداب المجادل : « وعليهما جمـيعًا أنْ يصبرَ كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبِهِ في نَوْبَتِهِ ، وإنْ كان مـا يسمعه منه شبه الوسواس ؛ لأنَّهما متساويان في حقِّ المناوبَة ، ومن لمْ يصبرْ منهما لصاحبه ، فقد قطَعَ عليه حقَّهُ ، ومتى لم يـصبرْ عليـه خَصْـمُهُ ، بل داخلَهُ بالاعـتراضِ ، أو الجوابِ فـي نَوْبَتِهِ احْتمله ووعظه ، فإنْ أصرَّ عليه قطَعَ مُكالمَته » .

---

(١) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٣١-٣٥) .

ثُمَّ قال : « وعلى كُلٍّ منهما أنْ يُقبلَ على خَصْمِه الذي يُكَلِّمُهُ بوجهِهِ في خطابِه ، المُتَكَلِّمُ في كلامه ، والمستمع في استماعه ، فإن التفَتَ أو أعْرَضَ عنه في الاستماع أو الخطاب وَعَظَهُ ، فإنْ لم يقبلْ قَطَعَ مُنَاظرَتَهُ ؛ لأنَّ تركَ الإقبال ، وحُسْنِ الاستماعِ يشغَلُ قَلْبَ المتكلِّم والمستمع ، فتنقَطِع عليه مادَّةُ الفَهْمِ والخاطر » (١) .

وقد تجد محاورك يتحدَّثُ وفي كلامه ما ينبغي أنْ يُسْتَدْرَكَ عَلَيْه ، ويُراجَعَ فيه تعليقًا وتصحيحًا ، فمن الأفضل أنْ يكونَ لديكَ قَلَمٌ وورقَةٌ ، تُسَجِّلُ عليه ما تَوَدُّ تسجيله ، حتَّى إذا جاء دَوْرُكَ أَفْضَيْتَ بما لديك حسبَ موقع ورودها .

ومن اللَّطائف :

أنَّ عبد الملك بن مروان استأذنَ على أمير المؤمنين معاوية في الدُّخولِ ، فأذنَ له ، ثُمَّ سَلَّمَ عليه وجَلَسَ ، وبعدَ أنْ فَرَغَ من حديثه قام وانصرَفَ ، فقال مُعاوية : « مَا أَكْمَلَ أَدَبَ هذَا الفَتَى ! » ، فقال بعضُ الحاضرين : « نَعَمْ يا أمير المؤمنين ، لقدْ أخَذَ بأخلاق أربعة ، وتركَ أخلاقًا أربعةً : أَخَذَ بأَحْسنِ البِشْرِ (٢) إذا لَقِيَ ، وبأَحْسَنِ الحديثِ إذا حَدَّثَ ، وبأحْسَنِ الاستماعِ إذا حُدِّثَ ، وبأحسَنِ الوفاء إذا وَعَدَ ، وتركَ مزَاح مَنْ لا يثقُ بِعَقْلِه ، وتركَ مُجالسةَ مَنْ لا يرجعُ إلى الحقِّ ، وتركَ مُخالطَةَ مَنْ لا أَدَبَ عنده ، وتركَ من القَوْلِ والعملِ كُلَّ ما يعتذر منه » (٣) .

قال الشاعر :

إنْ أَنْتَ جَالسْتَ الرِّجالَ ذوي النُّهَى ... فاجْلسْ إِلَيْهِمْ بالكمالِ مُؤَدَّبا
واسمَعْ حَديثَهم إذَا هُمْ حَدَّثُوا ... واجْعَلْ حديثَكَ -إنْ نَطَقْتَ- مُهَذَّبا (٤)

(١) « الكافية في الجدل » (ص٥٣٣- ٥٣٤) .
(٢) البِشْر : الفرح والبَشَاشة .
(٣) « عيون الأخبار » (١/ ٣٠٧) .
(٤) المرجع السَّابق (١/ ٣٠٧) .



الحوار الصَّامت (١)

قد يكون الحوار الصَّامت أدقَّ وأصدقَ في التَّعبيرِ من الكلامِ ، وقديمًا قال العربُ : « رُبَّ إشارةٍ أَبْلَغُ من عبارةٍ » .

والحوارُ الصَّامت قد يكونُ بالعيونِ ، وقدْ يكون باليدينِ ، وقد يكون بقسماتِ الوجْهِ ، وقد يكون بحركاتِ الكَتِفيْنِ ، أو الرِّجْلَيْن ، أو الرَّأس ، وإليك شيئًا من التَّفصيلِ :

[١] لُغةُ العيُون :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ [الأحزاب : ١٩] .

ورحمَ اللهُ ابن القيِّم القائل : « إنَّ العُيُونَ مغاريفُ القلوبِ ، بها يُعْرَفُ ما في القلوبِ ، وإنْ لم يتكلَّمْ صاحبُها » .

والعيون ليست وسيلةً فقط لرؤية الخَارِج ، بلْ هي وسيلَةٌ بليغَةٌ في التَّعبيرِ عمَّا في الدَّاخلِ (أي ما في النّفوسِ والقلوبِ ونقله للخارِجِ) فهناكَ النَّظَراتُ القَلَقَةُ المضطرِبَةُ ، وغيرها المستغيثةُ المهزومةُ المستسلمةُ ، وأُخْرى حاقدَةٌ ثائرَةٌ ، وأُخْرَى ساخِرَةٌ ، وأُخْرَى مُصَمِّمَةٌ ، وأُخْرَى سارِحَةٌ لا مُباليَة ، وأُخْرَى مُسْتَفْهِمَةٌ ، وأُخْرى محبَّةٌ . . . وهكذَا تَتَعدَّدُ النَّظَرَاتُ المعبِّرَة ، وقد سَمَّى الله سبحانه وتعالى بعض النَّظَرات بـ « خائِنَةِ الأَعْيُنِ » .

والمُحاورُ في حوارِه مع لُغَةِ العيونِ يتعامل معها كوسيلة تعبيرٍ عمَّا في نفسه للآخرين .

---

(١) استفدتُ هذا المبحث من كتاب « حتَّى لا تكونَ كَلاًّ » بتصرُّفٍ يسيرٍ .

قال الشاعرُ:

إنَّ العيُونَ لَتُبْدِي في نَوَاظِرِها ... ما في القُلُوبِ مِنَ البَغْضاءِ والإِحَنِ (١)

وقال آخرُ:

وما أحبَّ إذَا أَحْبَبْتَ مُكْتَتِمًا ... يُبْدِي العَدَاوَةَ أَحْيَانًا ويُخْفِيهَا
تَظَلُّ في قلبِهِ البَغْضَاءُ كَامنَةً ... فالقَلْبُ يكْتُمُها والعَيْنُ تُبْدِيها
والنَّفْسُ في عَيْنَي مُحَدِّثِها ... مَنْ كَانَ مِنْ سِلْمِها أو مَنْ أَعَادِيها
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنَيَّ مِنْكَ عَلَى ... أَشْيَاءَ لَولاهما ما كُنْتُ أَدْرِيها (٢)

وقال آخرُ:

تُريكَ أَعْيُنُهُمْ ما في صُدُورِهِم ... إنَّ العُيُونَ يُؤَدِّي سِرَّهَا النَّظَرُ (٣)

وإذا أردْتَ إيصالَ مُرادكَ بعينيك، فاحرصْ علي الأمورِ الآتيةَ:

{١} أنْ تكونَ عيناكَ مرتاحتين أثناءَ الكلام، ممَّا يُشْعِرُ الآخر بالاطمئنان إليك، والثِّقَة في سلامة موقفك، وصحَّة أفكارك.

{٢} تحدَّثْ إليه ورأسُكَ مُرتَفعٌ إلى الأعلى؛ لأنَّ طَأْطَأَةَ الرَّأسِ أثناءَ الحوار يُشْعِرُ بالهزيمة والضَّعْفِ والخَوْرِ.

{٣} لا تَنْظُرْ بعيدًا عن مُحاورك، أو تُثْبِتْ نَظَرَكَ في السَّماءِ أو الأرضِ أثناءَ الحوار؛ لأنَّ ذلك يُشْعِرُ باللاَّمُبالاة بِمَنْ تتحاورُ معه، أو بِعَدَمِ الاهتمامِ بالموضوعِ الذي تتحاورَ فيه.

{٤} لا تُطِلْ التَّحْديق بشكْلٍ مُحْرِجٍ فيمَنْ تتحاورُ معه.

---

(١) الإِحَنْ: الأَحْقاد، مفردها إِحْنَةٌ.
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٠٧).
(٣) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٦٤).

{ ٥ } احذرْ مِنْ كَثْرَةِ الرمش بعينيكَ أثناء الحوار مع غيرك ؛ لأنَّ هذا يُشْعِرُ بالقلقِ والاضطرابِ .

{ ٦ } ابتعدْ عَنْ لبس النَّظَّارات القاتمة أثناء الحوار مع غيرك ؛ لأنَّ ذلك يُعيقُ بناءَ الثِّقَةِ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ .

{ ٧ } احذَرْ من النَّظَرَات السَّاخرة الباهتة إلى مَنْ يُحاورك أو تُحاورُهُ ؛ لأنَّ ذلك يَنْسفُ جُسُور التَّفاهُم والثِّقَة بينك وبينه ، ولا يُشَجِّعُهُ على الاستمرار في التَّواصُلِ معك ، وَرُبَّ نَظْرَةٍ أَوْرَثَتْ حَسْرَةً ! .

كيف تفهمُ ما في نفوسِ الآخرين من خلال نظرات عُيُونهم ؟! .

لقد قام عُلماءُ النَّفْسِ بالكثير من التَّجاربِ للوصولِ إلى معرِفَةِ دلالاتِ حركاتِ العُيون عمَّا في النُّفوسِ ، وكان ممَّا وصلوا إليه - كما ذكرَ الدُّكتور محمَّد التَّكريتيُّ في كتابه « آفاقٌ بلا حُدود » - أنَّ النَّظَرَ أثناءَ الكلام إلى جهة الأعلى لليسار يعني أنَّ الإنسان يُعَبِّرُ عن صورٍ داخليَّة في الذَّاكرة ، وإنْ كان يتكلَّمُ وعَيْناهُ تزيغان لجهة اليمين إلى الأعلى ، هو يُنْشِئُ صوراً داخليَّةً ويُركِّبُها ، ولم يَسْبقْ له أنْ رآها ، أمَّا إنْ كانتْ عَيْناهُ تتَّجهان لجهةِ اليسار مُباشرةً ، فهو يستذكر كلامًا سَبَقَ وأنْ سَمِعَهُ ، فإنْ كان نَظَرُهُ لجِهَةِ اليمين مُباشرةً فهو يُنشِئُ كلامًا لم يسبقْ أنْ سمعهُ ، وإنْ نَظَرَ لجِهَةِ اليمينِ للأسفل ، فهو يتحدَّثُ عن إحْساسٍ داخليٍّ ، ومشاعرَ داخليَّة ، وإنْ نَظَرَ لجهة اليسارِ من الأسفلِ ، فهو يستمعُ إلى نفسِهِ ، ويُحَدِّثُها في داخلِهِ ، كَمَنْ يقرأُ مع نفسه مثلاً ، هذا في حالَةِ الإنسان العاديِّ ، أمَّا الإنسانُ الأعسر فهو عكس ما ذكرنا تمامًا .

وبناءً على هذه المعلومات يُمكنك - أخي المحاور - أنْ تُحَدِّدَ من أيِّ الأنماط يتحدَّثُ محاورك وهو يتحدَّثُ معك ، بل ويُمكنك من قراءة قصيدة ، أو قطْعَةٍ نثريَّةٍ أنْ تُحَدِّدَ النَّمطَ الَّذي كان يَعيشُهُ صاحبُها عند إعداده لها ، هل هو النَّمطُ

السَّمْعيُّ ، أو الصُّوريُّ من الذَّاكِرَة ، أو ممَّا يُنْشِئُهُ ، أو من الأحاسيس الدَّاخليَّة ؟ وذلك من خلال تأمُّل كلامه ، وتصنيفه في أحد الأصناف السَّابقة .

ولله درُّ ابن الأعرابيِّ حين قال :

العَيْنُ تُبْدِي الَّذي في نَفْسِ صاحِبِها ... مِنَ الشَّـنَاءَة [1] أو وُدٌّ إذا كَـانَا
إنَّ البَّـغيـضَ لَهُ عَـيْنٌ يَصـدُّ بهـا ... لا يسـتطيعُ لما في الصَّـدْرِ كـتْمَـانا
العَـيْنُ تَنْطِقُ والأَفْـواهُ سـاكـتـةٌ ... حتَّى تَرَى مِنَ ضَـميرِ القَلْبِ تِبْـيانا [2]

[٢] الحوار بالوَجْه :

كما يستطيع الإنسان أن يُعَبِّرَ بعَيْنيه عمَّا يُريدُ ، ويستطيع أنْ يستكْشِفَ ما في نفوسِ الآخرين من خلال التَّأمُّلِ في نظراتِ عيونهم ، فإنَّه يستطيعُ - أيضًا - أنْ يفعلَ ذلك من خلال تأمُّلِ قَسَمَـاتِ الوَجْهِ ، سواءٌ أكان ذلك من بَشَرَةِ الوَجْهِ ، أو شكْلِ الشَّفَتين ، أو حال الخَدَّين ، أو الجَـبِيْن ، وتأمَّلْ معي قليلاً هذه الآيات الكريمة :

قال الله سبـحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النَّحْل : ٥٨] .

وقال : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ [الحَجّ : ٧٢] .

وقال: ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يُونُس: ٢٧] .

وعَلَيْهِ فـاعلَمْ - علَّمَني اللهُ وإيَّاك - أنَّ التجهُّمَ والعُـبُوسَ يُقيمـان الحواجزَ بينك وبين الآخـرين ؛ ولذَلك عليك أن تتـعلَّمَ كـيفَ تُسـيْطـرُ على أفكارك ومشاعرك ؛ ليكون عبُوسُكَ حينئذٍ مقصوراً ومُتَحَكِّمًا فيه ، ويُؤدِّي رسالةً مُحَدَّدةً

---

(١) الشَّناءة : البُغْض والكَراهيَة .
(٢) « روضة العقلاء » (ص١٠٤) .

في وقتها المناسب .

وأكثرُ مظاهرَ التَّجهُّم هو تقطيب الجَبِيْنِ ، وفلطَحَةَ الخَدَّيْنِ ، وتكشير الأسنان ، بالإضافة إلى لزم الشَّفَتَين ، وتقوُّس السُّفلى منهما مع جفافهما ، واسوداد البَشَرَة .

وأخيرًا لكي تكون مُحاورًا ناجحًا اتَّبِعْ الطَّريقة الآتية :

{ ١ } اجعل الابتسامَةَ رسولك إلى قُلوبِ الآخرينَ ، فهي مفتاحٌ لأبوابِ النفوسِ، كما أنَّها تجلب الرَّاحةَ والهُدُوءِ للمُبْتَسِمِ .

{ ٢ } عندما تشعر أنَّ الآذان قد أُغْلقَتْ أَمَامَكَ ، وتعطَّلَ استقبال حوارك ، فَعَطِّرِ الجوَّ بنُكْتَة (*)، يتلوها ابتسامَةٌ .

{ ٣ } حَذَارِ من الابتسامَةِ السَّاخِرَةِ أو البارِدَةِ ؛ فهي تَحُولُ بين الآخرين وبين الثِّقَة فيك .

{ ٤ } حاول التَّعرُّف على ما في نفسِ الآخر من خلالِ رَصْدِ ابتسامته ، ومُلاحَظَة جَبِينه ، وحركات عَينيه .

{ ٥ } حاولْ أنْ تُعَوِّدَ نفسكَ على أنْ تكونَ ابتسامتك وسيلةً لإبلاغِ حوارك كما تُريدُ ، وإنْ كانت مشاعرُكَ خلافَ ذلك .

{ ٦ } عَوِّدْ نفسَكَ على الاستمتاعِ بالطَّرائفِ المُضحكة ؛ لتتعوَّد على الضَّحْكِ أحيانًا .

[٣] الحوارُ بأعضاءِ الجَسَدِ الأُخْرى :

كما أنَّ الوَجْهَ يُعبِّرُ عمَّا في النَّفْسِ ، فإنَّ حركات اليدين ، والقدمين ، وحركات الكتفين ، وكيفيَّة الجُلوسِ أو المشي تُعَبِّرُ عمَّا في نفسِ الإنسانِ ،

(*) واحذرْ ألا تنطق إلا صدقًا ، فإن في هذا مزلق خطير .

وتُعْطي تقريرًا دقيقًا عن حالته النَّفسيَّة .

ومن صور التَّعبيرِ باليدين الآتي :

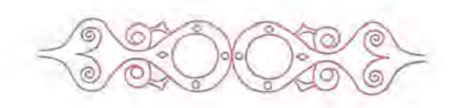
{ ١ } عندما تُلاحظُ إنسانًا وضع يديه وراءَ ظَهْرِهِ مُتـشابكين ، فهذا يعني شُعُورَه بالعَجْزِ ، أو عَدَمَ الثِّقَة بالآخرين .

{ ٢ } أمَّا عندما يضع الإنســانُ يديه مُتشابكتين أمامَـهُ أثناءَ الجلوسِ ، فهذا يعني شعورَهُ بالثِّقَةِ المفرطَةِ في النَّفسِ ، واللاَّمُبالاةَ بالآخرين .

{ ٣ } إشارة اليدين والأصــابع المتوافقة مع الكلامِ تزيدُ الكلام وضُوحًـا ، وكما قالت العربُ : « رُبَّ إشارةٍ أَبْلَغُ من عبارةٍ » .

{ ٤ } لاحِظْ حركـات أقْدام الآخـرين أثناءَ الحوار معــهم ؛ فهي تُعَـبِّرُ عـمَّا في نُفوســهم ، وتَحكَّم أنت في حركات قـدميك أثناءَ حوارك ، مـا لم تُقَرِّرْ إرسالَ رسالةٍ من خلال هذه الحركة .

{ ٥ } هَزُّ الكتفين للأعلى بصــورةٍ سريعَةٍ يعني التَّجاهُلَ واللاَّمُــبالاةَ ، أو الجَهْلَ بالشَّيْءِ والحيرةَ حِيَالَهُ .



محاورة الصغار

الأطفال نعمة امتنَّ اللهُ بها علينا ، فهم زينة الحياة الدُّنيا ، ولابُدَّ لنا أنْ نهتمَّ بهم ، ونُشاركهم أفكارهم ومشاعرهم ، ونُصَوِّب لهم الأفكار الحسنة .

قال سابق البربري:

قَـدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَحْدَاثَ في مَـهَلٍ ... وليـسَ يَنْفَعُ عِـنْدَ الكِبْـرَةِ الأَدَبُ

إنَّ الغُـصُونَ إِذَا قَـوَّمْتَهـا اعتَـدَلَتْ ... وَلَنْ تَلِيْنَ - إِذَا قوَّمْتَـها- الخَشَبُ (١)

اعلم - أخي باركَ اللهُ فـيك - أنَّ لمحـاورة المربِّي صغـارَهُ فـائدَةً عُظْمَى ، وللحوارِ الهادئ معهـم أهميَّةً كُبْرَى ، ولتعليمهم آدابُ الحوار وطـرائقه وأساليبه ثمرات جُلَّى ، فبـذلك ينمو عقلُ الصَّغـير ، وتتَّسعُ مداركُـهُ ، ويزداد رغبةً في الكشْفِ عن حقـائق الأمور ، ومُجْرَيات الأحـداث ، كما أنَّ ذلك يُكْسبـه الثِّقَةَ بنفسه ، ويُوَرِّثُهُ الجُرأَةَ والشَّجاعة الأدبيَّـة ، ويُشْعره بالسَّعادَة والطُّمَأْنينة ، والقوَّة والاعتبار ، ممَّا يُعدُّه للبناءِ والعطاءِ ، ويُؤَهِّلُهُ لأن يعيـش كريمًا شجاعًا ، صريحًا في حديثه ، جريئًا في طرحِ آرائه .

أثْبَتَتْ دراسَةٌ بريطانيَّةٌ حديثةٌ أنَّ الآباء الذين يُخَصِّصون خمسَ دقائق - على الأقلِّ - يوميّاً للحوار مـع أبنائهم - يتمتَّعُ أبناؤهم في المستقبل بدرجـةٍ كبيرةٍ من الثِّقَة بالنَّفسِ ، والقُـدْرَة على الابتكارِ والإبداعِ ، وبذلك فهم يكونون من أفضَلِ الرِّجال في المجتمعِ .

أُجْرِيَت الدِّراسَـة في جامعة أوكـسفورد على (١٥٠٠٠) شـخصٍ ، تتراوح أعـمـارهم بين (١٣ - ١٩) عامًـا ، وقـد أثبـتت الدِّراسـة أنَّ الأبناء الذين لا

---

(١) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٣) .

يتحاورون مع آبائهم هم الأقلُّ ثقةً بالنَّفسِ[(١)] .

ومما ينشد لخلف الأحمر :

خَـيْـرُ مَـا ورَّثَ الرِّجَالُ بَنِيهِمْ ... أَدَبٌ صَـالِحٌ وحُسْنُ ثَنَاءِ
هُوَ خَـيْـرٌ من الدَّنانيرِ والأَوْ ... راقِ[(٢)] في يومِ شِدَّةٍ وَرَخَاءِ
تِلْكَ تَفْنَى والدِّينُ والأَدَبُ الصَّا ... لِحُ لا يَفْنَيَانِ حَتَّى اللِّقَاءِ[(٣)]
إِنْ تَأَدَّبْتَ -يا بُنَيَّ- صَغِيرًا ... كُنْتَ يَوْمًا تُعَدُّ في الكُبَرَاءِ
وَإِذَا مَا أَضَعْتَ نَفْسَكَ أُلْفِيْـ ... ـتَ كبيرًا في زُمْرَةِ الغَوْغَاءِ
لَيْسَ عَطْفِي للعُودِ إنْ كانَ رَطْبًا ... وَإِذَا كَانَ يابِسًا بِسَوَاءِ[(٤)]

ومع أهميَّة هذا الأمر وعظيم فائدته إلاَّ أنَّ هناك تَقْصيرًا كبيرًا فيه ، فكثيرٌ من النَّاس لا يَأْبَهُ لمحاورة الصِّغار ، ولا يُلْقي بالاً لتعليمهم آداب الحوار وأساليبه ، تراه لا يُصْغي إليهم إذا تحدَّثوا ، ولا يُجيبُ على أسئلَتهم إذا سألوا ، بل رُبَّما كذَّبهم إذا أخبروا ، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلَّموا ، وهذا من الخَلَلِ الفادحِ ، والتَّقصيرِ الكبير .

فهذا الصَّنيع ممَّا يُؤكِّدُ الخوفَ في نفسِ الصَّغير ، كما يُورثه التَّردُّدَ ، والخَجَلَ الشَّديدَ ، وفقدانَ الثِّقَة بالنَّفْسِ ، بل قد يجرُّ عليه أضرارًا تُؤَثِّرُ على مُسْتَقْبَلِه ومسيرَة حياته ، فقد يعجز عن الكلام ، وقد يُصاب بعُيُوبِ النُّطْقِ : من فَأْفَأَة ، وتَمْتَمَة ، ونحوها ، وقد يُصاب بمرضٍ آخر ، وقد يُعاني من مشكلة فيزداد مرضُهُ ، وتتضاعف مشكلاته بسبب عجزه عن الإخبار عمَّا أصابه وألمَّ

(١) مجلَّة الأسرة العدد (٧٠) ، ٢٠ محرَّم ١٤٢٠ هـ (ص٧٤) .
(٢) **الأوراق** : جمع ورق - مثلثة - وهي الدَّراهم المضروبة من الفضَّة .
(٣) **يوم اللِّقَاءَ** : أي يوم لقاء الله ، وهو يوم القيامة .
(٤) « جواهر الأدب » (ص٧٠٦ - ٧٠٧) .

به، وقد يُظْلم وتتوجَّهُ له تُهمَةٌ ، فيُؤخَذ بها مع أنَّه بريءٌ منها لعجزِه عن الدِّفاع عن نفسِه ، وعن نفي ما عُلِّقَ وأُلْصِقَ به ، وقد تضطرُّه الحالُ لأنْ يتكلَّمَ أمام زُملائه ، فيرى أنَّ الألفاظَ لا تُسْعِفُهُ ، فيشعر بالنَّقْصِ خصوصًا إذا وجَدَ مَنْ يسْخَرِ منه [١] .

قال أبو عبد الله نفطوية عن نفسه :

أَرَاني أَنْسَى مَا تَعَلَّمْتُ في الكِبَرِ ... وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ في الصِّغَرْ

ومَا العِلْمُ إلاَّ بالتَّعَلُّمِ في الصِّبَا ... ومَا الحِلْمُ إلاَّ بالتَّحَلُّمِ في الكِبَرْ

وَلَوْ فُلِقَ القَلْبُ المُعَلَّمُ في الصِّبَا ... لأُلْفِيَ فيْه العِلْمُ كالنَّقْشِ في الحَجَرْ

ومَا العِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إلاَّ تَعَسُّفٌ ... إذَا كَلَّ[٢] قَلْبُ المَرْءِ والسَّمْعُ والبَصَرْ

ومَا المَرْءُ إلاَّ اثنانِ: عَقْلٌ ومَنْطِقٌ ... فَمَنْ فَاتَهُ هَذَا وهَذَا فَقَدْ دَمَرْ[٣] [٤]

فَيَجْمل بك - أخي الحبيب - سُؤال صغارك واستشارتهم ؛ كي يتكلَّموا ، فتسألهم بعض الأسئلَة اليسيرة ، فتقول - على سبيل المثال - لصغيرك : مَنْ ربُّكَ ؟ ، وما دِينُكَ ؟ ، ومَنْ نَبِيُّكَ ؟ ، أَوْ أنْ تسألهُ عَنْ بعض الأمور التي يراها ، أو يعلمها من خلال حياتِه اليوميَّة أو الدِّراسيَّة .

قال أمية بن أبي الصلت :

لا يَذْهَبَنَّ بِكَ التَّفْرِيطُ مُنْتَظِرًا ... طولُ الأَنَاةِ ولا يَطْمَعْ بك العجل

فَقَدْ يَزِيدُ السُّؤَالُ المَرْءَ تَجْرِبَةً ... ويستريحُ إلى الأَخْبارِ مَنْ يَسَل [٥]

---

(١) انظر « أخطاء في أدب المحادثة » (ص٤١-٤٤).
(٢) كَلَّ : تَعِبَ .
(٣) دَمَرَ : هَلَكَ .
(٤) « جامع بيان العلم » (١/٨٥) .
(٥) المرجع السابق (١/٨٨) .

كذلك يجمل بك في هذا الشَّأن استشارةُ الصَّغير في بعض الأمور اليسيرَة مِنْ بابِ شحذ قريحته ، واستخراجِ ما لديه من أفكارٍ ، وإعانته على التَّعبيرِ عنها : كأنْ تسأله عن رأيه في أثاث المنزل ، أو لون السَّيَّارَة ، أو عن موعد الرِّحْلَة ، أو مكانها ، أو نحو ذلك ، ثُمَّ تُوازن بين رأي صغيرك وآراء إخوانه وزملائه ، ثُمَّ تطلبُ من كُلِّ واحدٍ أنْ يُبْدِيَ مصوغاته ، وأسباب اختياره لهذا الرَّأي أو ذاك ، فكم في مثل هذه الأمور اليسيرة من الأثرِ العَظيم ، والثَّمرات الجليلة في تدريب الصَّغير ، وتعويد أدب الحوار .

قال الشاعر :

إنَّ الحَدَاثَةَ لا تُقصِّرُ بالفَتَى المَرْزُوْق ذِهْنا
لكنْ تُذَكِّي عَقْلَهُ فَيَفُوقُ أَكْبَرَ مِنْهُ سِنَّا [١]

ثُمَّ إنَّ الحوارَ مع الصِّغار يقفز بالمربِّين إلى قمَّة التَّربية والبناء ، فبسبب ذلك ينطلقُ الطِّفل ، ويستطيع التَّعْبير عن آرائه ، والمُطالبة بحقوقه ، فينشأ حُرّاً كريمًا أبيّاً ، فيكون في المستقبل ذا حضورٍ مميَّزٍ ، ويكون لآرائه صدىً في النُّفوسِ ؛ لأنَّه تربَّى مُنْذُ الصِّغَر على آداب الحوار وطرائقه ، كما أنَّ فيه تدريبًا للصِّغار على حُسْنِ الاستماع ، والقُدْرَة على ترتيب الأفكار ، ممَّا يزيدهم قربًا ومحبَّةً لوالديهم ومُربِّيهم .

هذا وقد وُجِدَ أنَّ الأطفال الأذكياء يتكلمون أسرعَ من الأطفال الأقلِّ ذكاءً ، ووُجِدَ أنَّ الأطفال المحرومين عاطفياً ، والذين لا يُكلِّمهم آباؤهم وأمَّهاتُهم إلاَّ نادرًا أنَّهم يكونون أقلَّ قُدْرَةً على الكلامِ من الَّذينَ يُلاطفهم آباؤهم ، وليس المقصودُ فيما مضى أنْ يُسْرِفَ في إعطاءِ الحريَّة المطلقة للصغير ، فَيُلْقي له الحَبْلَ

---

(١) المرجع السَّابق (١/ ٨٥) .

على الغارب ، ويفتح له الباب على مصراعَيْه ، فيسمح له بالصَّفاقَةِ والوقاحة ، ويَرْضَى عن تَطاوله وإساءته زاعمًا أنَّ ذلك من بابِ إعطائهِ الفرصةَ ، وتدريبه على الكلام ، لا ليس الأمرُ كذلك ، فالرِّضى عن سفاهته وتطاوله يُغْريه بقلَّةِ الأدبِ ، وإنَّما المقصود أنْ يُؤخذ بيده إلى الآداب المرعيَّة ، وأَنْ يُدَرَّبَ على الكلامِ في حُدودِ الأدب واللَّباقة بعيدًا عن الإسفاف والصَّفاقَة [١] .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

أَحْسِنْ مُحَاوَرَةَ الصَّغِيرِ فَإِنَّهُ ... لِيَرَاكَ قُدْوَتَهُ بِكُلِّ طَرِيقِ
فَإِذَا نَطَقْتَ فكُنْ مُتَوَدِّدًا ... وَإِذَا صَحِبْتَ فكُنْ أَحَنَّ صَدِيقِ

واعلمْ - أخي الحبيب - أنَّ الطِّين يُطْبَعُ وهو رطبٌ ، والغلام يُطيع مُؤَدِّبَهُ ، لكن قَلَّ مَنْ يتفطَّنُ لذلك .

قال الشاعر :

إنَّ الغُلامَ مُطِيع مَنْ يُؤَدِّبُهُ ... ولا يُطِيعُكَ ذُو شَيْبٍ بتأْديبِ [٢]

وقال آخرُ :

يُقَوَّمُ بالشآفِ العُودُ لَدْنًا [٣] ... ولا يتقَوَّمُ العُودُ الصَّلِيبُ [٤]

قال أحدُ المربِّين : « قليلٌ من المربِّين هم الذين يُحاورون أفرادهم في جوانب الارتقاء بهم ، وكيفيَّة مُعالجة القُصُور لديهم ، ولهذا يجب على المربِّي أن يُشْرِكَ الفرد في علاج مشاكله ، وجوانب الضَّعْفِ فيه ، والأمور التي يجب أن يغرسها

---

(١) انظرْ « أخطاء في أدب المحادثة » (ص٤١-٤٤) ، و« تربية الأطفال في الإسلام » (ص٣٢٣) ، و«مشكلات تربويَّة » (ص٣٧-٤١) ، فقد استفدتُ منهما في هذا الباب .
(٢) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٣) .
(٣) لَدْنًا : لَيِّنًا.
(٤) « جامع بيان العلم » (١/ ٨٣) .

في نفسه ، ويجعله شريكًا في الحـوار ؛ إذ عليه مرتكز الارتقاء ، وبدونه تُصْبِح التَّربية حِبْـرًا على وَرَقٍ ، لا تُقَدِّم ، وقَدْ تُؤَخِّرُ ، ويتساءل كـثيرٌ من المربِّين عن سبب تأخير بعض الأفراد في التَّربية ، والإصْرار على جوانب النَّقصِ .

قد يكون أحد الأسباب هو انقطاع حَـبْلِ المحاورة ، والنِّقاش العَقْلِّي الهادئ بأسـباب الضَّـعْفِ ، وجوانب النَّقص ، فـالحوار يضع الفـرد أمام الأمـر الواقع بصورةٍ جليلةٍ واضحةٍ ، وقد تتفتَّح الآفاق ، فيستفيد منها كلا الطَّرفين : المُرَبِّي، والفرد » .

ولهذا كان حريّاً بالمربِّين من والدَيْنِ ومُعَـلِّمين وغيرهم أنْ يُعْنُوا بهذا الجانب وأنْ يَرْعَوْهُ حقَّ رعايته ، فيحسُنُ بهم إذا خاطبهم الصِّغارُ أنْ يُقْبلوا عليهم ، وأنْ يُصْغُوا إلى حديثـهم ، وأنْ يَنْأَوْا عن كُلِّ ما يُشْعِرُ باحتـقار الصِّغار وازدرائهم ، كما يحـسُنُ أنْ يُشْعِرَ الصَّـغير بأهميَّة حـديثه ، وأنْ يُظهرَ الإعجـابَ والاهتمام وحُسْنَ المتابعة ، وذلك بإصدار بعض الأصوات أو الحركات التي تَنمُّ عن ذلك : كأن يقول الكبير وهو يستمع لصغيره : حَسَنٌ ، جميلٌ ، رائعٌ ، نَعَمْ ، وما إلى ذلك ، أو أن يقوم بالهَمْهَمة ، أو تحريك الرَّأس تصعيدًا أو تصويبًا [1] .

ومن اللطائف :

أنّ ابن الماجشون - رحمه الله - لَمَّا قَـدِمَ على المنذر بن عبد الله وهو حديثُ السِّنِّ ، فلمَّا حاوره اهتزَّ إليه المُنذر دُونَ غيره ؛ لما رأى من فصاحته ، وقال له : مَنْ أنْتَ ؟ ، فقال له ابن الماجشون : عبـدُ الملكِ بن عبد العزيز بن أبي سَلَمَةَ ، فقال : اطلبِ العِلْمَ ؛ فإنَّ معك حِذَاءَكَ وسِقَاءَكَ [2] .

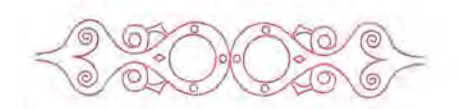
---

(١) انظرْ « أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة » (٤٢) .
(٢) « جامع بيان العلم » (٨٦/١) .

فكانت تلك المقدِّمة الرَّائعة سببًا - بعد توفيق الله - في جعل ابن الماجشون أحد أعلام الدُّنيا .

قال صالح بن عبد القدوس :

وَإِنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ في الصِّبا ... كالعُودِ يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورَقًا نَاضِرًا ... بَعْدَ الذي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ
والشَّيْخُ لا يَتْرُكُ أَخْلاقَهُ ... حَتَّى يُوَارَى(١) في ثَرَى(٢) رَمْسِهِ(٣)
وَإِذَا ارْعَوَى(٤) عَادَ إِلَى جَهْلِهِ ... كَذِي الضَّنَى(٥) عَادَ إِلَى نَكْسِهِ(٦)



(١) **يُوارى** : يُغَيَّبُ شَخْصُهُ .
(٢) **الثرى** : التراب .
(٣) **الرمس** : القبر ، جمعه أَرْماسٌ .
(٤) **ارْعَوَى** : رجعَ رجوعًا حسنًا إلَى ما ينبغي له .
(٥) **الضنى** : المرض المخامر الذي كُلَّما ظَنَّ الإنسانُ بُرأَهُ نكس .
(٦) « جامع بيان العلم » (١/٨٦) .

لا تحاور هؤلاء

ثمَّة أصناف من النَّاس لا تَحْسُن مُناظرتهم ، ولا تُجْـدي مجادلتهم ، أذكر منها :

[١] الجاهل :

لا شكَّ أنَّك متى حاورت جاهلاً ، ظنَّ - لجَـهْلِه ـ أنَّ الحقَّ معه ، وحصل له ضررٌ تكون أنت سببه .

روى الخطيبُ البغداديُّ عن أبي قلابة قال : « لا تُحَدِّث الحديثَ مَنْ لا يعرفُهُ ؛ فَإِنَّ مَنْ لا يعرفُهُ يضرُّهُ ولا ينفعه » [١] .

وقال صالحُ بن عبد القدُّوس - رحمه الله - :

وَإِنَّ عنَـاءً أَنْ تُفْـهِمَ جَـاهلاً ... فَيَحْـسَبُ - جاهلاً - أَنَّهُ منكَ أَفْهَمُ
مَـتَى يَبْلُغُ البُـنْيَـانُ يَـوْمًـا تمَامَـهُ ... إِذَا كُنْتَ تَبْنِيـه وَغَـيْـرُكَ يَهْـدمُ ؟!
مَـتَى يَنْتَـهِي عَـنْ سَـيِّئٍ مَنْ أَتَى بِهِ ... إِذَا لَمْ يكُنْ مِنْـهُ عَلَيْـهِ تَنَدُّمُ ؟! [٢]

وقال أبو الطيِّب :

وَمِنَ البَلِيَّـةِ عَذْلُ [٣] مَنْ لا يَرْعَوِي ... عَنْ غَـيِّهِ [٤] وخِطَابُ مَنْ لا يَفْـهَمُ

فحَـريٌّ بك - أخي المحاور - الإمـساك عن مُناظَرَةِ الجاهل ؛ فـإنَّ مناظرتَهُ وَبَالٌ بكُلِّ حالٍ .

قال أبو عليٍّ السكونيُّ : « ولا يُناظر إلاَّ أهلَ التَّقـدُّم في العلوم ؛ إذْ مَنْ ناظَرَ

---

(١) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » (٧٣٠ ، ١/٣٢٨) .
(٢) « جامع بيان العلم » (١/١٠٩) .
(٣) العَذْل : الملامة .
(٤) الغَيّ : الجَهْلُ والضَّلال .

مَنْ ليس بشيء ، وكان خاسرًا في كلا الطَّرفين ؛ لأنَّه إنْ ظَهَرَ لم يظهر على شيءٍ ، وإنْ ظُهِر عليه لا بشيءٍ » [١] .

قال أبو العبَّاس الناشيء :

وَإِذَا بُلِيتُ بِجَاهِلٍ مُتَحَامِلٍ يَجِدُ المحَالَ مِنَ الأُمُورِ صَوَابَا
أَوْلَيْتُهُ مِنِّي السُّكُوتَ ، وربَّمَا كَانَ السُّكُوتُ عَلَى الجوابِ جَوَابَا [٢]

والجاهل إذا تعالم ، وناظَرَ غيره - لاسيَّما أهل البدع أو الكفَّار - فإنَّ عواقبه وخيمةٌ ، وشروره كبيرةٌ ، فقد يُضِلُّ نفسه ؛ لما يَرَى مِنْ قهر أولئك له ، ويكون ذلك سببًا في فتنة أولئكَ عن الدِّين القويم ؛ لظَنِّهم أنَّ ما قام به ذلك المتعالم هو غاية دين المسلمين [٣] .

وكان الولاة إذا رَأَوْا جاهلاً يستشرف لمناظرَةِ العلماء عَزَّروه بما يمنعه من ذلك ؛ لأنَّ تجاسُرَ الجاهل على المناظرة الحامل له تهجين العالم وتنقُّصه ، لا تبيُّن الحقِّ ؛ فالجاهل لا عِلْمَ عنده يُحقُّ به حقًّا ، أو يُبْطِلُ به باطلاً [٤] .

قال زياد بن أبيه : « لا يأتيني عالم بجاهل لاحَاهُ في علمه ليهجِّنه إلاَّ عاقبته ؛ فإنَّما النَّاسُ بأعلامِهِم ، وذوي أسنانهم » [٥] .

وأخيرًا قال القحطانيُّ :

احْذَرْ مُجَادَلَةَ الجَاهِلِ ؛ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الشَّحْنَاءِ والشَّنَآنِ [٦] [٧]

---

(١) « عيُون المناظَرات » (ص٢٧٩) .
(٢) « بهجة المجالس » لابن عبد البَرِّ (٢/ ٤٣١) .
(٣) « أُصول الجدل والمناظرة » (ص٢٣٢) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٢٣٣) .
(٥) « الفاضل في صفة الأدب الكامل » (ص٤٩) .
(٦) الشنَّآن : البُغض والكُره .
(٧) « النُّونيَّة » (ص٣٩) .

[٢] المُعْرِض عن الاستماع إليك :

لتكنْ عنايةُ المحاور بمراعاةِ أحوالِ المحاورين ، وكذلك ضرورة توافر رغبة النَّاس في الحوار عند التَّحدُّث إليهم ، فعلى المحاور التَّوقُّف عن الحوار عند انصراف قلوب المخاطبين .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « حَدِّثْ النَّاسَ ما حَدَّجوك بأبصارهم (١)، وأقْبَلَتْ عليك قلوبُهُمْ ، فإذا انصرفتْ عنك قلوبهم فلا تُحدِّثْهُمْ » قيل : « وما علامة ذلك ؟ » ، قال : « إذا التفتَ بعضُهم إلى بعضٍ ، ورأيتَهُم يتثاءبون ، فلا تُحدِّثْهُمْ » (٢) .

وعنه أيضًا قال : « إنَّ للقلوب نشاطًا وإقبالاً ، وإنَّ لها توليةً وإدبارًا ؛ فحدِّثوا النَّاسَ ما أقبلوا عليكم » (٣) .

وأوصى عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما مولاه عِكْرِمَةَ بمراعاة نشاط النَّاس وإقبالهم عند التَّحدُّث إليهم .

فعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « حَدِّث النَّاسَ كُلَّ جُمُعَة مَرَّةً ، فإنْ أَبَيْتَ فمرَّتَين ، فإنْ أكْثرتَ فثلاثَ مرَّات ، ولا تُملَّ النَّاسَ هذا القرآن ، فلا أُلْفِيَنَّكَ تأتي القومَ وهم في حديث مِنْ حَدِيثِهم ، فتقصُّ عليهم ، فتقطعُ عليهم حديثَهُمْ فَتُمِلُّهُمْ ، ولكن أنصتْ ، فإذا أمروكَ فحدِّثْهُم وهم يَشْتَهونَهُ ، وانظُرْ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاء فاجْتَنِبْهُ ؛ فإنِّي عَهِدْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتنابَ » (٤) .

---

(١) أي رموك بها ، يُريدُ حَدِّثهم ماداموا يشتهون حديثك ، فإذا أعْرَضوا عَنْكَ فاسكتْ .
(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (١/ ٣١٤) .
(٣) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٦٨) .
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٣٧) .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - معلقًا على وصية ابن عباس رضي الله عنهما : « وفيه كراهيَةُ التَّحدُّث عِنْدَ مَنْ لا يُقْبِلُ عليه ، والنَّهيُ عن قَطْعِ حديث غيره ، وأنَّهُ لا ينبغي نشر العلم عند مَنْ لا يَحْرِصُ عليه ، ويُحَدِّثُ مَنْ يَشْتَهِي بسماعِهِ ؛ لأنَّه أجْدَرُ أنْ يَنْتَفِعَ بِهِ » (١) .

وفي هذا المعنى يقول الأخ عبد الكريم العماد - حفظه الله - :

إذَا مَا رأيتَ المَرْءَ أَعْطَاكَ سَمْعَهُ ... وَعَيْنَيْه مُهْتَمّاً وثَلَّثَ بالقَلْبِ
فَحَدِّثْهُ يَفْهَمْ ، واستمعْ لحَدِيثِهِ ... وإلاَّ فَدَعْهُ فهو في عَالَمِ الغَيْبِ

وعن أبي هلال العسكري قال : سمعتُ الحسنَ يقولُ : « كان يُقَالُ : حَدِّث القومَ ما حملوا » ، قيل : « ما حملوا ؟ » قال : « ما نشطوا » (٢) .

وروى الخطيبُ البغداديُّ عن أبي خلدة قال : سمعتُ أبا العالية يقول : « حَدِّثْ القومَ ما حملوا » ، قيل : « ما حملوا ؟ » قال : « ما نشطوا » (٣) .

وبيَّنَ الخطيبُ البغداديُّ - رحمه الله - ضرورة توافر رغبة النَّاس عند التَّحدُّث إليهم بقوله : « حقُّ الفائدة ألاَّ تُسَاقَ إلاَّ إلى مُبْتغيها ، ولا تُعْرَضُ إلاَّ على الرَّاغب فيها ، فإنْ رأى المحدِّثُ الفُتورَ من المستمع فليسكتْ ؛ فإنَّ بعضُ الأدباءِ قال : نشاطُ القائلِ على قَدْرِ فَهْمِ المستمعِ » (٤) .

وقال أبو عباد : « ينبغي للمُحَدِّث إذا أنكَرَ من السَّامع أنْ يستفهمهُ عن معنى حديثه ، فإنْ وَجَدَهُ قد أخْلَصَ له الاستماعَ ، أتمَّ له الحديثَ ، وإنْ كان لاهيًا عنه حَرَمَهُ حسْنَ الاستقبَالِ عليه، ونَفْعَ المؤانسَةِ، وعرَّفَهُ بسوءِ الاستماعِ والتَّقصيرِ

---

(١) فتح الباري (١/ ١٣٩) .
(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٦٨) .
(٣) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » (١/ ٣٣١) .
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٣٠) .

في حقِّ المحدِّث » (١) .

قال الشاعر :

مَنْ لِي بِإِنْسانٍ إذا خاصَمْتُهُ ... وَجَهِلْتُ كانَ الحِلْمُ رَدَّ جَوابِهِ
وَإِذا انصرفتُ إِلَى المدامِ شربتُ مِنْ ... أَخْلاقِهِ وسكرْتُ مِنْ آدابِهِ
وَتَرَاهُ يُصْغي لِلْحَديثِ بِسَمْعِهِ ... وبِقَلْبِهِ ، ولَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ ؟!

وقال البيحانيُّ - رحمه الله - : « إذا رأيتَ مِنْ جَليسِكَ الإعراضَ عنك ، أو الانشغالَ بأمرٍ آخَرَ ، فلا تُكَلِّفْهُ الاستماعَ إليك » (٢) .

وقال أحَدُهُمْ :

يَسْتَوجِبُ الصَّفْعَ في الدُّنيا ثَمَانِيَةٌ ... لا لَوْمَ في واحِدٍ منهم إِذَا صُفِعَا

ثمّ ذكرَ منهم

ومُتْحِفٌ بحديثٍ غَيْرَ سَامِعِهِ ... وداخلٌ في حديثِ اثنينِ مُنْدَفِعا (٣)

[٣] المبتدع :

وهذا الصِّنْف لا يُوفَّق إليه إلاَّ مَنْ آتاه الله الحكمة والبصيرَة بحالِ البدع وأهلها ؛ فلابُدَّ من التَّفقُّهِ في هذا المقام ، فكم من طالبِ علمٍ استعمل الحوار مع مَنْ هذا حاله فلم يحصدْ غيرَ الأحقادِ والشَّنَآن .

وقد كان السَّلَف يَنْهَوْنَ عن مُناظرةِ صاحب البِدْعَة المقيم على بدعته ، ويُمسكون عن مناظرته ، وتوالَتْ كلماتُ السَّلَف تحذيرًا وتنبيهًا من محاورتهم ، وسماع كلامهم .

---

(١) « زهرة الأدب » (١/ ١٩٥) .
(٢) « إصلاح المجتمع » (ص ٢٦٠) .
(٣) المرجع السابق (ص ٢٦٠) .

قال أبو سليمان الصابوني عن أئمة السنة :

« ويُبْغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدِّين ما ليس منه ، ولا يُحبُّونهم، ولا يصحبونهم ، ولا يسمعـون كلامهم ، ولا يُجالسونهم ، ولا يُجادلونهم في الدِّين ولا يُناظرونـهم ، ويَرَوْنَ صـون آذانـهم عن سـمـاع أباطـيلهم ، التي إذا مـرَّتْ بالآذان ، ومـرَّتْ في القلـوب ضَـرَّتْ ، وجـرَّتْ إليـهـا من الوسـاوس والخطرات الفـاسدة مـا جرَّتْ ، وفيـه أنزل الله عزَّ وجلَّ قـوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ . { الأنعام : ٦٨ } »[(١)] .

وعن سعيد بن عامر قال : « سمعتُ جدَّتي أسماءَ تُحَدِّثُ قالت : دَخَلَ رجلان على محمَّد بن سيرينَ من أهل الأهواء ، فقالا : يا أبا بكرٍ ، نُحَدِّثك بحديثٍ؟ قال : لا ، قالا : فنقرأ عليك آيةً من كتـاب الله ؟ قال : لا ، لَتَقُومانِّ عنِّي ، أو لأَقُومنَّ »[(٢)] .

أسبابُ زَجْرِ السَّلَفِ عن مُناظَرَة المبْتَدِعَةِ :

أصول تلك الأسباب ثلاثة :

أوَّلاً : أنَّه لا تُرجي أوبتهم عن مذهبهم إلي حضيرة الحقِّ إذا ظهر لهم الحقُّ في غيره :

عَلَّلَ السَّلَف الصَّالح نَهْـيَهُمْ عن مُناظَرَة المبتدعة بأنَّـه لا يُطْمَع في رجوعهم عن بدعتهم بالمناظرة ، فمناظرتهم شغلٌ لا فائدة فيه ، ومآلها إلى المراء .

قال أبو القاسم الأصبهانيُّ : « قـالَ عُلماءُ السَّلَف : مـا وجدْنا أحـدًا من

---

(١) « عقيدة السَّلف أصحاب الحديث » (رقم ١٦١ / ص ١٠٠ - ١٠١).
(٢) أخرَجَهُ الدَّارميُّ (١/ ١٠٩)، واللالكائيُّ (٢٤٢).

المتكلِّمين في ماضي الأزمان إلى يومنا هذا رَجَعَ إلى قول خَصْمِه ، ولا انتقَلَ عن مذهبه إلى مذهَب مُناظره ، فدلَّ أنَّهم اشتغلوا بما تركه خيرٌ من الاشتغال به» (١) .

وقال الإمام العزُّ بن عبد السّلام واصفًا الحوارَ مع أهلِ البدع : « إنَّ البحثَ معهم ضائعٌ ، مُفْضٍ إلى التَّقاطُعِ والتَّدابُر من غَيْرِ فائدَة يجْنيها ، وما رأيتُ أحدًا رَجَعَ عن مذهبه إذا ظَهَرَ له الحقُّ في غيره ، بل يُصرُّ عَلَيه مع عِلْمِه بضعفِه وبُعْده » (٢) .

فإنْ قُلْت : إنَّ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ناظر الخوارج فَرَجَعَ منهم أَلْفَانِ .

فالجَوَابَ : أنَّ هناك فرقٌ بين حديث عَهْدٍ ببدعةٍ ، وبين المقيم على البدعة ، فالمقيم على البدعة قد اعتقدَ البدعةَ التي انتحلها اعتقادًا رسخَ فيه ، فمثل هذا لا يُطْمَعَ في رجوعه إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ ، وأمَّا مَنْ كان حديث عَهْدٍ ببدعةٍ ، فمثل هذا يُرْجَى رجُوعُهُ ، إنْ كان الرَّجلُ فيه إنصافٌ وذكاءٌ .

وهذا الإمام أحمد يُقَرِّر أنَّ مَنِ انتَحَلَ ضلالةً ، وشَابَ عليها أنَّهُ لا يكادُ ينزع عنها ، فقال - رحمه اللهُ - : « الشَّيْخُ لا يكادُ يُسْلِمُ ، والشَّابُّ أقْربُ إلى الإسلام » (٣) .

ويُقَرِّر الإمام الشَّافعيُّ - رحمه الله - هذا ، ويقول : « ما ناظرتُ أحدًا علمتُ أنَّه مقيمٌ على بدعةٍ » (٤) .

قال البيهقيُّ مُعلقًا على كلام الإمام الشَّافعيِّ - رحمه الله - : « وهذا لأنَّ المقيمَ

---

(١) « الحجَّة في بيان المحجة » (١/ ١٠٠ - ١٠١) .
(٢) « قواعد الأحكام » (٢/ ١٣٥) بتصرُّف .
(٣) « المُغني » لابن قدامةَ (٨/ ٤٧٧) .
(٤) « مناقب الشَّافعيِّ » للبيهقيِّ (١/ ١٧٥) .

على البدعة قلَّما يرجع بالمناظَرَة عن بدعتــه ، وإنَّما كان يُناظرُ مَنْ يَرْجو رجوعَهُ إلى الحقِّ إذا بيَّنه له » (١) (٢) .

وهذا الكلام من السَّلف فـي عدم رجـوع المقـيم عن بدعتــه هو الغــالب ، ولكن قد حــصلَ شذوذٌ في ذلك ، فربَّما رَجَعَ المـقيم على البدعَةِ عن بدعــتِهِ ، والشَّاذُّ يُحْفَظ ولا يُقاسُ عليه (٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذا أبو الحسن الأشـعريُّ نشأ في الاعــتزالِ أربعين عامًا يُــناظرُ عليه ، ثمَّ رجَعَ عن ذلك ، وصرَّح بتضليلِ المعــتزلة ، وبالغَ في الرَّدِّ عليهم » (٤) .

ثانيًا : إماتَة ذكرهم حتَّى لا يُعْرَفوا بين النَّاس فتشتهر بدعهم وشُبَهُهم :

إذا كان المبتدعــة مقيمون في بَلَد السُّنَّة ، والحقُّ ظَاهرٌ قــد عرفه المسلمون ، وجب الإمساكُ عن مُناظرتهم منعًا لظهورهم واشتــهار شبههم ؛ فإنَّهم إنْ ظهروا واشتهروا تضرَّر بذلك المسلمون - ولاسيَّما العامَّة الجهلة - أشدَّ الضرر .

قال الإمام مسلمٌ - رحمه الله - : « الإعراضُ عن القــول المُطَّرَحِ (٥) أَحْرَى لإماتته ، وإخماد ذكر قائله ، وأجدرُ ألاَّ يكونَ ذلك تنبيهًا للجُهَّال عليه » (٦) .

وقال الإمام اللالكائيّ : « فــمــا جَنِي على المسلمين جنايــة أعظم من مُناظرة المبتــدعة ، ولم يكــنْ قهرٌ ولا ذُلٌّ أعظــم ممَّا تركهم السَّلف على تلك الجــملة ، يموتون من الغيظ كَــمَدًا ودردًا ، ولا يجدون إلى إظهارِ بدعــتهم سبيــلاً ، حتَّى

---

(١) المرجع السَّابق (١/ ١٧٥) .
(٢) انظر « أُصول الجدل والمناظرة » (ص٢٣٨-٢٣٩) .
(٣) المرجع السَّابق (ص٢٤١) .
(٤) « نقض المنطق » (ص ٦٠) .
(٥) القول المُطَّرَح : المُبْعَد والمَرْميّ من اضطرح الشَّيءَ : أبْعَده ورماه .
(٦) مقدّمة الصحيح (ص٢٨) .

جاء المغـرورون ففتـحوا لهم إليهـا طريقًا ، وصاروا إلى هلاك الإسـلام دليلاً ، حتَّى كثُرَتْ بينهم المشاجـراتُ ، وظهرت دعوتُهم بالمناظرة ، وطرقتْ أسماعَ مَنْ لمْ يكنْ عرفها من الخاصَّة ، والعامَّـة ، حتَّى تقابلت الشُّبَهُ في الحجج ، وبلغوا من التَّدقيق في اللَّجج ، فصاروا أقرانًا [1] وأخْدانًا [2]،وعلى المداهمة خُلاَّنًا[3] وإخـوانًا ، بعدْ أنْ كـانوا في دينِ الله أعـداءً وأضـدادًا ، وفي الهجْـرَةِ في الله أعـوانًا، يُكَفِّرونهم في وجـوههم عِيـانًا ، ويلعنونهم جِـهارًا ، وشـتَّان مـا بينَ المنزلتين ، وهَيْهاتَ ما بينَ المقامين » [4] .

وقال العلاَّمة بـكر أبو زيد : « نصيحتي لكُلِّ مسلمٍ سَلِمَ من فتنَـةِ الشُّبُهات في الاعتـقاد : أنَّ البدعة إذا كـانت مقموعـةً خافتةً ، والمبـتدع إذا كان منقمـعًا مكسورَ النَّفْسِ بكَبْتِ بدعته ، فلا يُحرِّكِ النّفوس بتـحريك المبتدع وبدعته ؛ فإنَّها إذا حُرِّكَتْ نَـمَتْ وظَهَرَتْ ، وهذا أمرٌ جُـبِلَتْ عليـه النفوس ومنه في الخـير أنَّ النفوس تتحرَّكُ إلى الحجِّ إذا ذكرت المشاعر ، وفي الشَّرِّ إذا ذكرت النِّساء والتَّغزُّل والتَّشبيب بهنَّ ، تحرَّكت النفوسُ إلى الفواحش .

وهذا الكتمان والإعراض في باب المجـاهدَة والجهاد ، فكما يكون الحقُّ في الكلام ، فإنَّه يكون في السُّكوت والإعـراض ، فتنزل كُلّ حالةٍ منزلتـها ، والله أعلمُ » [5] .

واعلمْ - أخي المحـــاور - أنَّك لن تردَّ عليـــهم بشيءٍ أشـدّ مـن السُّكوت والإمساك عن مُناظرتهم .

---

(1) **أقْرَانًا** : جمع قِرْن ، وهو النَّظير والمثيل .
(2) **أَخْدَانًا** : جمع خِدْن ، وهو الصِّديق .
(3) **خُلاَّنًا** : جمع خَلِيلٍ ، وهو الصَّديق .
(4) « شرح أصول الاعتقاد » (1/119) .
(5) « هجر المبتدع » (ص - 5) .

قال الآجريُّ : « سكوتك عنهم ، وهجـرتك لما تكلَّمـوا به أشدُّ عليـهم من مناظرتك لهم ، كذا قَالَ مَنْ تَقدَّم مِنَ السَّلَفِ الصَّالح من علماءِ المسلمين» (١) .

وأمَّا إذا كان البـاطلُ ظاهرًا على الحقِّ ، والبدَعِ منتشـرةً رائجةً ، فلابُدَّ من الرَّدِّ والمناظَرَة .

قال ابن قتيبة - رحمه الله - في السكوت :

« وإنَّما يجوز أن يُؤْمَرَ بهذا قَبْلَ تفاقم الأمر ، ووقوع الشَّحناءِ ، وليس في غرائز النَّاس احتمـال الإمساك عن أمرٍ في الدِّين قد انتشـر هذا الانتشار ، وظهر هذا الظُّهور ، ولو أمسَكَ عقلاؤهم مـا أمسك جُهلاؤهم ، ولو أمسكت الألسنةُ ما أمسكت القلوب ، وقـد كان لهؤلاءِ أسوة فيمن تـقدَّم من العلماء حينَ تكلَّم جهْم وأبو حنيفة في القرآن ، ولم يكن دار بين النَّاس قبل ذلك ولا عُرِفَ ، ولا كان ممَّا تكلَّمَ النَّاسُ فيه ، فلمَّا فزِعَ النَّاسُ إلى عُلَمائهم لم يقولوا : هذه بدعةٌ لم يتكلَّم النَّاسُ فـيـها ، ولم يـتكلَّفوهـا ، ولكنَّهم أزالوا الشكَّ باليـقين ، وجلوا الحيرة، وكشفوا الغُمَّة ، وأجـمع رأيهم على أنَّه غير مخلوقٍ ، فأفتوهم بذلك ، وأدلوا بالحجج والبراهين ، وناظروا وقاسُوا ، واسـتنبطوا الشَّواهِدَ من كتاب الله عزَّ وجلَّ » (٢) .

ثالثًا : الاحتراز من فتنتهم :

ومن الأسـباب أيضًـا في زجر الـسَّلَفِ عن مُناظَرَة المبـتدعـة خَوْفُـهم على أنفسهم وعلى غـيرهم من أن تُفسِدَ قلوبَهُمُ البدعُ والـشُّبهات ، ولاسيَّمـا العامَّة الجهلة .

---

(١) « الشَّريعة » (١/١٩٦) .
(٢) « الاختلاف في اللَّفظ والرَّد على الجَهْمِيَّة » (ص٦٠ - ٦١) .

قال الراغب الأصفهاني : « كُرِهَ للعامَّة أنْ يُجالسوا أهْلَ الأهواءِ والبِدَعِ ؛ لئلاَّ يغووهم ، فالعاميُّ إذا خلا بذوي البدع كالشَّاةِ إذا خلا بها السَّبُعُ » [١] .

وقال الأوزاعيُّ - رحمه الله - :« لا تُمكِّنوا صاحب بدعةٍ من جدالٍ ، فيورثُ قلوبكم من فتنته ارتيابًا » [٢] .

وقال الحَسَنُ البَصْريُّ : « لا تُمكِّنْ أُذُنَيْكَ من صاحِب هوىً ، فيمرض قلبك » [٣] .

وقال مفضلُ بنُ مُهلهلٍ : « لو كان صاحبُ البدعة إذا جلسْتَ إليه يُحدِّثُكَ ببدعته ، حَذِرْتَهُ وفَرَرْتَ منه ، ولكنَّه يُحدِّثُكَ بأحاديث السُّنَّة في بدْءِ مجْلسه ، ثُمَّ يُدْخِلُ عليك بدعَتَهُ ، فلعلَّها تلزمُ قَلبَكَ ، فمتى تخرجُ من قلبك ؟! » [٤] .

وقال بعضُ أئمة السلف : « مَنْ أصْغَى سَمْعَهُ إلى صاحب بدعةٍ - وهو يعلمُ أنَّه صاحبُ بدعةٍ - نُزِعَتْ منه العِصْمةُ ، ووُكِلَ إلى نَفْسِهِ » [٥] .

وقال سفيانُ الثوريُّ : « مَنْ سمع ببدعةٍ فلا يَحْكِها لجُلسائه ؛ لا يُلْقِها في قلوبهم » [٦] .

أورده الذَّهبيُّ في السِّيَر ، وعقَّبَ عليه بقوله : « أكثرُ أئمَّة السَّلَف على هذا التَّحذير ، يَرَوْنَ أنَّ القُلُوبَ ضَعِيفَةٌ ، والشُّبَهَ خطَّافَةٌ » [٧] .

وقال ابن بطة :« فاللهَ اللهَ معشرَ المسلمين ، لا يَحْمِلَنَّ أحدًا منكم حُسْنُ ظَنِّه

---

(١) « الذَّريعة إلي مكارم الشَّريعة » (ص٢٤٢) .
(٢) « البدع والنَّهي عنها » (رقم ١٥١/ ص١١٦) .
(٣) أخرجه ابن وضَّاح في البدع (ص٥٠) .
(٤) « الإبانة في أصول الدِّيانة » (ص٣٩٤) .
(٥) « البدع والنَّهي عنها » (ص٤٨) .
(٦) « شرح السُّنَّة » (١/ ٢٢٧) ، و« الأمر بالاتِّباع » (ص٧٤)
(٧) « سير أعلام النُّبلاءَ » (٧/ ٢٦١) .

بنفسه ، وما عَهِدَهُ من معرفته بصحَّة مذهبه علي المُخاطَرَة بدينه في مجالسَة أهل الأهواء ، فيقول : أُداخله لأُناظِرَهُ ، أو لأستَخـرجَ منه مَذْهَبَهُ ؛ وإنَّهم أشدُّ فتنةً من الدَّجَّال ، وكلامهم ألصقُ من الجَـرَبِ ، وأحرَقُ للقلوبِ من اللَّهَبِ ، ولقد رأيتُ جمـاعةً من النَّاسِ كـانوا يلعنونهم ويسبُّـونهم ، فجـالسوهم على سـبيلِ الإنكار والرَّدِّ عليهم ، فمازالتْ بهم المباسطة ، وخفي المكر ، ودقيق الكفر حتَّى صَبُّوا إليهم » (١) .

فهذه طريقة الرَّاسخ المُدْرِك لصحَّة ما يعلمه ويعتقده ، أمَّا الَّذي يتلمَّسُ الحقَّ في مُناظرَة المبتدعةِ والضُّلاَّل ، فهـذا قد جوَّزَ وجودَ الحقِّ في قولهم ، فلن يكنْ عنده علمٌ جازمٌ ، بل ولا ظنٌّ راجحٌ ، بل شكٌّ وجـهالةٌ ، أمَّا مُناظرات السَّلَفِ لأهلِ البـاطل فهي على سـبيل قطع شرِّهم ، لا علـى سبيل تلمُّسِ الحقِّ في أقوالهم .

وإيَّاكَ - أيُّها السُّنِّـيُّ - أنْ يُلْبِسَ عليك إبليسُ ، فيـتدرج معك إلى سـماعِ شُبَهِ الأهواءِ مع عدَم قبولها ، ثم تأسر قلبك شبهةٌ قَدْ لا تنفكُّ عنها (٢) .

قال البربهاري: « وإذا أردْتَ الاستقامة على الحقِّ وطريق أهل السُّنَّة ، فاحذرْ الكلامَ ، وأصحاب الكلامِ ، والجدال والمراء ، والقياس ، والمناظرة في الدِّين ؛ فإنَّ استماعك منهم - وإنْ لـم تقبلْ منهم - يَقْدَحُ الشَكَّ في القلبِ ، وكفى به قبولاً فتهلك ، ومـا كانت زَنْدَقةٌ قَطُّ ، ولا بدعةٌ ولا هوىً ، ولا ضلالةٌ إلاَّ من الكلام ، والجـدال ، والمراء ، والقـياس ، وهي أبواب البـدعـة ، والشُّكُوكِ ، والزَّندَقَةِ » (٣) .

---

(١) « الإبانة » (٢/ ٤٧) .
(٢) « أصول الجَدَل والمناظرة » (ص٢٤٨-٢٤٩)
(٣) « شرح السنَّة » (رقم ١٥٣/ ص١٢٧-١٢٨)

وقال ابن الوزير : « وردتْ نُصوصٌ تقتضي العِلْمَ - أو الظَّنَّ - أنَّ الخَوْضَ في علم الكلام على وَجْه التَّقصِّي للشُّبَهَة ، والإصغاء إليها ، والتَّفتيش عن مباحث الفلاسفة والمبتدعة المُشْكَلَة في كثيرٍ من الجليَّاتِ ، مضَرَّةٌ عظيمةٌ ، مُمْرِضَةٌ لكثيرٍ من القلوب الصَّحيحة ، ودَفْعُ المضرَّة المظنونة واجبٌ عقلاً ، وقد شَهِدَتْ بذلك التَّجارِبُ مع النُّصوص ، وضلَّ بسببه اثنتانِ وسَبْعونَ فرْقَةً » (١) .

واعلمْ أخي المحاور أنَّ أشدَّ أهل البدع زيغًا هُمُ الرَّافضةُ غُلاةُ الشِّيعَة ، فَفرَّ من هذا الصِّنْف فِراركَ من الأسَد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شأنهم :

« والرَّافضَة لا تعتني بحفظ القرآن ، ومعرفة معانيه وتفسيره ، وطلب الأدلَّة الدَّالَّة على معانيه ، ولا تعتني - أيضًا - بحديث رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحهِ من سَقيمه ، والبَحْثُ عن معانيه ، ولا تعتني بآثار الصَّحابة والتَّابعين ، حتَّى تعرف مآخذَهم ومسالكهم ، ويُرد ما تنازعوا فيه إلى الله والرَّسول ، بلْ عُمْدَتهم آثارٌ تُنْقَلُ عن بعضِ أهلِ البيتِ ، فيها صِدْقٌ وكذبٌ » (٢) .

وقال أيضًا : « وليس في شيوخ الرَّافضة إمامٌ في شيءٍ من علومِ الإسلام : لا علم الحديث ، ولا الفقه والتَّفسير ، ولا القرآن ، بل شيوخ الرَّفضة إمَّا جاهلٌ ، وإمَّا زِنْديقٌ كشيوخ أهل الكتاب » (٣) .

وقال : « ولا رَيْبَ أنَّ الرَّافضة أجْهَلُ وأقَلُّ من أن يُناظروا علماء السُّنَّة ، لكن يُنَاظر بَعْضُهم بعضًا ، كما يتناظرون - دائمًا - في المعدوم ، هل هو شيءٌ ، أو ليس بشيءٍ ؟! » (٤) .

---

(١) « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » (ص٤٥ - ٤٦) .
(٢) « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » (٢/ ٢٣٤) .
(٣) المرجع السابق (٥/ ١٦٣-١٦٤) .
(٤) المرجع السَّابق (٢/ ٨٠-٨١) .

ومن المعلوم أنَّ من شروط المناظرة الـرُّجوع والرَّدُّ إلى أُصُول وكُلِّيَّات مُـتَّفق عليها ، وهذا مفقودٌ مع الرَّافضة ، فلا يُمكن أنْ تنتظمَ معهم مُناظرةٌ .

قال شيخُ الإسلام عنهم : « ثُمَّ إنَّ الواحدَ من هؤلاء إذا قـال قولاً لا يطلب دليله من الكتاب والسُّنَّة ، ولا مـا يُعارِضه ، ولا يَرُدُّونَ ما تنازَعَ فـيه المسلمون إلى الله والرَّسول ، كما أمر اللهُ به ورسولُهُ ، بَلْ قَدْ أَصَّلوا لهم ثلاثة أصولٍ :

أحدهـا : أنَّ هؤلاء مَعْصُومون .

والثَّانـي : أنَّ كُلَّ ما يقولونه منقولٌ عن النَّبيِّ ﷺ .

والثَّالث : أنَّ إجْماع العترة حُجَّةٌ ، وهؤلاءِ هُمُ العترة .

فصـاروا لذلك لا ينظرون في دليلٍ ولا تعليلٍ ، بل خـرجوا عن الفـقه في الدِّين كخروج الشَّعْرَة من العجين » [(١)] .

وقال العلاَّمة بكرٌ أبو زيدٍ : « واعلمْ أنَّ كُلَّ الفِرَقِ تمكن مُناظرتها إلاَّ الرَّافضة ؛ لأنَّه لابُدَّ للمتناظريـن من أصلٍ يرجعان إليه (الكـتاب والسُّنَّة) وهـم لا يُؤْمنون بالسُّنَّة إلاَّ ما كانَ من طريق آل البيت ، وإنَّ القـرآن فيه تحريفٌ ونقصٌ . . ولهذا لا تُباحـثهم في الأصـول أو الفروع ، ما لم تُقـرِّرْهم على المرجع في المناظرة ، ولن يُقرّوك ، فتنقطع المناظرة من أصلها ، فاحـتفظْ بهذه الفائدة ، واحذرْ منهم التقية ، واللهُ أعلم » [(٢)] .

فهـؤلاءإنِ استدلُّوا بالقـرآن والسُّنَّة ، فإنَّما يـفعلون ذلك تقيـةً ، مع ما في نقولهم من الكذب ، والزِّيادة ، والتَّحريف ما هو معلومٌ لمَنْ له خبرةٌ بهم .

قال الحافظ الذَّهَبيُّ في شأنهم : « تراهم - دائمًا - يحتـجُّونَ بالموضوعات، ويُكذِّبون بالصِّـحاح ، وإذا اسـتشـعروا أدْنـى خوفٍ لزمـوا التقـية ، وعظَّمـوا

---

(١) المرجع السَّابق (٧/ ٢٨-٢٨٧) .
(٢) « التَّعالم » (ص١١٢) تتمَّة حاشية رقم (١) من (ص١١١) .

الصَّحيحين ، وعظَّموا السُّنَّة ، ولعنوا الرَّفْضَ وأنكروا ، فَيُعْلِنون بلَعْنِ أنفسهم شيئًا ما يفعله اليهودُ ولا المجوسُ بأنفسهم » [١] .

واعلمْ أنَّ الرَّافضَةَ وغيرهم من أهلِ البدع والفلاسفة والمُتكلِّمينَ إنَّا احتجاجهم بالقرآن والسُّنَّة دفعًا للخَصْمِ ، لا اهتداءً به واعتمادًا عليه [٢] .

[٤] المتعنِّت :

والمُتَعَنِّتُ قد يكون أحد رجلين : إمَّا جاهل جَهْل مُرَكَّب ، أو أحْمَقَ لئيمٍ لا دواءَ له إلاَّ بالإعراض عنه ؛ فإنَّه إنْ وافقته خالفك ، وإنْ خالفته عارضك ، وإن أكرمته أهانك ، وإنْ أهنته أكرمك ، وإنْ تبسَّمْتَ له كشَّرَ لك ، وإنْ أعرضْتَ عنه اغتمَّ ، وإنْ أقبلتَ عليه اغترَّ ، وإنْ حَلُمْتَ عنه جَهِلَ عليك ، وإنْ جَهِلْتَ عليه حَلُمَ عنك .

قال ابن حبان - رحمه الله : « من علامات الحُمْقِ التي يجبُ على العاقلِ تفَقُّدها ممن خفي عليه أمرُهُ : سرعةُ الجوابِ ، وتَرْكُ التَّثَبُّتِ ، والإفراطُ في الضَّحِك ، وكَثْرَةُ الالتفاتِ ، والوقيعةُ في الأخيار ، والاختلاطُ بالأشرارِ ، والأحمقُ إذا أعرضْتَ عنه اغتمَّ ، وإنْ أقْبَلْتَ عليه اغترَّ ، وإنْ حَلُمْتَ عنه جَهِلَ عليك ، وإنْ جَهِلْتَ عليه حَلُمَ عنك ، وإنْ أسأتَ إليه أحسن إليك ، وإنْ أحْسَنتَ إليه أساء إليك ، وإنْ ظلمتَهُ انتصفتَ منه ، ويَظْلمك إذا أنصفتَهُ ، وما أشبه عَشرة الحَمْقَى إلاَّ بما أنشدني محمَّد بن إسحاق الواسطيُّ :

لي صَديقٌ يَرَى حُقوقي عَلَيْهِ ... نافلات ، وحَقُّهُ كانَ فَرْضا
لو قطعتُ الجبالَ طُولاً إلَيْهِ ... ثُمَّ مِنْ بَعْدِ طُولِهَا سِرْتُ عَرْضا

---

(١) « ترتيب الموضوعات » (ص١٢٤) .
(٢) « الفتاوى » (١٠/٣٥٥) .

لَرَأَى مـا صَنَـعْتُ غَـيْـرَ كـبـيـرٍ واشْتَهَى أنْ أَزِيدَ في الأَرْضِ أَرْضا» [١]

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله - : « وعليك ألاَّ تُفاتح بالمناظرة مَنْ تعلمـه متعنِّتًـا ؛ لأنَّ كلام المتـعنِّت ومَنْ لا يقصـد مرضاة الله فـي تعرُّف الحقِّ والحقيقـة بما تقوله ، يُوَرِّثُ المباهاة ، والضَّجَر ، وحُـزْنَ القلبِ ، وتعدِّي حدود الله سبحانه في الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر .

وإنْ لم تعلمْهُ كذلك حـتَّى فاتحته بالكلام ، ثمَّ عَلِمْـتَهُ عليه ، وَجَبَ عليك الإمسـاكُ عن مناظرته ، فإنْ رأيتَ نُصْـرَةَ دين الله سبـحانه في الإمـساك عنه ، زِدْتَ في الحدِّ ، وبَالَغْتَ في التحرُّزِ عنه » [٢] .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

واتْرُكْ مُـحَـاوَرَةَ اللَّئِـيمِ فـإنَّـهـا كَـالماءِ يُلْقَـى في فَمِ الصَّـحَـراءِ
أَتْعَـبْتَ نَفْسَكَ في احـترامِكَ قَـدْرَهُ وأَهَـانَ قَـدْرَكَ دُونَ أَيِّ عَنَـاءِ

وقال الإمام ابن حزم - رحمه الله - : « واحذرْ من مُكالمة مَنْ ليس مـذهبُهُ إلاَّ المضادَّة والمخالفة » [٣] .

قال عبد الكريم العماد :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْـمَعْ حَـدِيثِي مُـقْبِـلاً وعَـارَضْـتَني فـي كُلِّ قَـوْلٍ أَقُـوله
لَمَلَّتْكَ نَفْـسِي ثُمَّ عَافَكَ [٤] ناظِرِي وفـاتك قَلْبي ، ثُمَّ زادَ أُفُـولُهُ [٥]

ولا يدخل في ذلك إعـراض الفُسَّـاق والمجرمين عن حـديث المحاور الآمـر

---

(١) « روضة العقلاء » (ص١١٩) .
(٢) « الكافية في الجَدَلْ » (ص٥٣٢) .
(٣) « التَّقريبِ لحدِّ المنطق » (ص١٩٦) .
(٤) عَافَ الشَّيْءَ : كَرِهَهُ .
(٥) أُفُولُهُ : غَيبته .

بالمعروف ، والنَّاهي عن المنكر ، ولا سيَّما إذا كانَ لطيفًا رفيقًا ، فالعيب ليس فيه وإنَّما فيهم .

قال الشاعر :

وَمَا عَلَى العَنْبَرِ [1] الفوَّاحِ مِنْ حَرَجٍ ... إنْ مَاتَ مِنْ شَمِّهِ الزَّبَّالُ والجَفلُ؟!

وقال آخرُ :

عَجِبْتُ لَهُمْ قالوا: تماديْتَ في المُنَى [2] ... وفي المُثُلِ العُلْيَا وفي المُرْتَقَى الصَّعْبِ

فاقْصُرْ ولا تُجْهِدْ يَرَاعَك [3] إنَّما ... ستَبْذُرُ حَبًّا في ثَرَى ليس بالخَصْبِ

فَقُلْتُ لَهُمْ: مَهْلاً فما اليأسُ شيمَتي [4] ... سَأَبْذُرُ حَبِّي والثِّمارُ منَ الرَّبِّ

إذَا أنا أَبْلَغْتُ الرِّسالةَ جاهدًا ... ولَمْ أَجدْ السَّمْعَ المُجيبَ فما ذَنْبِي؟!

[٥] الغضبان :

ويجْمُلُ بك - أخي المحاور - أن تسكتَ إذا غَضِبَ مَنْ تُحاورُ ، حتَّى تهدأَ الثَّائرة ، وتبرد المشاعرُ ، وتسكن اضطراباتُ النَّفس ، ويتأكَّد ذلك منك إذا اشتدَّ به الغضبُ ، فأخذَ منه كُلَّ مأخذٍ ، فمتى واجهته - وهو بهذه الحال - كنتَ كعاقلٍ واجهَ مجنونًا ! .

قال الإمام ابنُ الجوزي : « متى رأيتَ صاحبَكَ قدْ غَضِبَ ، وأخذَ يتكلَّمُ بما لا يصلح ، فلا ينبغي أنْ تعقدَ على ما يقوله خِنْصَرًا [5] (أي لا تعتدَّ به ، ولا تلتفتُ إليه) ولا أنْ تُؤاخذهُ به ؛ فإنَّ حالَهُ حالُ السَّكرانِ لا يدري ما يجري ،

---

(١) العَنْبَر : مَادَّة صَلْبَة ، تنبعث منها رائحةٌ زكيَّةٌ إذا أُحْرِقَتْ .
(٢) المُنَى : الأَحْلام ، واحدها مُنْيَةٌ .
(٣) اليَرَاع : جمع يَرَاعَة ، وهي القلَم .
(٤) الشِّيمةُ : الخُلُق والطَّبيعة ، جمعها شِيَمٌ .
(٥) الخِنْصَر : أَصْغَر أصابع اليد .

بل اصبر ولو فترةً ، ولا تُعَوِّلْ عليها ؛ فإنَّ الشَّيطانَ قدْ غَلبهُ ، والطَّبْعَ قد هاجَ، والعقل قـد استترَ ، ومـتى أخذْتَ في نفسك عليه ، أو أجـبته بمقتـضى فعله ، كنتَ كعاقلٍ واجه مجنونًا ، أو مُفيق عاتَبَ مُغْمَىً عليه ، فالذَّنْب لك ، بل انظرْ إليـه بعينِ الرَّحْـمَة ، وتلمَّحْ تصـريف القَـدَرِ لَهُ ، وتفـرَّجْ في لعبِ الطَّبْعِ به ، واعلمْ أنَّه إذا انتبه نَدِمَ على ما جَرَى ، وعـرف لك فَضْلَ الصَّبر ، وأقلُّ الأقسام أن تسلمَهُ فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به .

وهذه الحالـة ينبغي أن يتلمَّـحهـا الوَلَدُ عند غضب الوالد ، والزَّوْجَـةُ عند غضَبِ الزَّوج ، فتتـركه يشفى بما يقول ، ولا تعوِّل على ذلك ، فسـيعود نادمًا معتذرًا ، ومتى قُوبِلَ على حالته ومقالته ، صارتِ العداوَةُ متمكِّنَةً ، وجازَى في الإفاقة على ما فُعِلَ في حقِّه وقتَ السكْرِ .

وأكْـثَرُ النَّاس على غـير هذا الطريـق ، متَى رأَوْا غـضبـانًا قابلوه بما يقـول ويعمل، وهذا على غير مقتضى الحكمة ، بلْ الحكمة ما ذكرتُ ، وما يعقلها إلاَّ العالمون » [(١)] .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

دَعْ الغَـضْـبـانَ يُخـرِجْ مـا لَدَيْهِ	وأَحْـسَنْتَ الـصَّنيـعَ إذا سكتَّـا
وإنْ جَـادلْتَـهُ والنَّارُ فـيـه	فَـأنتَ تصُبُّ فـي النيـرانِ زَيْتـا

[٦] التَّقيل :

إذا رأيتَ - أخي الحبيب - محاورَكَ لا يُحْسِنُ الحوارَ فيفيدك ،ولا الاستماعَ فيستفيد منك ، لا يأنفُ عن مـواجهتك بما تكره ، هائمًا على وجهه ، لا ينتهي له صياحٌ ، ولا تنحبس له شِرَّةٌ [(٢)] ، فإيَّاكَ وإيَّاهُ .

---

(١) « صيد الخاطر » (ص٢٢٥- ٢٢٦) .
(٢) الشِّرَّةُ : الشَّرُّ والحِدَّة عِنْدَ الغَضَبِ .

قال ابن القيّم الجوزيّ: « ومنهم مَنْ مخالطتُهُ حُمَّى الرُّوح ، وهو الثَّقيلُ البغيضُ العقل الذي لا يُحسِنُ أن يتكلَّمَ فيفيدك ، ولا يُحْسِنُ أنْ يُنْصِتَ فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بلْ إنْ تكلَّمَ فكلامُهُ كالعصا تنزلُ على قلوبِ السَّامعين ، مع إعجابِهِ بكلامِهِ وفرحه به ، فهو يُحَدِّثُ من فيه كُلَّما تحدَّثَ ، ويظنُّ أنَّه مِسْكٌ يطيب به المجلس ، وإنْ سكَتَ فأثقلُ من نِصفِ الرَّحى[1] العظيمة التي لا يُطاقُ حملُها ، ولا جَرُّها على الأرضِ »[2] .

قال الشاعر:

لَمَّا تَبَدَّلَتْ المجالِسُ أَوْجُهًا ... غَيْرَ الَّذينَ عَهِدْتُ منْ عُلَمَائِها
وَرَأَيْتُها مَحْفُوفَةً بسوى الأُلى ... كَانوا وُلاةَ صُدُورِها وفِنَائِها
أَنْشَدْتُ بَيْتًا سَائِرًا مُتَقَدِّمًا ... والعَيْنُ قَدْ شَرِقَتْ بجاري مائِها
أَمَّا الخِيامُ فَإِنَّها كَخِيامِهِمْ ... وأَرَى نِسَاءَ الحَيِّ[3] غَيْرَ نسائها[4]

[٧] السَّفيه :

ليس من الحكمة أن تُحاور السُّفهاءَ ؛ لأنَّ السَّفيه لا رُشْدَ في أقواله وأفعاله، فكيفَ يُرْجَى تَلمُّسُ الحقِّ في محاورته ومُناظَرته ؟! .

ولقد أمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بالإعراضِ عن السُّفهاءِ فقال : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

قال معاوية رضي الله عنه : «فأَمَّا السَّفيهُ فلا يُؤمن على الشَّرِّ ولا يُرْجَى للنَّصيحَةِ »[5] .

---

(١) **الرَّحَى** : حَجَرُ الطَّاحون ، جمعها أرحاء .
(٢) « بدائع الفوائد » لابن القيِّم (٢/ ٢٧٤-٢٧٥) .
(٣) **الحيّ** : القبيلة .
(٤) « صفحة من صبر العلماء على الشَّدائدِ والتَّحصي » (ص٢٦٥- ٢٦٦) .
(٥) « الفنون » (١/ ٧٦) .

وقال الباجي : « ولا يُناظر من عادته التَّسفُّهُ في الكلام ، ولا مَنْ عادتُهُ التَّفظيع ؛ فإنَّه لا يستفيد بكلامه فائدةً » [١] .

قال صالح بن عبد القدوس :

وَإذا حَمَلْتَ إلَى سَفِيهٍ حِكْمَةً فَلَقَدْ حَمَلْتَ بِضَاعَةً لا تُنْفَقُ [٢]

وقال عبد الكريم العماد :

يُؤذيني السَّفِيهُ ، مَتَى أَرَاهُ لَزِمْتُ الصَّمتَ ، لا أُبْدِي كلامًا
فَلَيْسَ سِوَى الإجابةِ عَنْ سُؤَالٍ وَغَيْرُ الرَّدِّ أنْ أُلْقِيَ السَّلاما

وقال آخرُ :

لا تُرْجِعَنَّ إلى السَّفِيْهِ خِطَابَهُ إلاَّ جَوَابَ تَحِيَّةٍ حَيَّاكَها
فَمَتَى تُحَرِّكْ جِيفَةً تَزْدَادُ نَتَنًا ، إنْ أَرَدْتَ حِراكَها [٣]

وقال ابنُ المقفع : « واعلمْ أنَّكَ سَتُبْتَلَى من أقوام بِسَفَهٍ سيُطْلِعُ منك حقْدًا ؛ فإنْ عارضته ، أو كافأته بالسَّفَه ، فكأنَّك رَضِيتَ ما أتى به ، فأحببتَ أنْ تحتذيَ على مثاله ، فإن كان ذلك عندك مذمومًا ، فحقِّقْ ذمَّكَ إيَّاهُ بترك معارضته ، فأمَّا أنْ تَذُمَّه وتمتثلَهُ [٤] ، فليس في ذلك سَدَادٌ » [٥] .

قال الشاعر :

وَقُلْ لِبَنِي سَعْدٍ : فما لي وما لكم تَرَقُّونَ مِنِّي ما استطعتمْ وأُعْتِقُ؟!
أَغَرَّكُمْ أَنِّي بِأَحْسَنِ شِيمَةٍ بَصيرٌ وأَنِّي بالفواحِشِ أَخْرَقُ [٦] ؟!

---

(١) « المنهاج بترتيب الحجاج » (ص١٠) .
(٢) « جامع بيان العلم » (١/١١١) .
(٣) « الحلم » لابن أبي الدنيا (ص٣٢) .
(٤) تمتثله : تحتذيه وتسلك طريقه .
(٥) « الأدب الصغير والأدب الكبير » (ص١٥٥) .
(٦) أخْرَق : جاهل .

وَرِنْ تَكُ قَدْ فاحشْتَني فقهرتني هنيئًا مريئًا أنتَ بالفُحْشِ أَحْذَقُ[(١)] [(٢)]

وإذا ما أرادَ السَّفيه أنْ يبدأ بالسَّفَه ، فما أجملَ الإعراضَ عنه ، وتجاهُلَ حوَارِهِ ! ، وصَدَقَ الإمامُ الشَّافعيُّ القائل :

أَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِ السَّفيه فَكُلُّ مَا قالَ فَهُوَ فيه
مَا ضَرَّ نَهْرَ الفُرَاتِ يَوْمًا لو خَاضَ بَعْضُ الكِلابِ فِيه [(٣)]

انظُرْ مَنْ تُحاور :

وأخيرًا - أخي الحبيب - انظرْ مَنْ تُحاور ، فقد كان السَّلَف يَلْزَمون الانتقاء والاختيار لِمَنْ يُحاورونهم ، ويعتقدون أنَّ وضعَ الحوار عند غير أهله كوضع اللُّؤلُؤ والزَّبَرْجَدِ للخنازير .

قال الأعمش : « لا تنثروا اللُّؤلؤُ تحتَ أظْلافِ [(٤)] الخنازير » [(٥)] .

وقال شعبة : « رآني الأعمشُ وأنا أُحَدِّثُ قومًا ، فقال : وَيْحَكَ يا شعبةُ ، تُعَلِّقُ اللُّؤلؤَ أعناقَ الخنازير ! » [(٦)] .

وقال الإمامُ مالك : « طارحُ العِلْمِ عندَ غير أهلِه كطارحِ الزَّبرجَدِ للخنازير » [(٧)] .

وروى الخطيبُ البغداديُّ عن مسروقٍ قال : «لا تنشرْ بَزَّك [(٨)] إلاَّ عند مَنْ يَبْغِيه» [(٩)] .

---

(١) **أَحْذَق :** ماهر .
(٢) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص ٢٥٤) .
(٣) ديوان الشَّافعيِّ (ص ٩٠) تحقيق الزّغبيِّ .
(٤) **أظْلاف :** الأظلاف للخنازير بمنزلة الخُفِّ للإبل .
(٥) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » رقم (٧٢٨) (١/ ٣٢٧) .
(٦) « جامع بيان العلم » (١/ ١٠٨) .
(٧) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » رقم (٧٣٧) (١/ ٣٢٩) .
(٨) **البَزُّ :** الثِّياب ، والمعنى : لا تُحاورْ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ حَوَارَكَ .
(٩) المرجع السَّابق رقم (٧٣٧) (١/ ٣٢٧) .

ورحم الله الإمام الشافعيَّ القائل :

أَأَنْثُرُ دُرّاً بَيْنَ سَارِحَةِ (١) البَهَمْ (٢) وأَنْظِمُ مَنْثُوراً لراعيةِ الغَنَمْ ؟!
لَعَمْرِي لَئِنْ ضُيِّعْتُ في شَرِّ بَلْدَةٍ فَلَسْتُ مُضَيِّعاً فيهم غُرَرَ الكَلِمْ
لَئِنْ سَهَّلَ اللهُ العَزِيزُ بِلُطْفِهِ وصَادَفْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وللحِكَمْ
بَثَثْتُ مُفِيداً واسْتَفَدْتُ وِدَادَهُمْ وَإِلاَّ فَمَكْنُونٌ (٣) لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
وَمَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ وَمَنْ مَنَعَ المُسْتوجِبِينَ (٤) فَقَدْ ظَلَمْ (٥)

وقال كثيرُ بنُ مُرَّةَ الحضرميُّ : « إنَّ عليك في عِلْمِكَ حقّاً ، كما أنَّ عليك في مالك حقّاً ، لا تُحَدِّثْ العِلْمَ غَيْرَ أهله فَتَجْهَلَ ، ولا تَمنع العِلْمَ أهْلَهُ فتأثمَ ، ولا تُحَدِّثْ بالحكمةِ عند السُّفهاءِ فيُكَذِّبوك ، ولا تُحَدِّثْ بالباطلِ عند الحكماءِ فيمقتوكَ (٦) » (٧) .

وقال عبد الكريم العماد :

كَلامُكَ لا تَقُلْهُ لِغَيْرِ أَهْلٍ وَزَادُكَ أَعْطِه مَنْ يَشْتَهِيهِ
فَمَنْ يَبْنِ البِنَاءَ بِغَيْرِ عَقْلٍ عَلَى البَحْرِ اللّجاجِ يَغُوصُ فيهِ

وعن رُؤبةَ بن الحجاج قال : « أتيتُ النسابة البكريَّ ، فقال لي : مَنْ أنتَ ؟ قُلْتُ : رؤبةُ بن الحجَّاج . قال : قصرت وعرفت ، فما جاء بك ؟ . قلتُ : طَلَبُ العِلْمِ . قال : لعلَّكَ مِنْ قومٍ أنا بين أظْهُرِهِمْ ، إنْ سكتُّ لم يسألوني ،

(١) **السَّارحَة** : الماشية التي تسرح ، أي تذْهَبُ أوَّل النَّهارِ إلى المَرعى ، جمعها سَوَارح .
(٢) **البَهَم والبَهْم** : اسْم جمع بَهمة ، وهي أولاد الغَنَمِ .
(٣) **مكنون** : محفوظ .
(٤) **المستوجبين** : المستحقِّينَ الجديرين بتلقِّي العِلْمِ .
(٥) ديوان الشَّافعيِّ (ص١٠٦) تحقيق البقاعي .
(٦) **المَقْتُ** : أشَدُّ البُغْض .
(٧) « جامع بيان العلم » (١/١١٠) .

وإنْ تكلَّمتُ لم يَعُوا عنِّي ! . قُلتُ : أرجو ألاَّ أكونَ منهم »[١] .

وروى الخطيب البغداديُّ عن مُطَرِّفٍ قال : « لا تُطْعِمْ طعامكَ مَنْ لا يَشْتَهيه»[٢] أي لا تُقْبِلْ علَى مَنْ لا يُقْبِلُ عليك بوجهه ، ولا تُحَدِّثْ بالحديث مَنْ لا يريدُهُ .

وأخيرًا - أخي الحبيب - كُنْ طبيبًا رفيقًا ، يَضَعُ دواءَهُ حيثُ يعلمُ أنَّهُ ينفعُ .

ولقدْ أجادَ مَن قال - وأحسنَ - :

قالوا: نَرَاكَ طويلَ الصَّمْتِ، قُلْتُ لهم ... ما طُولُ صَمْتِي عَنْ عِيٍّ[٣] ولا خَرَسِ
لَكنَّهُ أَحْمَدُ الأشْيَاء عَاقِبَةً ... عِنْدي وأَيْسَرُهُ مِنْ مَنْطقٍ شَكِسِ
أَأَنْشُرُ البَزَّ فِيمَنْ لَيسَ يَعْرِفُهُ؟! ... أَمْ أَنْثُرُ الدُّرَّ بَيْنَ العُمْيِ في الغَلَسِ[٤]؟![٥]

---

(١) المرجع السَّابق (١/١٠٩) .
(٢) « الجامع لأخلاق الرَّاوي » رقم (٧٣١) (١/٣٢٨)
(٣) العِيُّ : الجَهْلُ .
(٤) الغَلَس : ظلام آخر اللَّيل .
(٥) « جامع بيان العلم » (١/١١٠) .

المعارضة

أي أخي، إنَّ من المحاورينَ مَنْ هو محبٌّ للمعارضة، كَلِفٌ[١] بالمخالفة، لا يُوافق مُحاوره على أمرٍ، ولا يُسَلِّمُ له بشيءٍ، فإيَّاكَ وإيَّاه.

قال الإمام ابن حزم - رحمه الله -: «إيَّاكَ ومُخالفةَ الجليس، ومُعارضة أهلِ زمانك فيما لا يَضُرُّك في دُنياك، ولا في آخرتك وإنْ قَلَّ؛ فإنَّكَ تستفيد بذلك الأذى والمُنافرة والعداوة، وربَّما أدَّى ذلك إلى المطالبة والضَّررِ العظيمِ دُونَ منفَعَةٍ أصلاً»[٢].

وقال أبو بكر الطرطوشي: «إذا رأيتَ إنسانًا جُبِلَ على الخلاف، إنْ قُلْتَ: لا، قال: نَعَمْ، وإنْ قُلْتَ: نَعَمْ، قال: لا، فألحقْهُ بعالم الحمير؛ فإنَّ دَأْبَ الحمار إنْ أَدْنيْتَهُ بَعُدَ، وإنْ أبْعَدْتَهُ قَرُبَ، وأنتَ تستمتع بالحمارِ، ولا تَسبُّهُ، ولا تُفارقْهُ»[٣].

وقال الإمام الخطابي - رحمه الله - محذرًا من هذا الصنف: «وقال بعضهم: إنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يُولَعُ بالخلافِ أبدًا، حتَّى إنَّه يرى أنَّ أفضَلَ الأمر ألاَّ يُوافق أحدًا، ولا يُجامعَهُ عَلَى رأيٍ، ولا يُوافقَهُ على محبَّةٍ، ومَنْ كانت هذه عادته؛ فإنَّه لا يُبْصر الحقَّ، ولا ينصره، ولا يعتقده دينًا ومذهبًا، إنَّما يتعصَّب لرأيه، فينتقم لنفسه، ويسْعَى في مرضاتها، حتَّى إنَّك لو رُمْتُ أنْ تترضَّاه، وتوخَّيتَ أنْ تُوافقَهُ على الرأي الذي يدعوكَ إليه، تعمَّد لخلافك فيه، ولم يرضَ به حتَّى ينتقل إلى نقيضِ قوله الأوَّل، فإنْ عُدْنَ إلى وفاقه عادَ فيه إلى خلافك، فَمَنْ

---

(١) كَلِفَ: مُولَع.
(٢) «الأخلاق والسِّيَر» (ص٦١).
(٣) «سراج الملوك» (ص٢٥٩).

كان بهذه الحال فعليك بمباعدَته ، والنِّفار عن قُرْبِه ؛ فإنَّ رضاه غايةٌ لا تُدْرَكُ ، ومَدَى شَأْوِه [١] لا يُلْحَقُ » [٢] .

ثُمَّ أوردَ - رحمه الله - أمثلةً لذلكَ ، فقال : أخبرني ابن التعياني قال : أخبرنا الزَّجَّاج قال : « كُنَّا عند المَبَرِّد - أي العبَّاس محمَّد - فوقف عليه رجلٌ ، فقال : أسألك عن مسألة في النَّحْوِ ؟ قال : لا ، فقال : أخْطَأْتَ ، فقال : يا هذا ، كيف أكونُ مُخْطئًا أو مُصيبًا ، ولم أُجِبْكَ عن المسألة بَعْدُ ؟! .

فَأَقْبَلَ عليه أصحابُهُ يُعَنِّفونَهُ ، فقال لهم : خَلُّوا سبيلَهُ ، ولا تعرضوا له ، أنا أُخْبِركم بقصَّته : هذا رجلٌ يُحبُّ الخلافَ ، وقد خرجَ من بيته ، وقصدني على أنْ يُخالفَنِي في كُلِّ شيءٍ أقولُهُ ، ويُخَطِّئَنِي فيه ، فَسَبَقَ لسانُهُ بما كان في ضميره » [٣] .

ويدخل في ذلك الجدال المذموم ، فالجدال قد يكون بحقٍّ ، وقد يكون بباطلٍ ؛ ولهذا قَسَّمَ العلماءُ الجدَلَ إلى : محمودٍ ، ومذمومٍ .

وقال الخطيبُ البغداديُّ - رحمه الله - : « الجِدَالُ المذمومُ وجهان :

أحدهما : الجدال بغير حُجَّة .

والثَّاني : الجدال بالشَّغَب [٤] والتَّمويه نُصْرَةً للباطلِ بعدَ ظهور الحقِّ وبيانه، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر : ٥] .

وأمَّا جِدَالُ المُحقِّينَ فمن النَّصيحة في الدين ، ألاَّ ترَى إلى قوم نُوحٍ عليه السلام حيث قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود : ٣٢] ، وجوابه

---

(١) الشَّأْوُ : الغاية والهَدَف .
(٢) « العزلة » (ص١٦٦) .
(٣) المرجع السَّابق (ص١٦٦ - ١٦٧) .
(٤) الشَّغْب : تهييج الشَّرِّ .

لهم : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] .

وعَلَى هَذَا جَرَتْ سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ » .

إلى أن قال - رحمه الله - : [« وقدْ تحاجَّ المهاجرون والأنصار ، وحاجَّ عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما الخوارجَ بأمرٍ من عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، ومـا أنكرَ أَحَدٌ من الصَّحابة قَطُّ ، الجدال في طَلَبِ الحقِّ ، وأمَّا التَّابعون ومَنْ بعدهم فقد توسَّعوا في ذلك ، وثبت أنَّ الجدالَ المحمودَ هو طَلَبُ الحقِّ ونصره ، وإظهار الباطل وبيان فساده ، وأنَّ الخصَّام بالباطلِ هو اللداد الذي قال عنه النَّبيُّ ﷺ : «أَبْغضُ الرِّجالِ إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ» [1]] [2] .

وقال إمامُ الحرمين الجوينيُّ - رحمه الله - : « من الجدال ما يكون محمودًا مرضيًا ، ومنه ما يكون مذمومًا محرَّمًا ، فالمذموم منه ما يكون لدفع الحقِّ ، أو تحقيق العناد ، أو ليلبس الحقَّ بالباطل ، أو لما لا يُطْلَب به تَعَرُّف ولا تَقَرُّب ، أو للمماراة وطلب الجاهِ والتَّقَدُّمِ ، إلى غير ذلك من الوجوه المنْهيِّ عنها ، وهي التي نصَّ اللهُ سبحانه وتعالى على تحريمها ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزُّخْرف : ٥٨] .

أمَّا الجدالُ المحمودُ المدعوُّ إليه فهو الذي يُحقِّقُ الحقَّ، ويكشفُ عن الباطلِ، ويهدفُ إلى الرُّشْدِ مع مَنْ يُرْجَى رجوعُهُ عن الباطلِ إلى الحقِّ، وفيه قال سبحانه وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحْل : ١٢٥] » [3] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٥٧) و (٤٥٢٣) و (٧١٨٨) ، ومسلمٌ (٢٦٦٨) عن عائشة رضي الله عنها .
(٢) « الفقيه والمتفقِّه » (١/ ٢٣٣-٢٣٥) .
(٣) « الكافية في الجَدَل » (ص٢٢-٢٣) .

فضول الحوار

حريٌّ بك - أخي المحاور - أن تُمسكَ عن فُضُول الحوار ؛ حتَّى لا يختَلِط موضع الفائدة بغيرها ؛ فإنَّ ذلك مَضَلَّةٌ للفَهْمِ والسَّامع معًا .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾ [النِّساء : ١١٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ منْ أحبِّكُمْ إليَّ ، وأَقْرَبكُمْ منِّي في الآخرةَ أَحْسَنَكُمْ أخْلاقًا ، وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ منِّي في الآخرة أَسْوَؤكُمْ أخْلاقًا : الثَّرثارون ، المُتَفَيْهقُونَ ، المتشدِّقون »[1] .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « لا خَيْرَ في فُضُولِ الكلامِ »[2] .

وأوصى ابنُ عباس رضي الله عنهما رجلاً ، فقال : « لا تتكلَّمْ بما لا يَعْنيكَ ؛ فإنَّ ذلك فَضْلٌ ، ولستُ آمنُ عليك من الوِزْرِ ، ودَعْ الكلامَ في كثيرٍ ممَّا يعنيك حتَّى تجدَ له موضعًا ؛ فرُبَّ مُتكلِّمٍ في غير موضعه قد عنت »[3] .

وقال عطاءُ بن أبي رباحٍ : « كانوا يكرهونَ فُضُولَ الكلامِ » .

وقال : « بتركِ الفُضُولِ تكمُلُ العُقُولُ » .

وقال : « الصَّمْتُ صيانةُ اللِّسان ، وستر العِيِّ »[4] .

---

(١) تقَدَّم تخريجه في حاشية (ص ١٠٧) .
(٢) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٦١) .
(٣) « العزلة » (ص١٣٤) .
(٤) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٦١) .

وقال الشافعيُّ - رحمه الله -:

لا خَـيْـرَ في حَـشْـوِ الكلا مِ ، إذَا اهْتَـدَيْتَ إلَـى عُـيُـونهْ [١]
والصَّـمْتُ أَجْـمَلُ بـالفَـتَى مِنْ مَنْـطِقٍ في غَـيْـرِ حِـيْنِهْ [٢]

وقال الإمام النوويُّ - رحمه الله -: « اعلمْ أنَّه ينبغي لـكُلِّ مُكَلَّف أنْ يحفَظَ لسانَهُ عن جـميع الكلام إلاَّ كلامًا ظهرت فيه المصلحةُ ، ومتَى استوى الكلامُ المباحُ وتركُهُ في المصلحة ، فالسُّنَّة الإمساك عنه ؛ لأنَّه قد يجرُّ الكلامُ المباحُ إلى حرامٍ أو مكروهٍ ، وذلك كثيرٌ في العادَة ، والسَّلامة لا يَعْدِلُها شيءٌ » [٣] .

وقال الخطيبُ البغداديُّ في « آداب المجادل »: « ويكون كلامُهُ يسيرًا جامعًا ؛ فإنَّ التَّحفُّظَ من الزَّلَلِ مع الإقلال دونَ الإكثار ، وفي الإكثارِ - أيضًا - ما يُخفي الفائدَةَ ، ويُضيع المقصود ، ويُوَرِّث الحاضرين المَلَلَ » [٤] .

وقال إسماعيل الكاتب:

خَـيْـرُ الـكلامِ قَـلِيـلُ عَلَـى كَـثـيـرٍ دَلِيـلُ
والعِـيُّ مَـعْنًى قَـصِـيـرٌ يَـحْـوِيهِ لَـفْـظٌ طويـلُ [٥]

وقال الماورديُّ - رحمه الله -: « واعلمْ أنَّ للكلامِ شروطًا لا يسلمُ المتكلِّمُ من الزَّلَلِ إلاَّ بها ، ولا يَعْرَى [٦] من النَّقْصِ إلاَّ بَعْدَ أن يستوفيها ، وهي أربعةٌ :
فالشَّرطُ الأوَّلُ : **أن** يكونَ الكلامُ لداعٍ يدعو إليه ، إمَّا في اجتلابِ نَفْعٍ ، أو دَفْعِ ضَرَرٍ .

---

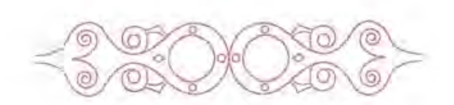
(١) **عيونُ الكلام**: أفضله وأحسنه .
(٢) ديوان **الشافعيِّ** (ص١١٥) تحقيق البقاعيّ .
(٣) « رياض الصالحين (ص٣٩١) » .
(٤) « الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٨) » .
(٥) « بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ (١/ ٦١) .
(٦) **يَعْرَى**: يخلو .

والشَّرْطُ الثَّانـي : أنْ يأتي به في موضعه ، ويتوخَّى به إصابة فرصته .

والشَّرطُ الثَّالث : أن يقتصر منه على قَدْرِ حاجَتِه .

والشَّرط الرَّابـع : أنْ يتخيَّرَ اللَّفظ الذي يتكلَّمُ به » (١) .

وقال القاسمي : « إيَّاكَ وفُضُـولَ الكلامِ ؛ فإنَّه يُظْهِرُ من عيُـوبك ما بَطَنَ ، ويُحَرِّكُ من عَـدوِّك ما سكَنَ ، فكلامُ الإنسـان بيانُ فَـضْلِهِ ، وتُرْجُمـانُ عَقْلِهِ ؛ فاقصرْهُ على الجميل ، واقتصرْ منه على القليل » (٢) .



(١) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٢٧٥) .

(٢) « جوامع الأدب والأخلاق » (ص٦) .



الباب الثَّالث

صفات المحاور

- حُسْنُ الخُلُقِ
- الصَّبْرُ
- بَسْطُ الوَجْهِ
- التَّوَاضُعُ .
- الرَّحْمَةُ بالخَصْمِ .
- الهُدُوءُ .
- الصِّدْقُ .
- الإنْصاف.
- الرِّفْقُ .
- الحِلْمُ .
- الأنَاةُ .
- التَّغابي .
- المُداراةُ.
- الابتعادُ عَن المُداهَنَةِ .
- الابتعاد عَن الخَجَلِ .

حسن الخلق

أي أخي ، إنّ حُسْنَ الخُلُق من أسباب نجاح أيِّ حوار ، والوصول إلى ثمراته بأيسر الطُّرُقِ ؛ فبه يتمكَّن المحاور من إبداء حُجَّتِه ، وفَهْم حُجَّة صاحبه ، وهو - مع ذلك - عبادةٌ عظيمةٌ ، أمر به ربُّ العزَّة والجلال ، ورتَّبَ عليه الجزاء العظيم .

فعن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ العبدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقه درجةَ الصَّائم القائم »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أكثر ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ ، قال : « تَقْوَى الله ، وحُسْنُ الخُلُق »[2] .

والأخلاق - كما قال الغزاليُّ - على ضَرْبَيْنِ : فمنها ما هو غريزيٌّ جبليٌّ ، ومنها ما هو اكتسابيٌّ يأتي بالدربة والممارسة والرِّياضة والمجاهدة ، ولو كانت الأخلاق لا تتغيَّرُ لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات[3] .

فالأخلاقُ قابلةٌ للتَّغيير ؛ وذلك أنَّ الحِلْمَ من الأخلاق ، بل هو سيِّدُها ، وهو - مع ذلك - يُنالُ ويُكْتَسَبُ بالتَّحلُّم والمجاهدة ، وحمل النَّفس على ذلك ، قال رسول الله ﷺ : « إنَّما العِلْمُ بالتَّعلُّم ، وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحلُّم ، ومَنْ يتَحرَّ الخيرَ يُعْطَهُ ، ومَن يتوقَّ الشرَّ يُوقَهُ »[4] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١/ ١٦٢٠)، والصَّحيحة (٧٩٥).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح سُنَن التِّرْمذيِّ (١٦٣٠) .
(٣) « الإحياء » (٣/ ٥٥) .
(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه (٩/ ١٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والطَّبرانيُّ في الكبير (١٩/ ٣٩٥) عن معاوية رضي الله عنه ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١/ ٢٣٢٨) ، والصَّحيحة (٣٤٢) .

قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ إنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ لأَهْلِهِ وما الحِلْمُ إلاَّ عادةٌ وتَحَلُّمُ [١]

وثمةَ أسبابٌ تعينُ على حُسْنِ الخُلُقِ ، أذكرُ بعضًا منها :

[١] سلامة العقيدة :

إذا صَحَّتْ عقيدةُ المحاور ، زكتْ نَفْسُهُ ، واستقامتْ أخلاقُهُ .

قال الغزاليُّ - رحمه الله - : « آدابُ الظَّواهر عُنْوانُ آداب البَوَاطن ، وحركاتُ الجوارحِ ثمراتُ الخَوَاطر ، والأعمال نتيجة الأخلاقِ » [٢] .

[٢] الدُّعاء :

فقد كان النَّبيُّ ﷺ كثيرُ الضَّراعة إلى ربِّه أن يرزقَهُ حُسْن الخُلُق ، وكان يقول في دعاء الاستفتاح : « اللَّهُمَّ اهدني لأحسنِ الأخْلاق ، لا يهدي لأَحْسَنِها إلاَّ أنْتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها ، لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلاَّ أنتَ » [٣] .

[٣] المجاهدة :

وذلك لأنَّ حُسْنَ الخُلُق نوعٌ من الهداية يحصلُ بالمجاهدة ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

[٤] المحاسبة :

قال ابن المُقَفَّع : « لِيَحْسُنْ تعاهُدُكَ نَفْسَكَ بما تكونُ بِهِ للخيرِ أهلاً ؛ فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك ، أتاك الخيرُ يطلبُكَ ، كما يطلبُ الماءُ السَّيْلَ إلى الحُدُورَةِ [٤] » [٥] .

---

(١) « أقوال مأثورة » (ص ٤٤٠) .
(٢) « الإحياء » (٢/٣٥٧) .
(٣) أخرجه مسلمٌ (٧٧١) عن عليٍّ رضي الله عنه .
(٤) الحدورة : المكان المنحدر .
(٥) « الأدب الصغير والكبير » (ص ١٠) .

أخي الحبيب ، لا تيأسْ من إصلاحِ نفسِـكَ ؛ فإنَّ معَ العُسْرِ يُسْرًا ،وما مِنْ داء إلاَّ وله دواءٌ .

قال ابنُ المقفّع : « وعلى العاقلِ أنْ يُحْـصيَ على نفسِه مسـاوئها في الدِّينِ ، وفي الأخْلاقِ وفي الآدابِ، فيـجمعُ ذلك كلَّهُ في صدرِهِ أو في كتـابٍ، ثُمَّ يُكثر عرضه على نفسه ، ويُكَلِّفها إصلاحها ، ويُوظِّف ذلك عليها توظيفًا من إصْلاحِ الخلَّة أو الخلَّتين في اليـوم ، أو في الجمـعة ، أو الشَّـهْرِ ، فكُلَّمـا أصْلَحَ شيـئًا مَحَاهُ، وكُلَّما نَظَرَ إلى مَحْوِ استبشَرَ ، وكُلَّما نَظَرَ إلى ثابتٍ اكتأبَ » [1] .

وقالَ ابنُ حزْمٍ - رحمه اللهُ - متحدثًا عن تجرِبتِه مع نفسِه . وعن محاولتِه في التخلُّصِ من عيُوبِه . وعن النتائج التي حصلَ عليها من جرَّاءِ ذلك : « كانتْ فيَّ عيُوبٌ فلم أزَلْ بالرياضَـةِ واطِّلاعـي على مـا قـالت الأنبـيـاءُ صلواتُ الله عليـهم ، والأفاضل من الحكمـاء المتأخِّرين والمتقدِّمين في الأخـلاقِ ، وآداب النَّفسِ أُعاني مداواتها ، حتَّى أعان الله عزَّ وجلَّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومنِّه .

وتمامُ العَدْلِ ، ورياضَةُ النَّفْسِ ، والتَّصَرُّف بالأمـور هو الإقرار بها ؛ ليتَّعظ بذلك مُـتَّـعظٌ يومًـا إنْ شَاءَ الله ، فـمنهـا [2] كلفٌ في الرِّضى ، وإفـراطٌ في الغَـضَـبِ ، فلم أزَلْ أُداوي ذلـك ، حـتَّـى وقـفتُ عنـد تـرك إظهـارِ الغَـضَبِ جـملةً بالكلامِ ، والفعـل ، والتَّخـبُّط ، وامتنـعتُ ممَّا لا يحلُّ من الانتصـار ، وتحمَّلْتُ كم ذلك ثقـلاً شديدًا ، وصبَـرْتُ عَلَى مَضَضٍ [3] مُؤْلمٍ ، كـان ربَّما أمرضَني ، وأعجَزَني ذلك في الرِّضى ، وكَأنِّي سامحْتُ نفسي ؛ لأنَّها تمثَّلَتْ أنَّ تركَ ذلك لُؤْمٌ .

---

(١) المرجع السَّابق (ص٥٤) .
(٢) يعني عيوبه .
(٣) **المَضَض** : وجع المصيبة .

ومنها دُعابةٌ غالبةٌ ، فالذي قَدرْتُ عليـه منها إمساكي عمَّا يُغْضِب المُمَازِح ، وسامحْتُ نفسي فيها ؛ إذ رأيتُ أنَّ تركها من الانغلاق ، ومُضاهٍ للكبرِ .

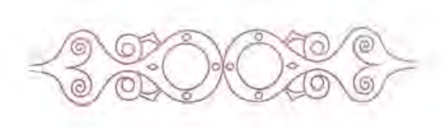
ومنها عُجْبٌ شديدٌ ، فناظر عَقْلي نفسي بما يعـرفه من عُيوبها ، حتَّى ذَهَبَ ذلك كُلُّهُ ، ولم يَبْقَ به - والحـمدُ لله - أثَرٌ ، بلْ كَلَّفْـتُ نفسي احـتقارَ قَـدْرِهَا جملةً ، واستعمال التَّواضُعِ .

ومنها حـركاتٌ كـانت تولِّدُها غرارةُ الصِّـبا [١] ، وضعفٌ في الإغْـضَاءِ ، فقصرتُ نفسي على تركها فذهبتْ .

ومنها محبَّةٌ في بُعْدِ الصِّيت [٢] والغلبة ، فالَّذي وقفتُ عليه في مُعاناة هذا الدَّاءِ الإمساكُ فيه عمَّا لا يحلُّ في الدِّيانَةِ ، والله المستعان على الباقي » [٣] .

وأخيرًا قال الشاعر :

وما حَسَنٌ أنْ يَمْـدَحَ المَرْءُ نَفْسَـهُ	ولكنَّ أخْـــلاقًـا تُذَمُّ وتُـمْــدَحُ



(١) **الصِّبا** : الفُتُوَّة والشباب .
(٢) **الصيت** : الذكر الجميل .
(٣) « الأخلاق والسِّيَرْ » (ص٣٣-٣٤) .

الصبر

لا شكَّ أنَّ الصبرَ من أَعْظَمِ صفاتِ المُحاورِ ، بل الأساسِ الذي يقومُ عليه أيُّ حوارٍ ، فمتى تَجَرَّعْتَ من محاوركَ الغُصَصَ ، وقابلْتَ ذلك بالابتسامةِ وحُسْنِ الأَدَبِ ، فقَدْ ارتَشَفْتَ النَّصْرَ العزيز ، وفُزْتَ بالظَّفَرِ الحميد ، واكتَسَبْتَ الذِّكْرَ الجَميل .

قال الشاعر :

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُطَالِبُهُ ... واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلاَّ فازَ بالظَّفْرِ

ونظرًا لأهميَّةِ الصَّبْرِ فقَدْ جَعَلَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الإمامةَ في الدِّين موروثةً عن الصَّبْرِ واليقين ؛ قال الله تباركَ وتعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴿٢٤﴾ ﴾ [السَّجْدَة : ٢٤] .

وذكرَ الله ربُّ العزَّةِ والجلالِ الصَّبْرَ في القرآن الكريم في نَيِّفٍ[١] وتسعين موضعًا ، وأضاف أكثرَ الدَّرجات والخيرات إلى الصَّبرِ ، وجعلها ثمرةً له ، وجمع للصَّابرين بين أمورٍ لم يجمعها لغيرهم ، قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿١٥٧﴾ ﴾ . [البقرة : ١٥٧][٢] .

وقَرَنَه بالصَّلاة في قوله تبارك وتعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴿١٥٣﴾ ﴾ . [البقرة : ١٥٣][٣] .

---

(١) **النَّيِّف** : من الواحد إلى التِّسعة ، ونَيَّفَ بمعنى زادَ .
(٢) انظر « عدة الصابرين » (ص٩٨) .
(٣) انظر « الفتاوى » (٩/١٠) .

وبشَّرنا نبيُّنا ﷺ بقوله : « ما يُصيبُ المسلمَ منْ نَصَبٍ [١] ، ولا وَصَبٍ [٢] ، ولا هَمٍّ ، ولا حَزَنٍ ، ولا أذىً ، ولا غَمٍّ - حتَّى الشَّوكَة يُشَاكُها - إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بها منْ خَطَايَاهُ » [٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيْراً يُصِبْ منْهُ » [٤] .

وأصلُ كلمة الصَّبر : هو المنع والحبس ، **فالصَّبْرُ** : حَبْسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ ، واللِّسَانِ عن التَّشكِّي، والجوارحِ عن لطمِ الخُدُودِ ، وشقِّ الثِّيابِ ، ونحوها [٥] .

وحقيقة الصَّبر : خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاقِ النَّفْسِ ، يُمْتنع به عن فعل ما لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ ، وهو قوَّةٌ منْ قوى النَّفْسِ التي بها صلاح شأنها ، وقوام أمرها ، وحين سُئل الجُنَيْد عن الصَّبْر قال : تَجَرُّعُ المرارَةِ من غَيْر تَعبُّسٍ » .

وقيل : « الصَّبْرُ : هو الوقوف مع البلاءِ بحسنِ الأدبِ » [٦] .

والمصائبُ تتفاوتُ ، ولكن أعظمها المصيبة في الدِّين ، فهي أعْظَمُ مصائب الدُّنيا والآخرة ، وهي نهاية الخُسْران الَّذي لا رِبْحَ معه ، والحِرْمان الَّذي لا طَمَعَ معه » [٧]

قال الشاعر :

إِذَا أَبْقَتِ الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ دِينَهُ ... فَمَا فَاتَهُ مِنهَا فَلَيْسَ بِضَائِرِ

---

(١) **النَّصَبُ** : الوجَعُ والتَّعَبْ .
(٢) **الوَصَبُ** : المرض .
(٣) أخرجه البخاريُّ - واللَّفظُ له - (٥٦٤١) و(٥٦٤٢) ، ومسلمٌ (٢٥٧٣) عن أبي سعيدٍ وأبي هريرة.
(٤) أخْرَجَهُ البخاريُّ (٥٦٤٥) .
(٥) « عدَّة الصَّابرين » (ص٢٧) .
(٦) المرجع السَّابق (ص٢٩) .
(٧) « **تسلية أهل المصائب** » (ص٢٤) .

فعلى المُحاور أنْ يَصْبِر على مُحاوره ، وإنْ كان ما يسمعه منه شِبْه الوساوس، فلا يَشُقّ عليه ، ولا يَعُدَّ ذلك حِمْلاً ثقيلاً ، بل يُهَوِّن من ذلك ؛ فإنَّ عَوَاقبَ الصبْر أحْلَى من جَنْي الشَّهْدِ [1] في الفمِّ .

ولقدْ أجادَ مَنْ قال - وأحْسَنَ - :

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِه ، مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لكن عَوَاقِبُهُ أحْلَى مِنَ العَسَلِ

فيا أخي إيَّاكَ أنْ تُقابلْ السيِّئة بمثلها ، فربَّما كان مَنْ تُحاوره اليومَ - في سابقِ علمِ الله - خيرًا منك غدًا ، ولِكُلِّ أجلٍ كتابٌ ، وإيَّاكَ أنْ تُسْمِعَهُ كلمةً يَحْفَظْها عنك ، حتَّى إذا اختمرتْ الفكرةُ في رأسه ، وأذن اللهُ له بالهداية ، فثابَ إلى رُشْده ، ورَجَعَ إلى صوابِه ، وقفَ الشَّيْطانُ في طريقه ، وقال له : اذكرْ تلك الكلمة ، فتكون أنتَ فتنةً له ، لكن إنْ تلطَّفْتَ معه بالجوابِ ، ولنْتَ له في الخطابِ ، فاتركه وإنْ لمْ يُوافقك ، فهو - مع مرورِ الزَّمان ، وتَخَمُّرِ الفكرةَ في رأسه ، وحُسْنِ تعاهُدك له - سوفَ يعود إليك ، هذا حكمُ الله ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تستوي الْحسنةُ ولا السَّيِّئةُ ادفعْ بالَّتي هي أحسن فإذَا الَّذي بينك وبينه عداوةٌ كأنَّهُ وليٌّ حميمٌ (٣٤) وما يُلقَّاها إلاَّ الَّذين صبروا وما يُلقَّاها إلاَّ ذُو حَظٍّ عظيمٍ (٣٥) ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٤ ، ٣٥] .

واعلمْ أخي أنَّ من حُسْنِ تَوفيق الله لك الصَّبْرَ على مَنْ تُحاورهُ من الإخوانِ فكُنْ - يا حفظك الله - كما قال الشَّاعرُ :

تَنَكَّرَ لي دَهْرِي ، ولَمْ يَدْرِ أنَّني أَعَزُّ ، وأحْداثُ الزَّمان تَهُونُ
وَظَلَّ يريني الدَّهْرُ كَيْفَ اغْتِرَارُهُ وَبِتُّ أُرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ [2]

---

(١) الشَّهْد - بضم الشين وفتحها - : عَسَل النَّحْلِ الَّذي لم يُعْصَرْ من شَمْعِهِ بَعْدُ .
(٢) « البداية والنِّهاية » (١١/ ١٦٠) ..

أو كما قال الآخر:

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْجَزَ الصَّبْرُ عَنْ صَبْرِي ... وَأَصْبِرُ حَتَّى يحكمَ اللهُ في أَمْرِي

وَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّني ... صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرَّ مِنَ الصَّبِرِ(١)



(١) الصَّبر: عُصَارَةُ شَجَرٍ مُرٌّ.

بَسْطُ الوَجْه

أي أخي، إنَّ من أخلاق الرَّجُل النَّبـيل ذي المروءة والأدب والتَّوَدُّد والتَّلَطُّف وبَسْطُ الوَجْهِ لمن يُحاوره ، فانتبهْ لهذا الأمر ؛ فهو غايةٌ في نُبْلِ النَّفسِ ، وصفاءِ المَعْدَنِ .

قال حبـيبُك رسول الله ﷺ : « لا تَحْقِـرَنَّ من المعروف شيئًا ، ولو أنْ تُكَلِّمَ أخاك ووَجْهُكَ إليه مُنْبَسِطٌ » [1] .

وقال حبيب بن أبي ثابتٍ - رحمه الله - : « من حُسْنِ خُلُقِ الرَّجُلِ أنْ يُحَدِّثَ صاحبَهُ وهو يتبسَّمُ » [2] .

والمحاور العـاقل هو الذي يُقْبلُ على مُحاوره بوجـه باشٍّ طَلْقٍ ، يذوبُ رِقَّةً وخُلُقًا ، ومن كـانت هذه صفاتُهُ كـان على التَّفكير ، واختـيار الكلمة المناسـبة لمقتـضى الحال ، وينظر لصاحـبه بشيءٍ من الثِّقَـةِ ، وليس مبالغًـا مَنْ قال : إنَّ الغضـاضة ، والغِلْظَة ، والاكـفهرار ، والعُـبُوس ، والإشاحـة ، والصُّدود من أخلاقِ جُفاة الأعرابِ ، وجنود التَّتار .

ولقد أجادَ مَنْ قال - وأحسَنَ - :

أَخُو البِشْرِ محبوبٌ عَلَى حُسْنِ بِشْرِهِ ... ولَنْ يَعْدَمَ البَغْضَـاءَ مَنْ كَانَ عَابِسا [3]

والعبوس وما يستصحـبه من كآبةٍ واضطرابِ نفسٍ دليلٌ على صِغَرِ النَّفْسِ ، أمَّا النفوس الكبيرة فيكتنفُها جوُّ السَّكِينةِ والطُّمأنينة [4] .

---

(١) أخْرجه أبو داود (٤٨٤ - ٤) وأحمـد (٥/ ٦٣) عن جابر بن سُلَيْم ، ومسلمٌ عن أبي ذرٍّ بلفظ : « ولو أنْ تَلْقَى أخَاكَ بوَجْه طَلْق » .

(٢) « روضة العقلاء » (ص٧٧) .

(٣) المرجع السَّابق (ص٧٥) .

(٤) « أقوال مأثورة » (ص١٨١) .

قيل لحكيم : « مَنْ أَضْيَقُ النَّاسِ طريقًا ، وأقلُّهم صديقًا ؟ » قال : « مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ بعبُوسِ وَجْهٍ ، واستطال عليهم بنفسه » (١) .

فكمْ من النَّاسِ مَنْ لا تراه إلاَّ عابِسَ الوَجْهِ ، مقطبَ الجبين ، لا يعرفُ التَّبسُّمَ واللَّباقة ، ولا يُوفَّق للبِشْرِ والطَّلاقة ، بلْ إنَّه ينظرُ للنَّاسِ شزرًا ، ويرمقُهم (٢) غيظًا وحنقًا ، لا لذنب ارتكبوه ، ولا لخطإٍ فعلوه ، وإنَّما هكذا يُوحي إليه طَبعُهُ ، وتدعوه إليه نَفْسُهُ ، وهذا الخُلُق مركَّبٌ من الكِبْرِ ، وغلظ الطَّبْعِ ؛ فإنَّ قلَّةَ البشاشة استهانةٌ بالنَّاسِ ، والاستهانة بالنَّاسِ تكونُ من الإعجابِ والكِبْرِ ، وقلَّةُ التَّبسُّمِ - ولا سيَّما عند الحوارِ - تكونُ من غلظِ الطَّبْعِ ، وهذا الخُلُق مُستقْبَحٌ وخاصَّة بالرُّؤَسَاءِ والأفاضل (٣) .

قال الشاعر :

البِشْرُ يُكْسِبُ أهْلَهُ صِدْقَ المَوَدَّةِ والمَحَبَّهْ
والتِّيهُ (٤) يَسْتَدْعِي لصَاحِبِهِ المَذَمَّةَ والمَسَبَّهْ (٥)

والمحاور الحكيم يُقْبِلُ على مُحاوره - ولا سيَّما إذا كانَ سُنِّيًّا مُنْصفًا عدلاً - بوجْهٍ طَلْقٍ لإدْخالِ السُّرور عليه ، واستلال ما في قلبه من تعكير ، وتحويلُ دفَّة الحديث لصالحِ الحقِّ ، سواءً أظهره الله على يديه ، أم على يد مَنْ يُحاوره .

قال ابن عقيل الحنبليُّ - رحمه الله - : « البِشْرُ مُؤنسٌ للعقُولِ ، ومن دواعي القَبُولِ ، والعُبُوسِ ضِدُّهُ » (٦) .

---

(١) المرجع السَّابق (ص١٧٨) .
(٢) يرمقهم : ينظر إليهم .
(٣) انظر « تهذيب الأخلاق » (ص٣٢) .
(٤) التِّيه : الكبرياء .
(٥) « عين الأدب والسيَاسة » (ص١٥٣) .
(٦) « الفنون » (٢/ ٦٣٥).

وقال ابن حبان - رحمه الله -: « البَشَاشَةُ إدامُ العلماءِ ، وسجيَّةُ[١] الحكماءِ ؛ لأنَّ البِشْرَ يُطْفِئُ نَارَ المُعانَدَة، ويُحْرِقُ هيجانَ المباغَضَة، وفيه تَحْصينٌ من الباغي، ومنجَاةٌ من السَّاعي[٢] »[٣] .

قال الشاعرُ:

الْقَ بالبِـشْـرِ مَنْ لَقِـيتَ منَ النَّا … سِ جَـمِـيعًـا ، ولاقِـهِمْ بالطَّلاقـهْ
تَجْنِ مِنْهُـمْ جَنَى ثمـارٍ ، فَـخُـذْهَا … طيِّـبًـا طَعْـمُـهُ ، لَذيذَ المَذَاقـهْ[٤]

وقال أبو جعفرٍ المنصور - رحمه الله - : « إنْ أَحْبَبْتَ أنْ يكثُرَ الثَّناءُ الجـميلُ عليك مِنَ النَّاسِ بغيرِ نائلٍ[٥] ، فالْقَهُمْ بِبِشْرٍ حَسَنٍ »[٦] .

وقال مُحمدُ بنُ حازم:

ومـا اكْـتَسَبَ المحـامِـدَ طَالِبُـوها … بِمِـثْلِ البِـشْـرِ والوَجْـهِ الطَّليقِ[٧]

وكانت العرَبُ تمدحُ طلقَ الوَجْه ، وتجْعَله دليـلاً على سِعَةِ الصَّدْرِ ، وجَوْدَةِ الكَفِّ ، وسخاوَةِ الطَّبْعِ ، وكَرَمِ السَّجاياَ ، ونداوَةِ الخاطِرِ .

قال أحَدُهُمْ:

ضَـحُـوكُ السِّـنِّ يَطْرَبُ للعَـطَايَا … ويَفْـرَحُ إنْ تَعَـرَّضَ للـسُّـؤَالِ

وقال عُرْوَة - رحمه الله - : « أُخْبِـرْتُ أنَّهُ مكتوبٌ في الحكْمَـة : يا بُنَيَّ ، لِيكُنْ وَجْـهُكَ بَسْـطًا ، ولْتَكُنْ كلمـتُكَ طَيِّـبَـةً ، تَكُـنْ أحبَّ إلى النَّاسِ من أنْ

---

(١) السَّجِيَّة : الخُلُقُ والطبيعة ، والجمع : سجَايا .
(٢) السَّاعي : الذي يسعَى بالوقيعة ؛ ليُفرِّق بين الأحبَّة .
(٣) « روضة العقلاء »(ص٧٥) .
(٤) المرجع السَّابق(ص٧٦) .
(٥) النَّائل : العطيَّة .
(٦) « عيَن الأدب »(ص١٥٤) .
(٧) « بهجة المجالس »(٢/ ٦٦٥) .

تُعْطِيَهُمُ العَطَاءَ » (١) .

وقال ابنُ حبان : « مَنْ بَشَّ للنَّاسِ وَجْهًا لم يكُنْ عندهم بدون الباذِلِ لهم ما يملُكُ » (٢) .

وقال أبو الطيِّب المتنبِّي :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها ولا مال فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إن لَمْ تُسْعِد الحالُ

والبشَاشَةُ عطرُ الأخْلاقِ ، ونفْحَةٌ من نفحاتِه ، لا تُكَلِّفُكَ جهدًا ولا مالاً ، فهي أقلُّ كلفَةً ، وأيسَرُ مؤنةً ، وأعظمُ أَجْرًا .

قيل للعتابيِّ : « إِنَّكَ تَلْقَى النَّاسَ كُلَّهم بالبِشْرِ ؟! » قال : « دَفْعُ ضغينَةٍ بأيْسَرِ مؤنةٍ ، واكتسابُ إخوانٍ بأيْسَرِ مبذولٍ » (٣) .

وقيل لأحَدِ السَّلَفِ : « ما أَبَشَّكَ ! » ، قال : « إنَّه يُقَوَّمُ (٤) عليَّ برخيصٍ (٥) » (٦) .

وقال أبو حنيفة لأصحابه : « إذا ناظرتم فأظهروا الضَّحك ، يقضِ عليكم الجمهور بالغَلَبَة » (٧) .

ومن عجائبِ ما جاءَ في ترجمةِ عبد اللهِ بن قدامَةَ أنَّه كان لا يُناظرُ أحدًا إلاَّ وهو يتبسَّمُ ، حتَّى قال بعضُ النَّاسِ : « هذا الشَّيْخُ يقتُلُ خَصْمَهُ بتبسُّمِه » (٨) .

---

(١) « روضة العقلاء » (ص٧٥) .
(٢) المرجع السابق (ص٧٥) .
(٣) « بهجة المجالس » (٢/٦٦٥) .
(٤) قَوَّمَ الشَّيْءَ : قَدَّرَ ثَمَنَه .
(٥) يقول : إنَّ البشاشةَ رخيصةٌ ، لا تُكَلِّفُهُ مالاً ولا جُهْدًا ، وإنَّها غالية وقيمة ؛ لأنَّها تجذب القلوب ، وتقتلع أسباب البغضاء .
(٦) « روضة العقلاء » (ص٧٥) .
(٧) « مناقب الشَّافعيِّ » للبيهقيِّ (١/١٩٨) .
(٨) « الذَّيل على طبقات الحنابلة » (٢/١٣٧) .

قال القاضي التنوخي:

الْقَ العَـــدوَّ بوَجْـــه لا قُـطُوبَ بِهِ ... يكَادُ يقـطُرُ منْ مـاء البَـشَـاشَـات

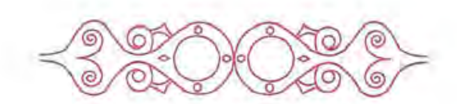
فَـأَحْـــزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَـى أَعَـادِيهِ ... في جِسْمِ حِقْـدٍ وثَوْبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ[1]

فكنْ أخي المحاور كما قال الشاعر:

فَـتَىً مــثْلُ صَنْوِ الماء أَمَّـــا لقَـاؤُهُ ... فَـبِـشْـرٌ وأَمَّـا وَعْـدُهُ فَـجَـمِـيلُ

يَسُـرُّكَ مُـفْـتَـراً ويُشْـرِقُ وَجْـهُـهُ ... إذَا اعْـتَلَّ مَذْمـومُ الفَعَـالِ[2] بَخيلُ

عَـيِيٌّ عَن الفَـحْــشَـاءِ أَمَّـا لسـانُهُ ... فَعَفٌ وأَمَّـا طَرْفُهُ[3] فَكَلِيلُ[4][5]



(١) «أدب الدُّنيا والدين» (ص١٨٢).

(٢) الفعَال - بفتح الفاء -: الفِعْل مصدر كالذَّهاب.

(٣) الطَّرْف: البَصَر.

(٤) كليل: مُتْعَب.

(٥) «روضة العقلاء» (ص٧٦).

التَّواضع

إنَّ التَّـواضُعَ - أخي المحاور - من أَهَمِّ طُرُقِ اكـتسـابِ الحكمَةَ ، وإصـابة الصواب في الأقوال والأفعال .

فـعن ابن عبَّـاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قـال : « مـا منْ آدميٍّ إلاَّ في رأسـه حكمةٌ بيَد مَلَك ، فإذا تَواضعَ قيل لِلمَلَك : ارفعْ حكمَتَهُ ، وإذَا تكبَّرَ قيل للمَلَكِ : ضَعْ حِكْمَتَهُ »(١) .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « على العاقلِ لزُومِ التَّواضُعِ ، ومُجانبة التَّكبُّرِ ، ولو لم يكنْ في التَّواضُعِ خَصْلَةٌ تحمله إلاَّ أنَّ المرء كُلَّمـا كَثُرَ تواضُعُهُ ازداد بذلك رِفْعَةً ، لكَانَ الواجبُ عليهِ ألاَّ يتزيَّا بغيره .

والتَّواضُع تواضُعانِ : أحدهما محمود ، والآخر مذموم .

والتَّواضع المحمود : ترك التطاولِ عَلى عبادِ الله ، والإزراء بهم .

والتَّواضُعِ المذموم : هو تواضُع المرءُ لذي الدُّنيا رغبةً في دُنياه .

فـالعاقل يلزم مـفارقـة التَواضُـعِ المذموم على الأحـوالِ كُلِّها ، ولا يُفـارق التَّواضُعَ المحمود على الجهاتِ كُلِّها »(٢) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زادَ اللهُ عبـدًا بعَفْوٍ إلاَّ عِزاً ، وما تَواضَعَ أحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ »(٣) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبَرِ : « إنَّ العَبْدَ إذا تَوَاضَعَ للهِ عزَّ وجلَّ

(١) أخـرجه الطَّبَـرانيُّ في الكبيـر (١٢/٢١٨) ، وحسَّنه الألبانيُّ في صـحيح الجـامع (٢/٥٦٧٥) ، والصَّحيحة (٥٣٨) .
(٢) « روضة العقلاء » (ص٥٩) .
(٣) أخْرَجَه مسلم مع شرح النَّوويِّ (٦/١٤١) .

رَفَعَ حكَمَتَهُ (١) ، قال : انتعشْ رَفَعَكَ الله ، فهو في نفسه حقيرٌ ، وفي أعيُنِ النَّاس كبيرٌ ، فإذا تكبَّرَ وعدَا طَوْرَهُ ، وهصَهُ إلى الأرضِ ، وقال : اخسأْ أَخْسَأَكَ الله ، فهو في نفسه كبيرٌ ، وفي أعينِ النَّاس حقيرٌ ، حتَّى إنَّه أحقرُ في أَعْيُنهم من الخنزير » (٢) .

قال الشاعرُ :

تَوَاضعْ تكُنْ كالنَّجْم لاَحَ (٣) لنَاظِرٍ ... عَلَى صَفَحَاتِ الماءِ وهو رَفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخانِ يَعلُو بنَفْسِه ... إلَى طَبَقَاتِ الجَوِّ وهو وضيعُ (٤)

وقال أبو يوسفَ يَعْقُوبُ بن إبراهيم - رحمه الله تعالى - : « يا قومُ ، أَريدوا بعلمكُم اللهَ تعالى ؛ فإنِّي لم أجلسْ مجلسًا قَطُّ أَنْوي فيه أنْ أتَوَاضَعَ إلاَّ لم أَقُمْ حتَّى أَعْلُوَهم ، ولم أَجْلِسْ مجلسًا قَطُّ أنوي أنْ أَعْلُوَهم إلاَّ لم أَقُمْ حتَّى أفتضحَ » (٥) .

قال البُحتريُّ :

دَنَوتَ تَوَاضُعًا وَعَلَوْتَ مَجْدًا ... فَشَأْنَاكَ انخفاضٌ وارتفاعُ
كَذَلك الشَّمْسُ تَبْعُدُ أن تُسَامى (٦) ... وَيَدْنو الضَّوْءُ منها والشُّعاعُ

---

(١) الحكَمَةُ - بفتحات- : حديدة في اللِّجام تكون عَلَى أنْف الفرَسِ وحَنَكِه ، تَمْنَعه عن مُخالفَةِ راكبِهِ .
وحديث عمر هذا كناية عن الإعزاز ؛ لأنَّ من صفة الذَّليل تنكيس رأسه .
(٢) أخْرَجَه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٩/ ٩٠) ، و إسْناده حَسَنٌ ، وانظر تخريجه في كتابِ جزء من حديث سفيان بن عُيَيْنَةَ بتحقيق الصومان .
(٣) لاَحَ : بَرَزَ وظَهَرَ .
(٤) « جواهر الأدب » (ص٧١٣) .
(٥) « تذكرة السَّامع والمتكلِّم » (ص٦٩) .
(٦) تُسَامى : تُفاخر .

وقال أيضًا :

كَـالبَـدْرِ أَفْـرَطَ فـي العُلُوِّ وَضَـوْءُهُ ... للعُصْبَةِ (١) السَّارينَ (٢) جِدُّ قريبُ

والمحاورُ الـعاقِلَ يرفعُ من شـأنِ الآخرينَ ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّ التكبُّـرَ يُؤَدِّي إلى كراهيته ، وكراهةِ ما عنده من الحقِّ .

نقل الإمامُ الشاطبيُّ عن أبي حامدٍ الغزاليِّ - رحمهما الله تعالى - قولَهُ : «أكثـرُ الجهـالات إنَّما رَسَـخَـتْ في قلُوبِ العوامِّ بتـعصُّبِ جَـهَلَةِ أهلِ الحقِّ ، أظهروا الحـقَّ في معـرضَ التَّحدِّي والإذلال ، ونظروا إلى ضُعَفَـاءِ الخُصُومِ بعينِ التَّحقيرِ والازدراء ، فثـارَتْ في بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ، ورَسَخَتْ في قلوبهم الاعـتقاداتُ البـاطِلَةُ ، وتعذَّرَ على العُلَمَـاءِ المتلطِّفينَ مَحْـوُها مع ظهورِ فسادها » .

قال أبو نواس :

حَذَّرتُكَ الكِبْـرَ لا يَغْشَـاكَ مَبْسَـمُهُ ... فَـإِنَّـهُ مَلْبَـسٌ نَازَعْـتَـهُ اللهَ

يا بُؤْسَ جِلْدٍ عَلَى جَـوفٍ مـجْوَفَـةٍ ... يَحْـوي مَقَـاذيْرَ ، إنْ كَلَّمْـتَـهُ تاهَا

إنِّي لأَمْـقُتُ نَفْـسِي عِـنْدَ نَخْـوَتِهـا ... فَكَـيْفَ آمَنُ مَـقْتَ اللهِ إيَّـاهَا ؟!

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله تعالى - في ذكرِ آدابِ الجدَلِ : « فأوَّلُ شيءٍ فيـه ممَّا عليه النَّاظر أنْ يقـصدَ التَّقـرُّبَ إلى الله سبحـانه وتعالى ، وطَلَبَ مرضاته في امتـثالِ أمره سبحانه فيمـا أمرَ به من المعروفِ ، والنَّهْي عن المنكرِ ، والدُّعاءَ إلى الحقِّ عن البَاطلِ ، ويتَّقي اللهَ أن يقـصدَ بنظره المباهاة ، وطلبَ الجاهِ والتَّكَسُّبَ ، والممـارَاة ، والمحكِ ، والرِّياءَ ، ويحذر أليـم عِقابَ الله سـبحـانه

---

(١) العُصْبَة : الجماعة .
(٢) السَّارين : السَّائرين ليلاً من السُّرى ، وهو سَيْرُ اللَّيل .

وتعالى ، ولا يكنْ قَصْدُهُ الظَّفَرَ بالخصم ، والسُّرور بالغلبةِ والقهر ؛ فإنَّه من دأْبِ الأَنْعامِ الفحولة : كالكِباشِ ، والدِّيَكَةِ » .

ثُمَّ قالَ : « ويَلْزَم الخشوعَ والتَّواضُعَ ، ويقصدُ الانقيادَ للحقِّ ، فيكون من جملة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ { الزُّمَر : ١٨ } »(١) .

وقال ابن المقفع : « تَحَفَّظْ في مجلسك وكلامك من التَّطاول على الأصحاب وطبْ نَفْسًا عن كثيرٍ ممَّا يَعْرِضُ لك مِنْ صَوَابِ القَوْلِ والرَّأْي مُدَارَةً ؛ لِئلاَّ يَظُنَّ أَصْحابُكَ أنَّ دَأْبَكَ التَّطاولَ عليهم »(٢) .

قال السهيليُّ :

تَوَاضَعْ إِذَا كُنْتَ تَبْغِي العُلا ... وَكُنْ راسيًا عِنْدَ صَفْوِ الغَضَبْ
فَخَفْضُ الفَتَى نَفْسَهُ رِفْعَةٌ ... لَهُ واعْتَبِرْ برُسُوبِ الذَّهَبْ

ومن اللطائف ما ذكره الماورديُّ - رحمه الله - قال : « حُكِيَ أنَّ مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير نَظَرَ إلى المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ ، وعليه حُلَّةٌ(٣) يسحبها ، ويمشي الخُيَلاءَ(٤) ، فقال : يا أبا عبد الله، ما هذه المِشْيَةُ التي يُبْغِضُها اللهُ ورسُولُهُ ؟! .

فقال المُهَلَّبُ : أما تَعْرِفُني ؟! .

فقال : بلْ أعرفُكَ ، أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ ، وآخِرُكَ جيفَةٌ قَذِرَةٌ ، وَحَشْوُكَ فيما بينَ ذلك بَوْلٌ وعَذِرَةٌ(٥) ، فأَخَذَ ابن عَوْفٍ هذا الكلام ، فَنَظَمَهُ شِعْرًا فقال :

---

(١) « الكافية في الجدل »(ص٥٢٩) .
(٢) « الأدب الصَّغير والكبير »(ص١٣٤) .
(٣) الحُلَّة : ثَوْبٌ له ظهارةٌ وبطانةٌ من جِنْسٍ واحد ، جمعها حُلَلٌ .
(٤) الخُيَلاء : الكبرياء ، واحتقار النَّاس ، والعُجْب عليهم .
(٥) العَذِرَة : الغائط .

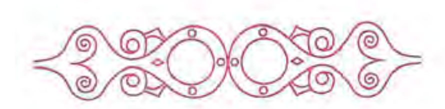
عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِه ... وكانَ بالأَمْسِ نُطْفَةً مَذِرَه

وفي غَدٍ -بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِه- ... يَصِيرُ في اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَهْ

وهو في تِيهِهِ ونَخْوَتِه ... مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمِلُ العَذِرَهْ » (١)

وأخيراً قال القحطانيُّ:

وإذا غَلَبْتَ الخَصْمَ لا تَهْزَأْ بِهِ ... فالعُجْبُ يُخْمِدُ جَمْرَةَ الإحْسانِ (٢)



(١) « أَدَبُ الدُّنيا والدِّين » (ص٢٣٦-٢٣٧) .
(٢) « النُّونيَّة » (ص٣٩) .

الرَّحْمَةُ بالخَصْمِ

أي أخي ، ما أَتْحَفَ الحوار بمثلِ استعمــال الرَّحْمَة ! ؛ فإنَّ صاحِبَ القَلْب القاسي يتــمنَّى لغيرِه الأَخْطَاءَ ، ويتصــيَّدها عليهم من غــير رحمة ولا شَـفَقَة ، والمحاور الرَّحيم يَسْعَى لهداية الآخرين ، فهو يُشْفِقُ عليهم ، وييأسُ لأخطائِهِم، فهو كالأب يفرحُ إذا أصابَ صغَارُهُ الصَّوابَ ، ويتمنَّى لهم الهُدى والرَّشاد .

ولهذا امتدَحَ الله سبحــانه وتعالى نبيَّهُ ﷺ ، فقال له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا [١] غَلِيظَ الْقَلْبِ [٢] لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

{ آل عمران : ١٥٩ } .

فقد كان عليه الصَّلاة والسَّلام رحيمًا برحمة الله لعباده ، ليِّنًا رفيقًا سَمْحًا ، مُبَشِّرًا مُـيسِّرًا ، لا منفِّرًا ولا معــسِّرًا ، يدعو النَّاسَ بسماحَةٍ جَـعَلَتْ الأمَّة تنقادُ إليه، كـيف لا وهو المبعــوث رحمةً لــلعالمين بنصٍّ الكتــابِ المبين ؟! ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ { الأنبياء : ١٠٧ }.

وتألَّقَتْ فيــه رحمته ولينه تألُّقَ الــشَّمسِ في رابعةِ النَّهار ، حــيثُ أتاه شابٌّ تجري في عروقه حرارةُ الشَّباب ، أتاهُ ليسأله شيئًا ، فيا تُرى عن ماذا سألَهُ ؟ لقد ســأله - وبكُلِّ جُــرْأَة - أنْ يأْذَنَ له بالزنى ! ، نَعَمْ الزِّنى ، فــانظر - يا أخــا الإسلام - كـيفَ كَانَ تَصَرُّفَ الرَّحــمة المهدَاة ، والنِّـعمَة المُسْـدَاة معَ هذا الشَّابِّ الجـريء ، هل سبَّــهُ ؟ ، هل زَجَرَهُ ونَهَـرَهُ ؟ ، هَلْ عَنَّفَهُ وَوَبَّخَــهُ ؟ ، لا وربِّ الكَعْبَــةِ ، ما فعَلَ من ذَلِكَ من شيءٍ ، إذًا مــاذا تراه قال نبيُّ الرَّحْمَــة ، وينبوع

---

(١) فظاً : سيِّئَ الخُلُق .
(٢) غَلِيظَ القَلْبِ : قاسي القلب .

الحنان ، ومَعِينُ الرِّفْقِ واللِّين ؟ .

والقوم من حـولِهِ قدْ زَجَروا الفـتى - وحُقَّ لهم ذلك - ولكنَّه ﷺ ناداهُ بصوت لَيِّنٍ ، فـقال : « ادْنُ » ، فدَنَا منه قـريبًا ، فـجَلَسَ ، ثُمَّ قال ﷺ : «أتُحِبـُّه لأُمِّكَ ؟ » ، قال : « لا والله يا رسـول الله جعلَني اللهُ فـداكَ » ، قال ﷺ : « ولا النَّاس يُحبُّونه لأُمَّهاتهمْ » .

قال ﷺ : « أَتُحِبُّهُ لابنتك ؟ » ، قال : « لا ، جعلَني اللهُ فداكَ » ، قال ﷺ : « ولا النَّاسُ يُحبُّونه لبناتهم » .

ثُمَّ أَخَذَ يُعَدِّدُ عليـه : أفتُحِبُّه لأختك ، لعمَّـتك ، لخالتك . . . ، والشَّابُّ يقول : « لا - والله - ، جعلَني اللهُ فداكَ » .

فوضعَ النَّبيُّ ﷺ يدَهُ الشَّريفـة عليه ، وقال : « اللَّهُمَّ اغْفـرْ ذَنْبَهُ ، وطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » ، فلم يكنْ الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيءٍ [1] .

فتدبَّر - أخي - وتأمَّلْ ، فهذا الشَّابُّ عارم الشَّهوة ، ثائر الغريزة ، صريحٌ في التَّعبـير عن نوازعه إلى حدِّ الإغرابِ والإثارةِ ، ومـع غرابَة طلبه الذي أثارَ عليه الجالسين ، لم يكنْ من المحاور الحكيم الرَّحيم ﷺ إلاَّ أنْ لَقيَهُ بهذا الرِّفق العـجيبِ ، والحـوار الهادئ مـراعاةً لحـاله ، ومع الحـوارِ المُناسِبِ ، واللَّمسَـة اللَّطيفة، والدُّعاء المبارك ، قام ذلك الفتى والزِّنى أكْرَهُ شيءٍ إلى نفسه .

دَعَـاني وَاعِـظي للحَـقِّ قُـدُمًـا ... وقَـالَ : ألاَ تَتُـوبُ عَنِ الغَـوَاني [2]

وقـال برأْفَـةٍ :أَوَجـدْتَ طرقًـا ... إِلَى القَلْـبِ المُعَنَّى [3] بالأمـاني؟

---

(١) أخرَجَـهُ الإمام أحمـد في المسند(٥/ ٢٥٦) بإسناد صحيح ، وصحَّحه الألبانيُّ في الـصَّحيـحة (١/ ٣٧٠) .

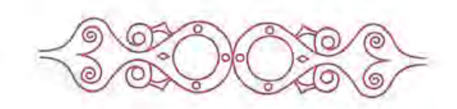
(٢) **الغواني** : جمع غانيةٍ ، وهي المرأة الجميلة ، سُميت غانية لاستغنائها بحُسْنها وجمالها عن الحُليِّ ونحوه .

(٣) **المعنَّى** : مأخوذ من عَنِيَ عَنَاءً ، وهو المتعبْ الحزين ، والمُكَلَّف ما يَشُقُّ عليه .

أَجَابَ القَلْبُ دَاعِيَهُ ، فَأَحْيَا   بها جَسَدًا ضَعِيفًا كَان واني [١]
فَحَمْدًا للَّذي أَعْطَى نَعِيمًا   وَحَمْدًا خالقي ، يا مَنْ هَدَاني

ولا تَظنَّ - أخي المحاور - أنَّ هذا الأثرَ العجيب الذي تركه ﷺ في نفْسِ هذا الشَّابِّ من هُدوءِ نفسٍ ، وإعراضٍ عن الزِّنى الذي كان يتوقُ إليه ، ويرغبُ في ، كان مُعْجِزَةً خارقةً للنَّبيِّ ﷺ لا تتكرَّرُ لغيرِه إلاَّ من بابِ الكرامَة أو خوارقَ العاداتِ ، كلاَّ فإنَّ محاورٍ ربَّانيِّ الوِجْهَة ، نبويِّ الطَّريقة ، يقتَدي برسول الله ﷺ قولاً وعملاً سيجد - بتوفيقِ الله تعالى - الأثَرَ نفسَهُ ، أو قريبًا منه [٢] .

دَعَاكُم إِلَى خَيْرِ الأمورِ مُحَمَّدٌ   وَلَيْسَ العَوَالي [٣] في القَنَا [٤] كالسَّوافِلِ



---

(١) الواني : الضَّعيف .
(٢) « المنهاج النَّبويّ في تربية الشَّباب » (ص١٥٣) .
(٣) العَوالي : جمع عالية ، وهي ما يلي موضع السِّنان من الرُّمح .
(٤) القَنَا : جمع قناة ، وهي رمحٌ في رأسِه سِنانٌ من الحديد الصلب الحادّ .

الهدوء

لا شكَّ أنَّ الغَضَّ من الصَّوتِ فيه أدَبٌ مع اللهِ ومع النَّاسِ ، وثقةٌ بالنَّفْسِ، واطمئنانٌ إلى صدْقِ الحديثِ وقوَّتِه .

ومن هنا كان توجيـه لُقمان لابنه بغضِّ الصَّوْتِ وتقصيـره ، قال الله تعالى على لِسانِهِ : ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان : ١٩].

قال ابنُ كثيرٍ - رحمه اللهُ - في تفسيرِ الآية : « ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ ، أي لا تُبالغْ في الكلامِ ، ولا ترفعْ صوتَكَ فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قـال مُجـاهدٌ وغيـرُ واحد : إنَّ أقْـبَحَ الأصواتِ لصـوت الحميـر ، أي غاية مَنْ رفع صوتَه أن يُشَـبَّهَ بالحمـيرِ في عُلُوِّه ورفعه ، ومع هذا هـو بغيضٌ إلى الله ، وهذا التَّشبـيه في هذا بالحميـرِ يقتضي تحريمَهُ ، وذَمَّهُ غايةَ الذَّمِّ »[١] .

وقال العلامة ابن سَعْديٌّ - رحمه الله - في تفسيرها : « ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أدبًا مع النَّاسِ ومع الله ، ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ ﴾ أي أفْظَعَـهَـا وأَبْشَعَهَا ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، فلو كانَ في رفعِ الصَّوتِ فائدَةٌ ومصلَحَةٌ ، لما اختصَّ بذلك الحمار الذي قد علمتَ خِسَّتَهُ وبَلادَتَهُ »[٢] .

ورفع الصوت حالَ المحاورَةِ من صفاتٍ وخصائص الجَدَل المذموم ؛ لأنَّ رَفْعَ الصوت - غالبًا - فوق مقدار الحاجَة لا يُظْهِر حقّاً ، ولا يُبْطِلُ باطلاً .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٤٣٠) .
(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (ص٦٤٩) .

قال الشاطبيُّ - رحمهُ اللهُ - : « رَفْعُ الصَّوْتِ من خـواصِّ الجَـدَلِ المذموم ؛ لأنَّ رَفْعَ الصَّـوتِ ، والخُروجَ عن الاعـتـدالِ فيـه ناشئٌ عن الهـوَى في الشَّيء المتكلم فيه » (١) .

فعلَى المحاورِ ألاَّ يرفَعَ صَوْتَهُ أكْثَرَ ممَّا يحتاجُ إليه السَّامعُ ، ففي ذلك رعونةٌ وإيذاءٌ ، فالمحاور غير الخطيب ، ورفع الصَّوْتِ لا يُقـوِّي حُجَّة صاحبه قَطُّ ، بلْ إنَّ صاحِبَ الحُجَّة الضَّعيفـة يحول إضفاء هذا الضَّعف بالحِدَّة والغِلْظَة والزُّعام ، وفي أكثر الحالات يكون صاحبَ الصَّوْتِ الهـادئ هو الذي يعكسُ عقلاً مُتَّزِنًا ، وفكرًا مُنتظمًـا ، وحُجَّةً ومـوضوعيَّـةً ، وانظر - رحمك الله - إلى البَحْـرِ تجد الصَّخَبَ والضَّجـيج على الشَّاطِئِ وعندَ الصُّخورِ ، حـيثُ الماءُ ضَحْلٌ لا جواهرَ فيـه ولا دُرَر ، وتجدْ الهُدُوءَ لدى الماءَ الأعـمق ، حيثُ نفائسُ البَـحْرِ وكُنُوزُهُ ، وفي بعْضِ الأمثالِ : « الماءُ الأَعْمَقُ أَهْدَأُ » .

وَقَدْ وُجِدَ - بالخِبْرَةِ والتَّجْرِبَةِ - أنَّ الصَّوتُ المعتدلُ الهادئ المتأنِّي ، من غَيْرِ صراخٍ أو صيـاحٍ ، ومن غَيْرِ إسْرارٍ وإخفـاتٍ هو الأَدْخَلُ في النّفوسِ ، والأَنْفَذُ إلى الأَعْماقِ ، والأَحْفَظُ لجلالِ الكلمةِ ، ووقَارِ المُتكَلِّمِ (٢) .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

أَرَى البَحْرَ حَيْثُ العُمْقُ والدُّرُّ هَادئًا — ويُلْقَى ضَجيْجُ البَـحْرِ عِنْدَ السَّواحلِ
فَكُنْ هَادئًا طَـبْـعًـا تَكُنْ ذا مَـهَـابَةٍ — ولا تَرْفَـعَنَّ الصَّوْتَ عِـنْدَ التَّجـادُلِ
فَـصَـوْتُكَ لا يُعْطيْكَ قُـوَّةَ حُـجَّـةٍ — وَغَـضُّكَ لا يُرْدِيْكَ بَـيْنَ الأَراذِلِ
فَـعَـقْـلُ الفَـتَى عُنْوانُهُ فـي لِسَـانِهِ — وَعِلْمُ الفَـتَى يُعْلِيْـهِ عَنْ كُلِّ سَـافِلِ

---

(١) « الاعتصام » (٢/ ٩٤) .
(٢) « في أصول الحوار » (ص٩٧) بتصرُّف .

فيا لله كَمْ مـن هادئٍ عَفِّ اللِّسان حَلِيمٍ كاظِمٍ للغيظِ أقـدرُ على نُصْرةِ الحَقِّ من غَيْرِه ! .

قال أبو عثمان بن الإمام الشافعيّ - رحمهما الله - : « ما سـمعتُ أبي يُناظِرُ أحدًا فرفَعَ صَوْتَهُ » (١) .

وقال الخطيبُ البغداديُّ - رحمه الله - في ذكر آداب الجدل والمناظرة : « ويستشعر في نفسه الوقَارَ ، ويستعـملَ الهُدوءَ ، وحُسْنَ السَّمْتِ ، وطُولَ الصَّمْتِ إلاَّ عندَ الحاجَة » (٢) .

وقال أيضًا : « وإن فحشَ الخَصْمُ في جـوابِه ، وأحالَ في حجاجـه ، فينبغي ألاَّ يحتدَّ عليه ؛ ليحذر من الصِّياحِ في وجْهِهِ ، والاستخفافُ به ؛ فإنَّ ذلك من أخْلاقِ السُّفَهَاء ، ومَنْ لا يتأدَّبُ بأدَبِ العلماء » (٣) .

وما من شَكٍّ أنَّ الأَحْبالَ الصَّوتيَّـة لا تنوبُ عن الحُجَّةِ القـويَّة ، وحقيـقة الحال، كما قال أحدُهم :

صِغَـارُ الأُسْـدِ أَكْثَـرُهـا زَئِيْـرًا ... وأَصْـرَمُـهَـا اللَّواتـي لا تزأرُ

رُويَ أنَّ المزَنيَّ - رحمه الله - ناظَرَهُ إنسـانٌ كثيرُ الصِّياحِ ، كثـيرُ الشَّغَبِ ، فقـال المُزَنيُّ : « أَخبَـرَنا الشافعيُّ أنَّ أبا حـنيفة ناظَرَ رجـلاً ، فكثُرَ صـياحُ أبي حنيفَـةَ، فمـرَّ رجلٌ وقال : أَخْطَأْتَ يا أبا حنيـفة . فقـال أبو حنيفـة : ما هذه المسـألَة ؟ . قـال الرَّجلُ : لا أدري . فقـال أبو حنيـفـة : فكيف عـرفتَ أنِّي أَخْطَأْتُ ؟! . فقـال الرَّجَلُ : لأنَّك إذا أَخْطَأْتَ صِحْتَ ، وإذَا أَصَـبْتَ رَفَقْتَ ؛ فعلمتُ أنَّك أَخطَأْتَ حيثُ رأيتُكَ تصيح ! » (٤) .

---

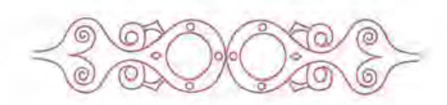
(١) « مناقب الشَّافعيِّ » للبيهقيِّ (١/ ٢١٧) .
(٢) « الفقيه والمتفقِّه » (٢/ ٢٧) .
(٣) المرجع السَّابق (٢/ ٣٥) .
(٤) « مناقب الشَّافعيِّ » للرَّازيِّ (ص-٣٦) .

ومن اللَّطائف أنَّ ابن عنينِ الشَّاعــر سمع فقيــهين كانا بدمَشْقَ يَنْبُــزُ أحدهما بالبغلِ ، والآخرُ بالجاموسِ ، فقال :

البَـغْلُ والجامـوسُ في جَـدَلَيْـهِمـا ... قَـدْ أَصْـبَـحَـا عِظَةً لكُـلِّ مُنَاظِرِ
بَرَزَا عَـشِـيَّـة لَيْلَة فَـتـبَـاحَـثـا ... هَذا بقَـرْنَيْـه ، وذَا بالحـافِـرِ
مَـا أتقنا غَـيْـرَ الصِّـياحِ كَـأَنَّما ... لُقِّنا جِـدَالَ المرتَـضَى بْنِ عَـسَاكِـرِ

ورحمَ اللهُ الإمامَ الشافعيَّ ، فقدْ كانَ يقولُ :

إذَا مـا كُـنْـتَ ذَا فَـضْلٍ وعِـلْمٍ ... بِمَـا اخْـتَلَفَ الأوائلُ والأواخِـرْ
فَـنَاظِـرْ مَـنْ تُنَـاظِـرُ فـي سُكُـونٍ ... حَلِـيـمًـا لا تُـلِحُّ ولا تُكَـابِرْ
يُفِـيدُكَ مـا اسـتـفـادَ بلا امـتنان ... منَ النُّكَت [١] اللَّطِيـفَـة والنَّوادرْ
وَإِيَّاكَ الـلَّجُـوجَ [٢] وَمَنْ يُرَائِي ... بأَنِّي قَـدْ غَلَبْتُ ، ومَنْ يُفَـاخِـرْ
فَـإِنَّ الشَّـرَّ في جَـنَبَـاتِ هذَا ... يُمَنِّي بالتَّـقَـاطُعِ والتَّـدابُرْ [٣]



---

(١) النُّكَت : جَمع نُكْتَـة ، وهي الفكرَة اللَّطيفة المُؤثِّرَة في النَّفْسِ ، والمسألَـة العلميَّة الدَّقيـقة ، يُتَوَصَّل إليها بدقَّة وإنعام فكرٍ .

(٢) اللَّجوجَ : المَتمـاديَ في الخصـومة ، مـأخوذٌ من لجَّ في الأمـر لَجَاجًـا ولجاجـةً ، إذا لازَمَهُ وأبى الانصراف عنه .

(٣) ديوان الشَّافعيِّ (ص٦١) تحقيق البقاعي .

الصِّدْق

لا شكَّ أنَّ الصِّـدْقَ من أَهَمِّ صـفاتِ المحـاور ، فالـنَّاسُ إذا علموا صِـدْقَ اللَّهـجة من المحـاور أكرمـوه ، وأجلُّوه وسوَّدوه ، وحـرصوا على صُـحْبَـتِه ، وأصاخـوا السَّمْعَ لحواره ، واستنَاروا برأيه ، وأَخَـذوا بقولِه ، فتطيبُ حـياته ، ويكثُرُ أُنْسُـهُ ، وتسْعَدُ نَفْسُهُ ، واللهُ سـبحانه وتعالى أمَـرَ بِالصِّدْقِ ، وأَثْنَى على الصَّادِقينَ ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ { التَّوبَة : ١١٩ } .

وأَخْبَرَ سبحـانه وتعالى أنَّ الصَّادقينَ ينفعهم صِدْقُهم يومَ القـيامَةِ ، فقال : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾ .

{ المائدة : ١١٩ } .

وقال سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ { الأحزاب : ٢٤ } .

وأَخْبَرَ سبحانه وتعالى أنَّ الشَّيَاطين تُنَزَّل عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ ، فقال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) ﴾ { الشُّعَرَاء : ٢٢١ ، ٢٢٢ } ، فَعَلَى قَدْرِ كذبِ الشَّخْصِ تمدُّه الشَّيَاطينُ في غيِّه وضلاله .

وفضلاً عن ذلك فـالصِّـدْقُ يهدي إلى البرِّ ، والبرُّ يهـدي إلى الجنَّةِ ، فعن ابن مسعـودٍ ﷺ قال : قالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إنَّ الصِّدْقَ يَهْـدِي إلى البِرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهْـدِي إلى الجنَّة ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يُكْتَبَ عِنْـدَ الله صِدِّيقًا ، وإنَّ الكذِبَ يَهْـدي إلى الفُجُورِ ، وإنَّ الفُـجُورَ يَهْـدِي إِلَى النَّارِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا » (١) .

---

(١) أَخْرَجَهُ البخاريُّ (٦٠٩٤) .

وفي روايةٍ لمسلم : « عَلَيْكُم بالصِّدْق ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البرِّ ، وإِنَّ البرَّ يَهْدي إِلَى الجَنَّة ، وما يزالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ، ويتحرَّى الصِّدْقَ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا ، وإِيَّاكُمْ والكَذِبَ ؛ فإِنَّ الكَذِبَ يَهْدي إلى الفُجُور ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدي إلى النَّار ، وما يَزالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ، ويتحرَّى الكَذِبَ ، حتَّى يُكْتَبَ عندَ الله كذَّابًا » [١] .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « كُلُّ شيءٍ يُسْتَعارُ ليُتَجَمَّلَ بِه سَهْلٌ وجودُهُ خلَا اللِّسان ؛ فإِنَّهُ لا يُنْبِئُ إلاَّ عمَّا عُوِّدَ ، والصِّدْقُ يُنْجِي ، والكذبُ يُرْدي ، ومَنْ غَلَبَ لسانَهُ أَمَّرَهُ قومُهُ ، ومَنْ أَكْثَرَ الكذبَ لم يتركْ لنَفْسِهِ شيئًا يُصَدَّق به ، ولا يَكْذِبُ إلاَّ مَنْ هَانَتْ عليه نَفْسُهُ » [٢] .

قال الشاعرُ :

الكَذِبُ مُرْدِيكَ ، وَإِنْ لم تَخَفْ ... والصِّدْقُ مُنْجِيكَ عَلَى كُلِّ حَال
فَانْطُقْ بِمَا شِئْتَ تَجِدْ غِبَّهُ [٣] ... لَمْ تُبْتَخَسْ [٤] وَزَنَةُ مِثْقَالِ [٥]

وقال آخرُ :

كَذَبْتَ وَمَنْ يَكْذِب فَإِنَّ جَزَاءَهُ ... إِذَا مَا أَتَى بالصِّدْقِ أَلاَّ يُصَدَّقَا
إِذَا عُرِفَ الكَذَّابُ بِالكَذِبِ لَمْ يَزَلْ ... لَدَى النَّاسِ كَذَّابًا وَإِنْ كَانَ صَادِقا
وَمِنْ آفَةِ الكَذَّابِ نِسْيَانُ كَذْبِهِ ... وَتَلْقَاهُ ذَا فِقْهٍ إِذَا كَانَ حَاذِقا [٦]

وصِدْقُكَ أخي المحاور في حوارك مَدْعاةٌ لقبول حوارك ، ألا تَرَى أنَّ رسولَ

---

(١) أخْرَجَ مُسْلِم (٢٦٠٧) .
(٢) « روضة العُقلاء » (ص٥٢) .
(٣) غِبُّ الشَّيْء : عَاقِبَتُهُ .
(٤) لَمْ تُبْتَخَسْ : لَمْ تُنْقَصْ .
(٥) « روضة العقلاء » (ص٥٢) .
(٦) المرجع السَّابق .

الله ﷺ قال للمشركين : « أَرَأَيْتَكُمْ[١] لو أخبرتُكم أنَّ خَيْلاً تخرُجُ بِسَفْحِ هذا الجَبَلِ ، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ » ، قالوا : « ما جَرَّبْنا عليك كَذِبًا » .

وفي رواية أخرى للبخاريِّ : « أرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أنَّ العدوَّ يُصَبِّحُكُمْ أو يُمَسِّيكُمْ[٢] ، أمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُوني ؟ » قالوا : « بَلَى »[٣] .

وهرَقْلُ لَمَّا سَأَلَ مُشْرِكِي مكَّةَ عن رسـولِ الله ﷺ فقال لهم : « فَهَلْ كُنْتُم تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قبْلَ أنْ يقولَ ما قَالَ ؟ » قال أبو سُفيانَ : « لا » ، فقال هرَقْلُ : « فقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يكُنْ لِيَذَرَ الكذِبَ على النَّاسِ ، ويكذِبَ على اللهِ »[٤] .

قالَ الشاعرُ :

عَـوِّدْ لسَـانَكَ قَوْلَ الخَـيْـرِ تَحْظَ به ... إنَّ اللِّســانَ لما عَـوَّدْتَ مُـعْـتَــادُ
مُـوَكَّـلٌ بِتَـقــاضي مـا سَـنَنْتَ لَهُ ... في الخَيْرِ والشَّرِّ فانْظُرْ كَيْفَ ترتادُ[٥]

وبصِدْقِ الحوارِ تُقْطَعُ مجـادلاتٌ ، وتزولُ إشكالاتٌ ، ومن ذلكَ قولُ كَعْبُ بن مـالك رضي الله عنه لرَسولِ الله ﷺ لَمَّا تَخَلَّـفَ كَعْبٌ عن الغَـزْوِ : « إنِّي واللهِ لو جلسْتُ عندَ غيرِكَ من أَهْلِ الدُّنيا ، لرأيتُ أنْ سَـأَخْرجَ من سَخَطِه بعُذْرٍ ، ولقد أُعْطيتُ جَـدَلاً ، ولكني - واللهِ - لقدْ علمتُ لَئِنْ حـدثتُكَ اليومَ حـديثَ كَذِبٍ تَرْضى به عنِّي ، لَيُـوشِكَنَّ اللهُ أنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، ولَئِـنْ حَدثْتُكَ اليـومَ حديثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فـيه ، إني لأرجو فيه عُقْـبَى اللهِ » ، ثُمَّ قالَ كعبٌ : « واللهِ ، ما كانَ لي عُذْرٌ ، واللهِ ، مـا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ منِّي حينَ تَخَلَّفْتُ عنك »

---

(١) أرأيتكم : أخبروني .
(٢) يَعْنِي يُغِير عليكم صباحًا أو مساءً .
(٣) أخرجَهُ البخاريُّ (٤٧٧٠) و(٤٨٠١) و(٤٩٧١) و(٤٩٧٢) ، ومسلم (٢٠٨) عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما .
(٤) أخرَجَهُ البخاريُّ (٧) و(٢٩٤١) و(٤٥٥٣) ، ومسلم (١٧٧٣) .
(٥) « أدب الدُّنيا والدِّين » للماوردي (ص٢٦٣) .

فقال رسولُ الله ﷺ : « أمَّا هذا فقد صدق ، فقمْ حتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيك »[1] .

والصِّدْقُ : هو أن يُخْبِرَ المحاورَ عمَّا يعتقده أنَّه الصَّواب ، وأنَّه مطابقٌ للواقعِ بِلا زيادَةٍ ، ولا نُقْصانٍ .

وكما يكون الصِّدْق بالقَوْلِ ، يكونُ بالفعلِ ، والإشَارَةُ باليدِّ ، أو هَزِّ الرَّأْسِ، وقَدْ يكونُ بالسُّكوتِ .

وضِدُّه الكَذب ، وهو عملٌ مرذولٌ ، وصِفَةٌ ذميمةٌ ، وخَصْلَةٌ من خصالِ النِّفاقِ ، وشُعْبَةٌ من شُعَبِ الكفر ، والكذبُ قبيحٌ ، وأَقْبَحُ الكذب القولُ على الله بغيرِ علمٍ ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) ﴾ [النَّحْل : ١١٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ [الزُّمَر : ٦٠] .

وعن المُغيرةَ بن شُعْبَةَ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « إنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ على أحَدٍ ، فَمَنْ كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّدًا ، فليتبوأ مقعده من النَّارِ »[2] .

ومن ذلك الكذب على أهلِ العلْمِ ، فينقلُ عنهم خلافَ قَولِهم ، أو ينقل عنهم كلامًا ناقصًا ، أو يقطَعَ عبارةً عن سياقها ، أو يعزلها عن مناسبتها ؛ ليقصرها على خدمة رأيه ، أو ينسب إليهم كلامًا لم يصحَّ عنهم البتَّةَ فهذا دليلٌ على ضِعَةِ النَّفسِ ، وحقارة الشَّأْن ، ويُنْظَر لِصاحِبه بعينِ الخيانَة، وفي منثورِ الحكَم : « الكذَّاب لِصٌّ ؛ لأنَّ اللِّصَّ يسرقُ مالَكَ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٤١٨) ، ومسلمٌ (٢٧٦٩) .
(٢) أخرجه البخاريُّ (١/ ٣٥) ، ومسلمٌ (١/ ١٠) برقم (٤) .

والكذَّابُ يسرقُ عَقْلَكَ » (١) .

قال الشاعرُ :

إذَا مَـــا المَرءُ أَخْطَأَهُ ثَلاثٌ ... فَبِعْهُ ولَوْ بِكَفٍّ مِنْ رَمَادِ

سَلامَةُ صَدْرِهِ والصِّدْقُ مِنْهُ ... وَكِتْمَانُ السَّرَائِرِ في الفُؤَادِ (٢)

وقال ابن حبان - رحمه الله - : « اللِّسانُ سَبُعٌ عَقُورٌ ، إنْ ضَبَطَهُ صاحبُهُ سَلِمَ ، وإنْ خَلَّى عنه عَقَرَهُ ، وبفَمِه يُفْتَضَحُ الكذوب ، فالعاقلُ لا يشتغل بالخَوْضِ فيما لا يعلمُ ؛ فَيُتَّهَمَ فيما يعلَمُ ؛ لأنَّ رأْسَ الذُنوبِ الكَذِبُ ، وهو يُبْدي الفضائح ، ويكتم المحاسن ، ولا يجب على المرءِ إذا سَمِعَ شيئًا يعيب أنْ يُحَدِّثَ به ؛ لأنَّ مَنْ حَدَّثَ عن كُلِّ شيءٍ أَزْرَى برأيه ، وأَفْسَدَ صِدْقَهُ » (٣) .

وقال أيضًا : « الصِّدْقُ يَرْفَع المَرْءَ في الدَّارَيْنِ ، كما أنَّ الكذب يَهْوِي به في الحالين ، ولو لم يكن في الصِّدْقِ خَصْلَةٌ تُحْمَدُ إلاَّ أنَّ المرءَ إذَا عُرِفَ به قُبِلَ كَذِبُهُ وصارَ صدقًا عِنْدَ مَنْ يسمَعه ، لكان الواجبُ علَى العاقِلِ أنْ يبْلُغَ مجْهودَهُ في رياضة لِسَانِه ، حَتَّى يَسْتقيمَ له عَلَى الصِّدْقِ ، ومُجَانَبَةِ الكذبِ » (٤) .

وقال بعضُ الحكماء : « عَلَيْكَ بالصِّدْق ، فما السَّيْفُ القاطعُ في كفِّ الرَّجُلِ الشُّجاع بأَعَزَّ من الصدْقِ ، والصِدْقُ عِزٌّ وإنْ كان منه ما تكره ، والكذِبُ ذُلٌّ ، وإن كانَ فيه ما تُحِبُّ ، ومَنْ عُرِفَ بالكَذِبِ اتُّهِمَ بِالصِّدْقِ » (٥) .

وقال طرفُ بن طريفٍ : « ما يَسُرُّني أني كذبتُ ، وأنِّي لي الدُّنيا وما فيها » (٦) .

---

(١) « آدب الدنيا والدين » (ص٢٦١) .
(٢) « روضة العقلاء » (ص٥٣) .
(٣) المرجع السَّابق (ص٥٣) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٥٤) .
(٥) « المحاسن والمساوئ » (ص٤٣٢) .
(٦) « السِّيَرُ » (٦/١٢٨) .

وقال بعضُ الحكماء: « الصِّدْقُ عِزٌّ ، والكَذِبُ خُضُوعٌ » [(١)] .

وقال آخـرُ : « لو لَم يترك العـاقِلُ الكذبَ إلاَّ مُرُوءَةً ، لقـد كان حـقيـقًا بذلك، فكيف وفيه المَأْثَمُ والعارُ ؟! » .

وقال الشاعرُ :

إِذَا الأمـــورُ تَـزَاوَجَـتْ ... فـالصِّـدْقُ أَكْـرَمُـهـا نتَـاجـا
والصِّـدْقُ يعـقـدُ فَـوْقَ رأ ... سِ حَليـفـه بالصِّـدْقِ تَاجـا
والصِّـدْقُ يَـقْـدَحُ زَنْدُهُ [(٢)] ... في كُلِّ نَـاحِـيَـةٍ سِـرَاجـا [(٣)]

وقال ابنُ السمّاك: « ما أَحْسَبُني أُوْجَرُ علَى تركِ الكذبِ؛ لأنِّي أتركُهُ أَنَفَةً» [(٤)].

وقال الشَّعبيُّ : « عَلَيْكَ بالصِّـدْقِ حيثُ ترى أَنَّهُ يضـرُّكَ ؛ فإنَّه ينفـعُكَ ، واجتنبْ الكذبَ حيثُ ترى أنَّه ينفَعُكَ ؛ فإنَّه يَضُرُّكَ » .

وقال الشافعيُّ - رحمه الله - : « آلاتُ الرِّياسة خَـمْسٌ : صدْقُ اللَّهْـجَةِ ، وكِتْمانُ السِّرِّ ، والوفاءُ بالعَهْدِ ، وابتداءُ النَّصيحَةِ ، وأداءُ الأمانةِ » [(٥)] .

وأخيرًا قالَ الشاعرُ:

كَمْ مِنْ حَسِيبٍ كَـرِيمٍ كَانَ ذا شَرَفٍ ... قَدْ شَانَهُ الكَذِبُ وَسَطَ الحَيِّ إنْ عمدا
وآخـرٍ كَانَ صُـعْلُوكًـا [(٦)] فَـشَرَّفَـهُ ... صدْقُ الحَديثِ وقولٌ جَانَبَ الفَنَدا[(٧)]
فَـصَارَ هَذَا شَـرِيفًـا فَوْقَ صَـاحِبِـهِ ... وَصَـارَ هَذَا وَضِيـعًـا تَحْتَـهُ أَبَدا [(٨)]

---

(١) « المحاسن والمساوئ » (ص٤٣٣) .
(٢) **الزَّنْدُ في الأصل** : العود الذي يقتدح به النَّار ، جمعه أَزْناد وزِناد .
(٣) « المحاسن والمساوئ » (ص٤٣٣) .
(٤) المرجع السَّابق (ص٤٣٣) .
(٥) « السير » (١٠/ ٤٢) .
(٦) **صُعْلُوكًا** : فقيرًا .
(٧) **الفَنَدُ - بفتحتَين -** : الكَذِب .
(٨) « روضة العقلاء » (ص٥٥) .

الإنصاف

أي أخي ، لا شكَّ أنَّ الإنصافَ في المُحاورَة منْ صـفات الرَّبَّانيِّين الذين لا يرجونَ إلاَّ الحقَّ ، فـهو آية حُسْنِ الخُلُقِ ، وعُنوانُ عُلُوِّ الهـمَّة ، يدلُّ على نفسٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، وأُفُقٍ واسعٍ ، ونظرٍ في العواقب بعيدٍ .

ومن الإنصافِ قَبُول الحقِّ من كُلِّ مَنْ قاله كـائنًا من كانَ ، حتَّى من المُبتَدِعِ بلْ الكافر ، وهذا هو لُبُّ الإنْصاف ولُبابُهُ ، بلْ مَرْبَطُ الفَرْسِ وبيتُ القَصِيد .

قال اللهُ تبـاركَ وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة : ٨] .

وعَنْ قتيلة بنت صَيْـفيٍّ الجُهَنِيَّة قالتْ : « أَتَى حبـرٌ من الأحبارِ رسولَ الله ﷺ ، فقال : « يا مُـحَمَّدُ ، نِعْمَ القَومُ أنتم ، لولا أنَّكم تُشْركـون » ، فقال رسول الله ﷺ : « سُبْحـانَ الله ، ومـا ذاكَ ؟! »، قال : « تقـولون - إذا حلفتم- والكَعْبَةِ ! » .

قالتْ : فَـأَمْهَلَ رسـولُ الله ﷺ شيئًـا ، ثم قال : « إنَّه قد قـال . فَمَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلفْ بربِّ الكَعْبَةِ » .

قال : « يا مُحَمَّدُ ، نِعْمَ القومُ أنتم ، لولا أنَّكم تجعلون لله نداً ! » ، قال : « سُبْحانَ الله وما ذاكَ ؟! » ، قال : « تقولون : ما شاءَ اللهُ وشئتُ » .

قالتْ : فأَمْهَلَ رسولُ الله ﷺ شيئًا ، ثُمَّ قال : « إنَّه قدْ قالَ ، فَمَنْ قال : ما شاءَ اللهُ ، فليفصلْ بينهما ثُمَّ شئْتَ »[1] .

---

(١) أخرَجَهُ أحْـمَد (٦/ ٣٧١-٣٧٢) ، والحاكم (٤/ ٢٩٧) ، و صحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ ، وصـحَّحهُ - أيضًا - الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢/ ٦٢١٤) ، والصَّحيحة (١٣٦) .

وقال في قصَّة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشَّيْطان الذي أراد أنْ يسرقَ مِن طعامِ الزَّكَاة ، فأمسكه ثمَّ أطلقه ، ثُمَّ قال له في الثَّالثة : « لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسولِ الله ﷺ ، وهَذَا آخرُ ثلاثِ مرَّاتٍ أنَّكَ تزعمُ لا نعودُ ، ثُمَّ تعود » .

قال : « دَعْني أُعَلِّمْكَ كلماتٍ ينفعُك اللهُ بها » ، قلتُ : « ما هُنَّ ؟ » ، قال : « إذا أَوَيْتَ إلى فِراشِكَ ، فاقرأْ آيةَ الكُرسيِّ ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حتَّى تختمَ الآية ؛ فإنَّك لَنْ يزالَ عليك من الله حافظٌ ، ولا يَقْرُبُكَ شيطانٌ حتَّى تُصْبِحَ » ، فقال رسولُ الله ﷺ : « أَمَا إنَّه قَدْ صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ » [1] .

قال الشاعرُ :

عُـداتي [2] لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ ومِنَّةٌ ... فلا أَبْعَدَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الأَعَادِيَا

هُمْ بَحَثُوا عَنْ سَوْءَتي فَاجْتَنَبْتُها ... وهم نافسوني ، فاكْتَسَبْتُ المعاليَا

وفي هذا الباب يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « واللهُ قدْ أَمَرَنا ألاَّ نقول عليه إلاَّ الحقَّ ، وألاَّ نقولَ عليه إلاَّ بعلْمٍ ، وأمرنا بالعَدْلِ والقِسْطِ ، فلا يجوزُ لنا إذا قال يهوديٌّ أو نصرانيٌّ - فضلاً عن الرَّافضيِّ - قولاً فيه حقٌّ أن نتركه ، أو نَردَّهُ كُلَّهُ ، بلْ لا نردُّ إلاَّ ما فيه من الباطلِ دونَ ما فيه من الحقِّ » [3] .

وقال الشوكانيُّ - رحمه الله - : « ومن الآفاتِ المانعة عن الرُّجوعِ إلى الحقِّ أن يكونَ المتكلِّمُ بالحقِّ حدثَ السِّنِّ بالنِّسْبَة إلى مَنْ يُناظِره ، أو قليلَ العلْمِ ، أو الشُّهرة في النَّاس ، والآخرُ عكسَ ذلك ؛ فإنَّه قد تحمله حَمِيَّةُ الجاهليَّة ، والعَصَبِيَّةُ الشَّيطانيَّةُ على التَّمسُّك بالباطلِ أَنَفَةً منه عن الرُّجوعِ إلى قَوْلِ مَنْ هو أصْغَرُ منه سِنّاً ، أو أقلُّ منه علمًا ، أو أَخْفَى منه شُهْرَةً ، ظَنّاً منه أنَّ في ذلك

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ (٣٢٧٥) و(٥٠١٠) .
(٢) العُدَاة : جمع عَاد .
(٣) « منهاج السنَّة النَّبويَّة » (٣٤٢/٢) .

عليه ما يُحطُّ منه ، وينقُصُ ما هو فيه ، وهذا الظَّنُّ فاسدٌ ؛ فإنَّ الحطَّ والنَّقْصَ إنَّما هو في التَّصميمِ على الباطِلِ ، والْعُلُوَّ والشَّرف في الرُّجوع إلى الحقِّ بيدِ مَنْ كانَ ، وعلى أيِّ وجهٍ حصَلَ » [١] .

وفي ذلك يقولُ ابنُ القيِّم - رحمه الله - في نونيته :

وتَعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبسهما يَلْقَى الرَّدَى بَمَذَمَّةٍ وَهَوانِ
ثوبَ مِنَ الجَهْلِ المركَّب فَوْقَهُ ثَوْبُ التَّعَصُّب ، بِئْسَتِ الثَّوبانِ
وتَحَلَّ بالإِنْصافِ أَفْخَرِ حُلَّةٍ زِيْنَتْ بها الأَعْطَافُ[٢] والكَتِفانِ[٣]

وإذا ذكرتَ ما لكَ وما عليكَ من الأدلَّة والبراهين ، فقد بلغتَ قمَّة الإنْصاف ؛ فإنَّ كتم أدلَّة الطَّرف الآخر من أخلاق المغضوب عليهم ، الذين يلبسونَ الحقَّ بالباطِلِ ؛ قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران : ٧١] .

وأَخَذَ بعضُ المبتدعةِ هذه الصِّفَة الذَّميمة عن اليهودِ ؛ ولهذا قال وَكِيعُ بْنُ الجرَّاح - رحمه الله - : « أَهْلُ العِلْمِ يكتبونَ ما لهم وما عليهم ، وأهلُ الأهواءِ لا يكتبون إلاَّ ما لهم » [٤] .

وقال ابنُ تيمية - رحمه الله - : « يجبُ أن يكونَ الخطابُ في المسائلِ بطريق ذكر دليل كُلِّ قَوْلٍ ، ومُعارَضَة الآخر له ؛ حتَّى يتبيَّنَ الحقُّ بطريقه لِمَنْ يُريدُ اللهُ هدايته » [٥] .

---

(١) « أدب الطَّلَب ومنتهى الأرب » (ص٦٦) .
(٢) **الأعْطاف** : جمع عطف ، وهو الجانب .
(٣) « نونيَّة ابن القيم بشرح محمد خليل هرَّاس » (١/٥٣) .
(٤) « سنن الدَّارقَطْنيِّ » (١/٢٦) .
(٥) « الفتاوى » (٨/١٠٨) .

قال الشاعرُ:

إِذا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ لو كان يعقلُ

وقدْ تقول قولاً تراهُ صوابًا ، فينقُدُهُ آخرُ بميزانِ العلْمِ الصَّحيح ، ولم تجدْ حَرَجًا من أنْ تقولَ : أَخْطَأْتُ في قولي ، ومتى فعلتَ ذلك فقدْ أَنْصَفْتَ نَفْسَكَ من نفْسِكَ ، ولو أَخَذَتْ هذه الخصلَةُ حَظَّها من النُّفوسِ لَعَمَّ الائتلافُ ، ولَقَلَّ الاختلافُ .

عن الرَّبيع بن سليمان قال: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول : « ما أَورَدْتُ الحقَّ والحُجَّةَ على أَحَدٍ فَقَبِلَها إلاَّ هِبْتُهُ ، واعتَقَدْتُ مَوَدَّتَهُ ، ولا كابرَني على الحقِّ أَحَدٌ ، ودافَعَ الحُجَّةَ إلاَّ سقطَ مِنْ عَيْني » [١] .

قال الشاعرُ:

ولَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإِنْصافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ ، وإِنْ كانوا ذَوِي رَحِمِ

ومِمَّا يُعِينُ على الإِنْصافِ - أيضًا - أَنْ يضَعَ المرءُ نَفْسَهُ موضعَ خَصْمِه ؛ فذلك مِمَّا يدعو لالتماسِ المعاذيرِ ، والبُعْدُ عَنْ إساءَةِ الظَّنِّ ، والحَذَرِ مِنْ مواطن الظُّلْمِ والاعتساف [٢] .

قال ابنُ حزمٍ - رحمه الله -: «مَنْ أَرَادَ الإنصافَ فَلْيَتَوهَّمْ نفْسَهُ مكانَ خَصْمِه، فإنَّه يلوحُ له وَجْهُ تَعَسُّفِه » [٣] .

وأخيرًا قال الأخ عبد الكريم العماد - حفظه الله -:

أَنْصِفْ وإِنْ كُنْتَ ذا جاه ومرتبةٍ وَعُدْ إِلَى الحَقِّ مَهْمَا كُنْتَ مُقْتَدِرا

فَمَنْ تَكَبَّرَ في حقٍّ أُهينَ بِهِ وَمَنْ تَوَاضَعَ في حَقٍّ فَقَدْ كَبُرَا

---

(١) « صفة الصَّفوة » (٢/ ١٦٧) .

(٢) « أخطاء في أدب المحادثة » (ص٧٤) .

(٣) « الأخلاق والسِّير » (ص٨٠) .

الرِّفْق

أي أخي ، لا شكَّ أنَّ الرِّفْقَ من أَهَمِّ الـصِّفَـات التي يجبُ أن يتـحلَّى بهـا المُحـاور ، فليس المهمُّ توصـيلَ الحـقـيـقة للنَّـاسِ ، ولكن الأهمّ هو الأُسلوب والطريقة التي تصلُ بها إلي قلوبهم ، والطَّريقة هي الرِّفق ، والرِّفق هو اللُّطْف، ومعناه الدَّفْع بالَّتي هي أحسن .

عن عـائشَـةَ ﵂ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قـال : « إن الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلاَّ زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ من شَيْءٍ إلاَّ شانَهُ »[(١)] .

وعنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: « إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ في الأمر كُلِّه »[(٢)] .

وعن أبي الدَّرداء ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ حظَّهُ من الرِّفْقِ ، فقد أُعْطِيَ حَظَّهُ من الخَيْر ، ومَنْ حُرِمَ حَظَّهُ من الرِّفْقِ ، فقد حُرِمَ حَظَّهُ من الخَيْرِ »[(٣)] .

فَمَنْ أُعْطِيَ الرِّفْقَ والخُلُقَ ، فقد أُعطيَ الخيرَ كُلَّهُ والرَّاحةَ ، وحَسُنَ حالُهُ في دُنياهُ وآخرته ، ومن حُرِمَ الرِّفْقَ والخُلُقَ ، كان ذلك سـبيلاً إلى كُلِّ شَرٍّ وبليَّةٍ إلاَّ مَنْ عَصَمَهُ الله[(٤)] .

قال الشاعرَ:

الرِّفْقُ أَيـمَنُ شَيْءٍ أَنْتَ تَتْـبَـعُـهُ ... والخَرْقُ أَشْأَمُ شَيْءٍ يَـقْدُمُ الرَّجُلا[(٥)]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) .
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٩٣٥) و(٦٠٢٤) و(٦٠٣٠) و(٦٢٥٦) و(٦٣٩٥) و(٦٤٠١) و(٦٩٢٧) ، ومسلم (٢١٦٥) .
(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٠١٣) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢/ ٦٠٥٥) ، والصَّحيحة (٥١٩) و (٨٧٤) .
(٤) « الحلية » (٣/ ١٨٦) .
(٥) يَقْدُمُ الرَّجُل : يقوده ويتقدَّمه .

وذو التَّـثَـبُّتِ مِنْ حَـمْـدٍ إِلَى ظَفَـرٍ   مَنْ يَرْكَبِ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبِ[١] الزَّلَلا[٢]

واعلمْ - أخي عَلَّمني اللهُ وإيَّاكَ - أنَّ أكْثَرَ المخالفـاتِ الشَّرعيَّة ، والبدع في الدِّين ، إنَّمـا رسخَتْ في قُلوبِ العـوامِّ بجَهْلِ بعض المحاوريـن ؛ أَظْهَروا الحقَّ بأسلوبِ الشِّـدَّة والغِلْظَة ، مُلَبِّسًا الشَّيطان عليـهم بدَعْوَى الـتَّخْطِئَـة ، ودَعْوَى الضَّلالِ ، ودَعْـوى الابتداعِ ، كـأنَّهم لم يسمـعوا قولَ الله سـبحانـه وتعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه : ٤٤] .

وكـأنَّ الرَّسول ﷺ لم يقلْ لعـائشَة رضي الله عنها عـندما قـالتْ لليهـود : « بَلْ عليكم السَّامُ [٣] واللَّعْنَةُ » ، « يا عائشَةُ ، إنَّ اللهَ يُحبُّ الرِّفْقَ في الأمْرِ كُلِّه » [٤] .

وفي روايَة لُمسلم : « يا عـائشَةُ ، لا تكوني فـاحشَـةً » ، أو فـي ثالثـةٍ له : «مَهْ [٥] يا عائشَةُ ؛ فإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ » .

وإذا كانت الآية قدْ نَزَلَتْ في حقِّ أكْفر خَلْقِ الله ، واستحقَّ الكلمة البيِّنة ، وإذا كان الحديث وَرَدَ في حقِّ اليَهُودَ المغضوب عـليهم ، واستحقُّوا الرِّفْقَ ، أفَلا يستحقُّ الُمسْلمونَ من أهل البدع والانحراف هذا اللِّين والرِّفْق ؟! .

ولا يلزم من الرِّفق السُّكوت عن البـدعة ، أو أنْ يُداهِنَ علَى المعصـيَة ، أو أَنْ يُسايـرَ على الانحراف المنهـجيِّ ، ولا يلزم من الحوارِ الشـدَّة والغضـاضة ، فالُمبْـتدع إذا لم يأتِ بما يُخْـرجه عن الإسلام فـهو مسلـم ، لهُ حقُّ الإسلامِ من الموالاة والنُّصْرَة ، والموالاة - ومنها النُّصْـرَة - مُقَيَّدَةٌ بشروط معـروفة ، منها ألاَّ يتقوَّى بهـذه الموالاة على أهْلِ السُّنَّة ، وألاَّ تكون سببًا في إعانتـه على بِدْعَتِه ،

---

(١) استحقَبَ الشَّيْءَ : جَعَلَهُ في حقيبته ، كأنَّه يرجع به إلَى أهْلِه .
(٢) « روضة العقلاء » (ص٢١٦) .
(٣) السَّام : الموت .
(٤) تقدَّم تخريجه في حاشية (ص ٢١٤) .
(٥) مَهْ : كلمة نَهْيٍ وزَجْرٍ ، وهي اسم فعل أمر مبنيٌّ عَلَى السُّكون ، معناه : انكفِفْ عمَّا أنت فيه .

إلى غير ذلك .

ثُمَّ إنَّ البِدَع ليسَتْ عَلَى رُتْبَةٍ واحِدَةٍ ، ولكن كما يقولُ الشَّاطبيُّ - رحمه الله- : « ولقد ثَبَتَ التَّفاوتُ في المعاصي ، فكذلك يُتَصَوَّر مثله في البِدَعِ » (١)

وكما قال ابن تيميَّة : « فالتَّفكير يختلفُ بحسب حالِ الشَّخْصِ ، فليس كُلُّ مُخْطِئٍ ، ولا مُبْتَدِعٍ ، ولا جاهِلٍ ، ولا ضالٍ يكون كافرًا ، بل ولا فاسقًا ، بَلْ ولا عاصيًا » (٢) .

ثُمَّ إنَّ أحكام هذه المسائل ترجع إلى أهل العلم والتَّقوى ، ومذهب إمامٍ من أئمَّة السَّلَف أو قولٌ له لا يَطَّرِدُ على كُلِّ مُبْتَدِعٍ ، ولكن كما قال ابن تيميَّة : «وكثيرٌ من أجوبَةِ الإمام أحمد وغيره من الأئمَّة خرجَ عَلَى سُؤالِ سائلٍ قَدْ عُلِمَ حَالُهُ ، أو خَرَجَ خطابًا لمعيَّنٍ قدْ علم حاله ، فإنَّ أقوامًا قدْ جعلوا هذا عامًّا ، فاستعملوا من الهجرِ والإنكارِ ما لم يُؤمروا به » (٣) .

قال الشاعر :

لَو سَارَ أَلْفُ مُدَجَّجٍ (٤) في حاجةٍ ... لَمْ يَقْضِهَا إلاَّ الَّذي يَتَرَفَّقُ (٥)

وقال آخر :

لَم أَرَ مِثْلَ الرِّفْقِ في لِينِهِ ... أَخْرَجَ لِلعَذْرَاء مِنْ خِدْرِها

مَنْ يَسْتَعِنْ بالرِّفْقِ في أَمْرِهِ ... يَسْتَخْرِجِ الحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا (٦)

ولكن ماذا عن الشِّدَّة ؟ ، لا شكَّ أنَّ الرِّفْقَ هو الأَصْل ، إلاَّ أنَّ الشدَّة قد

---

(١) « الاعتصام » (٢/ ٣٩) .
(٢) « الفتاوى » (١٢/ ١٨٠) .
(٣) المرجع السَّابق (٢٨/ ٢١٣) .
(٤) المُدَجَّج : الفارس الذي قد تَوَارَى بالسِّلاح مِنْ كَثْرَتِهِ .
(٥) « روضة العقلاء » (ص٥١٦) .
(٦) « حياة الحيوان » (١/ ٢٧٥) .

تُشْرَعَ عند الحاجَة إليها ، كما قيل :

فَقَسَا لِيَزْدَجِروا وَمَنْ يَكُ رَاحِمًا   فَلْيَقْسُ - أحيانًا - عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

فالشِّدَّة - أَحْيانًا - من الحكمة ، ولا يُوفَّقُ لمعرفة الموقف الذي يستحقُّ الشِّدَّة إلاَّ الخُلَّصُ من الرِّجالِ ، والمُحاور الحكيم يسْتَخْدِمُ الشِّدَّة إلى جانبِ استخدامه الرِّفْقَ ، وهكذا كان النَّبيُّ ﷺ فقدْ رَفَقَ بعُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ حينما كانت يَدُهُ تَطيشُ في الصَّحْفَة [١] ، وبمُعاوية بن الحَكَم السُّلَميِّ حينما تحَدَّثَ في الصَّلاة [٢] ، وبالأعرابيِّ الذي بالَ في المسجد [٣] ، وبالشَّابِّ الذي جاءَ يستأذنه في الزِّنى [٤] ، وبسَلَمَةَ بن صَخْرٍ الذي أصابَ من امرأتِهِ في رمضانَ قبْلَ أداءِ كفَّارته [٥] .

واستخْدَمَ الشِّدَّة مع مَنْ تَخَتَّمَ بالذَّهَبِ [٦] ، ومع الصَّحابَة الَّذين مَسَحوا الأرْجُلَ أثناءَ الوُضُوء [٧] ، ومع الإمام الذي أطال بالصَّلاة [٨] ، ومَعَ أبي ذَرٍّ حينما سبَّ غُلامَهُ [٩] ، ومعَ عمرَ حينما سمعه يَحلفُ بأبيه [١٠] ، وكان من أسبابِ هذا التَّنوُّع مُراعاةُ أحْوالِ المُخاطَبينَ ، فاسْتَعْمَلَ عليه الصَّلاة والسَّلام الرِّفقَ بالجَاهِلِ الذي لم يكُنْ يعرفُ حُكْمَ الشَّرعِ لِصِغَرِ سنِّه ، أو حديثِ عَهْدِهِ

---

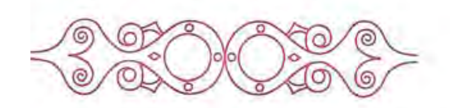
(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٧) و (٥٣٧٨) ، ومسلمٌ (٢٠٢٢) .
(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧) .
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٢٠) و (٦١٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه و (٢١٩) و (٦٠٢٥) عن أنسٍ رضي الله عنه ، ومسلم (٢٨٤) و (٢٨٥) عن أنس .
(٤) تقدَّم تخريجه في حاشية (ص١٩٨) .
(٥) أخرجه أبو داود (٢٢١٣) ، والترمذيُّ (٣٢٩٩) ، انظر صحيح سنن التِّرمذيِّ للألبانيِّ (١/ ٥٣٢) .
(٦) أخرجه البخاري (١/ ١٨٩) .
(٧) أخرجه البخاري (٦٠) و (٩٦) و (١٦٣) ، ومسلم (٢٤١) عن ابن عَمْرو .
(٨) أخرجه البخاريُّ (٩٠) و (٧٠٢) و (٧٠٤) و (٦١١٠) و (٧١٥٩) ، ومسلم (٤٦٦) عن أبي مسعود الأنصاريّ .
(٩) أخرجه البخاري (٣٠) و (٢٤٥) و (٦٠٥٠) ، ومسلم (١٦٦١) .
(١٠) أخرجه البخاريُّ (٦١٠٨) و (٦٦٤٦) ، ومسلم (١٦٤٦) عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما .

بالإسلام ، واستخدَمَ الشدَّةَ مع مَنْ صَدَرَ منهم ما لا يُتَوَقَّعُ منهم ذلك لِطول صُحْبَتِهم له ، ولعلمهم وورَعِهِمْ وتَقْواهُم ، واللهُ تعالى أعلم بالصَّوابِ (١) .

وأخيراً قال أبو الفتح البُستي :

ورافِقِ الرِّفْقَ في كُلِّ الأُمورِ ، فَلَمْ ... يَنْدَمْ رَفيقٌ ، ولم يَذْمُمْهُ إنْسَانُ

ولا يَغُرَّنَّكَ حَظٌّ جَرَّهُ خَرْقٌ ... فالخَرْقُ هَدْمٌ وَرِفْقُ المَرْءِ بُنْيانُ (٢)



(١) انظر « مراعاة أحوال المخاطبين » (ص٨٦) .

(٢) « جواهر الأدب » (ص٦٧١) .

الحِلْم

أي أخي ، هناك ارتباطٌ مُؤكَّدٌ بينَ ثقَة المحاور بنفسه وصدْق مذْهَبه وبينَ حلمه مع الآخرين ، فمتى كان كذلك اتَّسَعَ صدْره ، وامتدَّ حلمُهُ ، وعَذَرَ النَّاس من أنفسهم ، والتَمَسَ المُبَرِّرات لأغلاطِهم ، فإذا عَدَا عليه غرٌّ يُريدُ تجريحه ، ولم يُقَابلْ السَّيِّئَة بمثلها ، بَلْ بِأَحْسَن منها ، يفيضُ من حِلْمه على ذوي النَّزَق [1] والطَّيْش ، فيُطْلِقونَ ألسنَتَهم بالدُّعاء والثَّناء ، هذا حكم الله .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٤] .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « الواجبُ على العاقلِ تَوْطِينُ النَّفْسِ على لزُومِ العَفْوِ عن النَّاسِ كافَّةً ، وتَرْكُ الخروج لمجازاة الإساءَة ؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءَة أحسنُ من الإحسانِ ، ولا سَبَب لنماءِ الإساءَة وتهييجها أشَدُّ من الاستعمالِ بمثلِهَا » [2] .

وقال أيضًا : « النَّاسُ على ضُرُوبٍ ثلاثة : رجلٌ أعزُّ منك ، ورجلٌ أنتَ أعزُّ منه ، ورجلٌ ساواك في العزِّ ، فالتَّجاهل عَلَى مَنْ أَنْتَ أَعَزُّ منه لُؤْمٌ ، وعلى مَنْ هو أَعزُّ منك جنْفٌ ، وعلى مَنْ هوَ مثْلُكَ هراشٌ كهراشِ الكَلْبَيْن ، ونقارٌ منقار الدِّيكَيْنِ ، ولا يفترقان إلاَّ عَنِ الخَدْشِ والعَقْر والهُجْر ، ولا يكادُ يوجدُ التَّجاهلُ وتَرْكُ التَّحالم إلاَّ مِّنْ سَفيهيْن ، ولقد أحْسَنَ الذي يقول :

مَا تَمَّ حِلْمٌ ولا علْمٌ بلا أَدَبٍ ... ولا تَجَاهَلَ في قَوْمٍ حَلِيمَانِ
ومَا التَّجَاهُلُ إلاَّ ثَوْبُ ذِي دَنَسٍ ... ولَيْسَ يَلْبَسُهُ إلاَّ سَفِيهَانِ » [3]

---

(١) النَّزَق : السَّفَه والطَّيْش .
(٢) « روضة العقلاء »(ص ١٦٦) .
(٣) المرجع السَّابق(ص٢١٢) .

فكن - أخي - كما قال منصور بن محمد الكريزي:

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ منهُ إليَّ الجرائمُ
فَمَا النَّاسُ إلاَّ واحدٌ منْ ثلاثةٍ ... شريفٌ ومَشْرُوفٌ ومثلٌ مُقاوِمُ
فَأَمَّا الَّذي فَوْقي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ ... وأتبعُ فيه الحَقَّ ، والحقُّ لازِمُ
وأَمَّا الَّذي دُوني فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ ... إجابَتِه عِرْضي وإِنْ لامَ لائمُ
وأَمَّا الَّذي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَو هفَا ... تَفَضَّلْتُ إنَّ الحِلْمَ للفَضْلِ حَاكِمُ[1]

وقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ العَفْوَ عن المسيئ ، والإحْسانَ إليه مع القُدرة عليه موجبٌ للذِّلَّة والمهانَة، وأنَّه قد يجرُّ إلى تَطاول السُّفَهَاء، وهذا خطَأ ؛ لأنَّ الحِلْمَ والعَفْوَ لا يشتبه بالذِّلَّة بحال، فإنَّ الذِّلَّة احتمالُ الأذى على وجه يُذْهِبُ بالكرامة، أمَّا الحلْمُ فهو إغْضاءُ الرَّجُلِ عن المكروه ، حيثُ يزيدهُ الإغضاءُ في أعيُنِ النَّاسِ رِفْعَةً ومهابَةً .

قال كعبُ الغَنَوِيُّ:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الحِلْمِ في عَيْنِ العَدُوِّ مَهِيبُ
إذا ما تراآه الرِّجالُ تَحَفَّظُوا ... فَلَمْ يَنْطِقِ العوراء[2] وهو قريبُ[3]

فالعفو إسقاطُ حَقِّكَ جَودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقامِ ، فتُؤْثِر التَّرْكِ رغبَةً في الإحسانِ ، ومكارِمَ الأخْلاقِ ، بِخلافِ الذُّلِّ فإنَّ صاحبه يترك الانتقامَ عَجْزًا وخوفًا ومهانَةَ نفسٍ ، فهذا غير محمودٍ ، لعلَّ المنتقم أحسَنُ حالاً منه[4] .

---

(١) المرجع السَّابق (ص١٦٦) .
(٢) **العَوْراء** : الكلمة القبيحة .
(٣) « الحلم » (ص٦٠) .
(٤) « مدارج السَّالكين » (٣٢٨/٢)

قال الشاعرُ:

لا يَبْلُغُ المَجْدَ أَقْوامٌ وَإِنْ كَرُمُوا ... حَتَّى يَذِلُّوا - وإِنْ عَزُّوا - لأقوامِ
وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الأَلوانَ مسفرةً ... لا صَفح ذُلٍّ ولكنْ صَفْحُ أَحْلامِ

والحلم أقلُّ كُلْفَةً ، وأيسَرُ مؤنَةً ، فما أجْمَله لك تاجًا ! ، فإنْ لم تكنْ حليمًا فتحلَّمْ ، حتَّى يُصبحَ ذلك فيك سجيَّةً وخُلُقًا ، فقد قال حبيبُكَ ﷺ : « إنَّما العِلمُ بالتَّعلُّمِ ، وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحلُّم » [(١)] .

وقال ﷺ للأَشَجِّ بن عَبْدِ القَيْسِ : « إنَّ فيك لَخُلُقَيْن يُحبُّهما اللهُ : الحِلْمُ والأناةُ » ، قال : « يا رسول الله ، أهما خُلُقان تَخَلَّقتُ بهما ، أم جَبَلَني اللهُ عليهما ؟» ، قال : « بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عليهما » فقال : « الحَمْدُ لله الذي جَبَلَني علَى خُلُقَيْنِ يُحبُّهما اللهُ ورسولُهُ » [(٢)] .

قال الكريزيُّ:

إذا أَنَا كافيتُ الجَهُولَ بفِعْله ... فَهَلْ أَنا إلاَّ مِثْلُهُ إِذْ أُحَاوِرُهْ ؟
وَلَكِنْ إِذا مَا طاشَ بالجَهْلِ طائشٌ ... عَلَيَّ ، فإِنِّي بالتَّحَلُّمِ قاهِرُهْ [(٣)]

وقدْ بلَغَ الرَّسولُ ﷺ في حِلْمِهِ وَعَفْوِهِ الغايةَ المثاليَّةَ ، فعلى جادَّةِ المثالِ :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كنْتُ أَمْشي مع النَّبيِّ ﷺ وعليه بُرْدٌ [(٤)] نَجْراني غليظُ الحاشيةِ ، فأدركه أعرابيٌّ ، فجَبَذَهُ [(٥)] بردائه جَبْذَةً شديدةً ، حتَّى

---

(١) تقدَّم تخريجه .
(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) ، وأحْمَد (٤/٢٠٦) ، وأخرجَ شَطْره الأوَّل مسلم (١٧) والتِّرمذيُّ (٢٠١١) عن ابن عباس .
(٣) « روضة العقلاء » (ص ٢١٠) .
(٣) البُرْدُ : كساءٌ مُخَطَّطٌ يُلْتَحَفُ بِهِ ، جمعه بُرُودٌ .
(٥) الجَبْذَة : الجَذْبة .

نظرتُ إلى صَفْحة [١] عاتِقِ[٢] رسول الله ﷺ قدْ أثَّرتْ بها حـاشيةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّة جَبْذَتِـه ، ثمَّ قال : يا محمَّدُ ، مُرْ لي مِن مـالِ الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ ضحكَ ، ثُمَّ أمرَ له بعطاءٍ » [٣] .

قال ابن حجرٍ - رحمه الله - مُعلّقًا على هذا الحديث : « وهذا من روائعِ حِلْمِه ﷺ وكمـالِه ، وحُسْنِ خُلُقِـه ، وصَفْـحِه الجـميل ، وصبـره على الأذى في النَّفْسِ والمالِ ، والتَّجـاوزِ على جفاء مَنْ يُريدُ تألُّفه على الإســلامِ ، وليتأسَّى به الدُّعاة إلى الله والوُلاةُ بَعْدَهُ في حلمه ، وخُلُقِهِ الجـميل من الصَّفْحِ والإصغاء ، والعَفْو ، والدَّفْع بالَّتي هي أحسنُ » [٤] .

وقد كان لأئِمَّـة السَّلَفِ عقولٌ راجحةٌ ، وحكمـةٌ بالغةٌ ، زَادَها القرآنُ نوراً على نورها ، فكانوا غيظَ العدوِّ ، وقوامَ الأمر .

دخل رجلٌ على عُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه فقال :

« هِيْ [٥] يا بْنَ الخطَّاب ، فـوالله مـا تُـعطينا الجَـزْلَ [٦] ، ولا تحكمُ بيننا بالعَدْلِ » ، فغضــبَ عمرُ رضي الله عنه حَتَّى همَّ به ، فقال له الحُرُّ بْـنُ قَيْسٍ : « يا أمير المؤمنين ، إنَّ اللهَ تعالى قـال لنبيِّه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعـراف : ١٩٩] ، وإنَّ هذا من الجاهـلين » ، فما جاوزها عمرُ حين تلاها ، وكان وقَّافًا عند كتابِ الله [٧] .

---

(١) الصَّفْحة : الجانب .
(٢) العاتق : ما بين العُنُقِ والكتف .
(٣) أخرجه البخاريُّ (٣١٤٩) و (٥٨٠٩) و (٦٠٨٨) ، ومسلم (١٠٥٧) .
(٤) الفتح (١٠/٥٦) ، وشرح النَّوويِّ على مسلمٍ (٧/١٤٦-١٤٧) .
(٥) هِيْ : كلمة تنبيه ، وتحمل معنى التَّهديد .
(٦) الجَزْل : الشَّيء الكثير .
(٧) أخرجه البخاريُّ (٤٦٤٢) و (٧٢٨٦) عن ابن عبَّاسٍ .

قال الشاعر :

أُولَئِكَ قَــوْمٌ إِنْ بَنَوا أَحْـسَنُـوا البِنا وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَـوا وإِنْ عَقَـدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتِ النَّعْـمَاءُ فيهم جَـزَوْا بها وَإِنْ أَنْعَـمُـوا لا كَـدَّرُوها ولا كَـدُّوا
وَإِنْ قـالَ مَوْلاَهُمْ عَلَى جَلِّ حـادِثٍ مِنَ الأَمْرِ: رُدُّوا فَضْلَ أحلامِكُمْ رَدُّوا[١]

والحلم من أشرَفِ الأخـلاقِ ، وأَحَقِّـها بذوِي الألباب ، فـمتى مـا أعرَضَ المحاور عن الجـاهلِ ، فقـدْ حفظَ على نفـسِهِ عـزَّتها ، ونأى بها عـن المهاترات والإقذاع .

قال الشافعيُّ - رحمه الله - :

إِذَا سَـبَّني نَـذْلٌ تَزَايَدْتُ رِفْـعَـةً ومَـا العَـيْبُ إِلاَّ أَنْ أَكـونَ مُسَـابِبُـهْ
ولَو لَمْ تَكُـنْ نَفْـسي عَلَيَّ عـزيزةَ لَمَكَّنْتُـهـا مِنْ كُلِّ نَذْلٍ تُحَـارِبُهُ[٢]

والعرب تقول : « إنَّ مِن ابْتِغاءِ الخَيْرِ اتِّقاءَ الشَّرِّ » [٣] .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً نال من عمر بن عبد العـزيز ، فلمْ يُجِبْهُ ، فقيل له : « ما يَمْنَعُكَ منه ؟! » ، فقال : « التقى ملجم » [٤] .

وأَكْثَـرَ رجلٌ من سَبِّ الأحنف وهو لا يُجيـبُهُ ، فقـال - يعني السَّابَّ - : «واللهِ ، ما منعه من جوابي إلاَّ هواني عليه » [٥] .

قال الشاعرُ:

رَجَـعْتُ عَلَى السَّفِـيهِ بِفَـضْلِ حِلْمٍ وَكَـانَ الحِلْمُ عَنْهُ لَهُ لِـجـامـا [٦]

---

(١) « الحلم » (ص٥٦) .
(٢) « ديوان الشَّافعيِّ » (ص٢٩) تحقيق البقاعيّ .
(٣) « الأمثال » (ص١٥٩) .
(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤) .
(٥) « أدب الدنيا والدين » (ص٢٥٣) .
(٦) اللِّجام : ما يُلْجَمُ به الفرس في فمه .

وَظَنَّ بيَ السُّفَهَاءَ فَلَمْ يَجِدْني ... أُسَافِهُهُ ، وقُلْتُ لَهُ سَلاما
فَقَامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ذَلِيلاً ... وَقَدْ كَسَبَ المَذَمَّةَ والملاما
وَفَضْلُ الحِلْمِ أَبْلَغُ في سَفِيهٍ ... وَأَحْرَى أَنْ يُنَالَ بِهِ انتقاما [(١)]

وعن عبد الملك - أو قيس بن عبد الملك - قال : « قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلَته ، وعرض له رجلٌ بيده طومار [(٢)] ، فظنَّ القومُ أنَّه يريدُ أمير المؤمنين ، فخاف أن يحبسَ دونَهُ ، فرماهُ بالطومارِ ، فالتفت عمرُ ، فوقَعَ في وجْهِهِ فشجَّهُ » ، قال : « فنظَرْتُ إلى الدِّماء تسيلُ من وجهه وهو قائمٌ إلى الشَّمْسِ ، فلم يبرح حتَّى قرأ الطومار ، وأمرَ له بحاجته ، وخَلَّى سبيلَهُ » [(٣)] .

وأسمع رجلٌ ابْنَ هبيرةَ ، فأعرضَ عنه ، فقال : « إيَّاكَ أَعْني » ، فقال : «وَعَنْكَ أُعْرِضُ » [(٤)] .

قال الشاعرُ :

أَوَ كُلَّما طَنَّ الذُّبابُ طَرَدْتُهُ ؟! ... إنَّ الذُّبابَ - إذًا - عَلَيَّ كَريمُ [(٥)]

على أنَّ هُناكَ حالات يكون فيها الجَهْلُ من الحِلمِ ، كما قال ابن حبَّان - رحمه اللهُ - : « وربَّما يُدْفع العاقلُ إلى الوقت بعد الوقت إلى مَنْ لا يُرضيه عنه الحِلْمُ ، ولا يُقْنعه عن الصَّفْحُ ، فحينئذٍ يحتاجُ إلى سفيهٍ ينتصرُ له ؛ لأنَّ ترك الحِلْمِ في بعضِ الأوقاتِ من الحِلْمِ » [(٦)] .

---

(١) « الحلم » (ص٣٤) .
(٢) **الطومار** : صحيفة مطويَّة .
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٤٢٣) .
(٤) « بهجة المجالس » لابن عبد البرّ (٢/٤٣٦) .
(٥) « أدب الدُّنيا والدِّين » (ص٢٥٣) .
(٦) « روضة العقلاء » (ص٢١٣) .

قال الشاعر :

إذَا كُنْتَ بينَ الحلْمِ والجَـهْلِ قـاعـدًا وَخُيِّـرْتَ أَنَّى شئْتَ ، فـالحلْمُ أَفْضَلُ
وَلَكِنْ إذا أَنْصَـفْتَ مَنْ لَيْسَ مُنْصِفًـا وَلَمْ يَرْضَ منْكَ الحِلْمَ فالجَهْلُ أفضلُ [(١)]

ولم يُنكر الرَّسولُ ﷺ على النَّابغَة الجَعْديِّ حينما أنشدَ بحضرته :

ولا خـيـرَ في حِلْـمٍ إذا لَمْ تكنْ لَهُ بَوَادرُ [(٢)] تَحْـمي صَفْـوَهُ أَنْ يُكَدَّرا
ولا خَـيرَ في جَـهْلٍ إذا لمْ يكنْ لَهُ حليمٌ إذا مـا أَوْرَدَ الأَمرَ أَصْـدَرَا[(٣)]

ومن الحالات التي ينبغي فـيها الغضب ، ولا يشرع فيهـا الحِلْم عند انتهاك حُرْمة الله ، والاعـتداء على شرعه ، ويدلُّ عليـه قولُ عائشَةَ رضي الله عنها : « مـا خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلاَّ أَخَذَ أيسرهما ، مـا لم يكنْ إثْمًا ، فإنْ كان إثمًا كانَ أبعَدَ النَّاسِ منه ، وما انتقَمَ رسـولُ الله ﷺ لنفسِه ، إلاَّ أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله ، فينتقمُ لله بها » [(٤)] .

وفي روايةٍ : « فإن انتهكتْ حُرْمَةُ الله ، كان أَشدَّ النَّاسِ غضبًا لله » [(٥)] .

ومن اللَّطائفِ في هذا البابِ حوارُ مَعْنِ بن زائدَةَ [(٦)] مع بعض الشُّعراءِ غاية في الحلم ، فـقد كـان معْنُ لا يُغـيظ أحـدًا ، ولا أحدًا يُغـيْظُهُ ، فقـال بعضُ الشُّعراء : أنا أغيظُهُ لكم ، ولو كانَ قلبُهُ من صَـخْرٍ ، فراهنوه على مئة بعيرٍ ، إنْ أغاظَهُ أخـذها ، وإنْ لم يُغظْهُ دَفَعَ مـثْلَها ، فـعمدَ الـرَّجُلُ إلى جمَلٍ ، فـذبحهُ وسَلَخَـهُ ، ولبس الجِلْدَ مثْلَ الثَّـوْبِ ، وجَعَلَ اللَّحْمَ من خـارج ، والشَّعْـرَ من

---

(١) المرجع السابق .
(٢) بوادر : جمع بادرة ، وهي الحدَّة عند الغضب .
(٣) « البداية والنهاية » (٦/ ٥٦٠ ، ٥٦١) .
(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٥٦٠) ، ومسلمٌ (٧٨) .
(٥) الرِّواية ذكرها الحافظ في الفتح ، وسكتَ عنها (٦/٥٧٦) .
(٦) هو أبو الوليد مَعْنُ بنُ زائدةَ ، كان جَوَادًا شُجَاعًا ، حليمًا جزيلَ العطاء ، عاشَ في دولتي بني أميَّة وبني العبَّاس ، ثمَّ قتله قومٌ من الخوارج سنة (١٥١هـ) .

داخلٍ ، والذُّباب يقعُ عَلَيهِ ويقوم ، ولبسَ برجليهِ نَعْلَيْن من جِلْدِ الجَمَل ، وجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ مَعْنٍ عَلَى هذه الصُّورة ، ومدَّ رجليه في وجْهه ، وقال :

أنا - واللهِ - لا أُبدي سلامًا عَلَى مَعْنٍ المُسَمَّى بالأميرِ

فقال له مَعْنٌ : السَّلامُ لله ، إنْ سَلَّمْتَ رَدَدْنا عليك ، وإن لم تُسلِّمْ فما عتبنا عليك . فقال :

سَأَرْحَلُ عن بلادٍ أَنْتَ فيها ولو حزْتَ الشَّآمَ مَعَ الثُّغُور

فقال له مَعْنٌ : البلادُ بلادُ الله ، إنْ نَزَلْتَ فمرحبًا بك ، وإنْ رَحَلْتَ كان اللهُ في عَوْنكَ . فقال :

وأَرْحَلُ مِن بلادٍ ألفَ شَهْرٍ أَجِدُ السَّيْرَ في أَعْلى القُفُورِ [1]

فقال له : مصْحوبًا بالسَّلامَة . فقال :

أَتَذْكُرُ إذْ قَمِيصُك جِلْدُ شَاةٍ وَإذْ نَعْلاكَ مِنْ جِلْدِ البَعِيرِ ؟!

فقال معْنٌ : أعرفُ ذلك ولا أُنكره . فقال :

وتَهْوَى كُلَّ مصطبَةٍ وسُوقٍ بلا عَبْدٍ لَدَيْكَ ولا وَزِيرِ

فقال له مَعْنٌ : ما نسيتُ ذلك يا أخا العرب . فقال :

ونَومُكَ في الشِّتاءِ بلا رِداءٍ وأَكْلُكَ -دائمًا- خُبْزَ الشَّعيرِ

فقال له مَعْنٌ : الحمدُ لله على كُلِّ حال . فقال :

وفي يُمناكَ عُكَّازٌ [2] قَوِيٌّ تَذُودُ به الكِلابَ عَنِ الهَرِيرِ

فقال مَعْنٌ : ما خَفِيَ عليك خبرها ، إذ هي كعصا موسى . فقال :

فَسُبْحانَ الَّذي أَعْطَاكَ مُلْكًا وَعَلَّمَكَ القُعُودَ عَلَى السَّريرِ

---

(١) القُفُور : جمع قَفْرٍ ، وهي الأرضُ التي لا ماء فيها ولا عشب ، ولا بشَرَ ، ويجمع - أيضًا - على قفار.

(٢) العُكَّاز : عصا في طَرَفِها زجٌّ .

فقال مَعْنٌ : ذلك بفضلِ الله لا بفضلك . فقال :

فَـعَـجِّلْ يا بْـنَ ناقِـصَـةٍ بمالٍ ... فَـإنِّي قَـدْ عَـزَمْتُ عَلَى المسِـيرِ

فأمَرَ له بألف دينارٍ ، فقال :

قَلِيلٌ مَـا أَمَـرْتَ بِهِ ، فـإِنِّي ... لأَطْمَعُ مِـنْكَ بالشَّـيْءِ الكثِـيرِ

فأمرَ له بألف دينارٍ أخرى ، فقال :

فَـثَلِّثْ إذْ مَلَـكْتَ المُلْكَ رِزْقًـا ... بلا عَـقْلٍ ، ولا جـاهٍ خَطِـيرِ

فأمر له بثلاثمائة دينارٍ ، فقال :

ولا أَدَبٍ كَـسَـبْتَ بِهِ المعـالِيَ ... ولا خُـلُقٍ ولا رَأْيٍ مُـنِـيـرِ

فأمر له بأربعمائة دينارٍ ، فقال :

فَـمِنْكَ الجُـودُ والأفـضـالُ حـقّـاً ... وَفَـيْضُ يَدَيْكَ كـالبَـحْـرِ الغَـزِيرِ

وما زال يطلبُ الزيادة حتَّى أخذَ ما قُدِّرَ له ، وانصرفَ مُتَعَجِّبًا من حلْمِ مَعْنٍ ، وعدم انتقامه منه ، ثمَّ قال لنفسه : مثْلُ هذا لا ينبغي أن يُهْجَى بَلْ يُمْدَحَ ، واغتسَلَ ولبس ثيابه ، ورَجَعَ إليه ، فسلَّمَ عليه ومدحَهُ ، واعتذَرَ له بأنَّ الحامل له على هَجْوه المئةُ بعيرٍ التي صارَ الرَّهْنُ عليها نظيرَ إغاظته له ، فأمر له بمئة بعيرٍ يدفعها نظيرَ الرَّهْنِ ، وبمئةِ بعيرٍ أخرى لنفسِهِ ، فأخَذَها وانصرَفَ [1] .

وأخيراً قال الشاعرُ :

العـلْمُ والحِلْـمُ حُلَّـتَـا كَـرَمٍ ... للمـرْءِ زَيْـنٌ إذَا همـا اجْـتَـمَـعَـا

كَمْ مِنْ وَضِـيعٍ سَـمَـا به العـلْـ ... ـمُ والحِلْمُ ، فَنَالَ السُّـمُـوَّ وارْتَفَـعَـا

صِنْوانِ لا يَسْـتَـتِمُّ حُـسْـنُهُـمَـا ... إلاَّ بَجَـمْـعٍ لِذَا وذَاكَ مَـعَـا [2]

---

(١) « بهجة المجالس » للأثريِّ (ص١٨٣) .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/١٢٦) .

الأنـاة

الأَنَاةُ هي مَظْهَرٌ من مـظاهرِ خُلُق الصَّبْرِ ، وهي صـفةٌ من صفـاتِ المحاور الحكيم صاحب العقل والرَّزانَة ، بخلاف العَجَلَة فهي من صفاتِ المحاور الفاشل صاحب الطَّيشِ والرُّعـونَة ، الذي لا يملك الإرادة القويَّة على ضَبط نفـسه تُجاهَ انفعـالاته العجولة ، ولـسُمُوِّ الأَنَاة أحـبَّها اللهُ عـزَّ وجلَّ ، فقدْ قـالَ رسولُ الله ﷺ للأشَجِّ : « إنَّ فيك لَخُلُقَيْنِ يُحبُّهما اللهُ : الحلْمُ ، والأَنَاةُ » (١) .

فـعلى المحاورِ أن يتـريَّث ويتأنَّـى قَبْلَ أيِّ حـوارٍ ؛ لأنَّ ذلك أَدْعَى لِصفـاءِ القَريحة ، فلا خيـرَ في الرَّأي الفطير ولا الكلام القَضيب (٢) ، والعرب تقول : « الخطأُ زادُ العَـجُولِ » (٣) ، ونجاحُ أيِّ حـوارٍ مرهونٌ بالأناةِ ، ودوامِ النَّظَرِ في عواقِبِ الأمورِ .

قال ابنُ حبّان - رحمه الله - : « الرَّافقُ لا يكادُ يُسْبَقُ ، كما أنَّ العَجِلَ لا يكادُ يَلْحَقُ ، وكـمـا أنَّ مَنْ سكَتَ لا يكادُ يَنْدَمُ ، كـذلك مَنْ نَـطَقَ لا يكادُ يَسْلَمُ ، والعَجِلُ يقول قَبْلَ أنْ يَعْلَمَ ، ويُجيبُ قـبْلَ أنْ يَفْهَمَ ، ويَحْمَدُ قَبْلَ أنْ يُجَرِّبَ ، ويذُمُّ بعدما يَحْمَدُ ، يَعْزِمُ قبْلَ أنْ يُفكِّرَ ، ويمضي قبْلَ أنْ يعزمَ ، والعَجِلُ تَصْحَبُهُ النَّدامَةُ ، وتعتزِلُهُ السَّلامة ، وكانت العرَبُ تُكَنِّي العَجَلَةَ أمَّ النَّدامات » (٤) .

قال الشاعرُ :

الرِّفْقُ يُـمْنٌ (٥) والأناةُ سَـعَـادَةٌ ... فَـتَـأَنَّ في أَمْـرٍ تُلاقِ نجـاحـا (٦)

---

(١) تقدَّم تخريجه في حاشية (ص٢٢١) .

الرأي الفطير: هو الَّذي لا ينضج والكلام القضيب : هو المُرتَجَلُ. انظر «زهرة الأدب» (١/ ١٥٤) .

« مجمع الأمثال » (١/ ١٣١) .

(٤) « روضة العقلاء » (ص٢١٦) .

(٥) اليُمْنُ : البَرَكَةُ .

(٦) « تاريخ بغداد » وتهذيب ابن عساكر » (٥/ ٤٣٥) .

وقال ابن المقفع : « إنَّ كلامَ العَجَلَة والبَدَارِ موكَّلٌ به الزَّلَلُ ، وسوءُ التَّقْديرُ ، وإنْ ظَنَّ صاحبُهُ أنْ قدْ أَتْقَنَ وأحْكَمَ ، واعلمْ أنَّ هذه الأمور لا تُدْرَكُ ، ولا تُمْلَكُ إلاَّ برَحْبِ الذِّراعِ [1] عندَ ما قيلَ وما لَمْ يُقَلْ ، وقلَّة الإعظَامِ لما ظَهَرَ من المروءَة ، وما لم يظهَرْ ، وسَخَاوَةُ النَّفْسِ عن كثيرٍ من الصَّوابِ مخافَة الخِلافِ والعَجَلة » [2] .

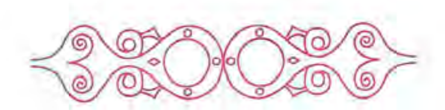
وقال الزمخشريُّ : « خَيْرُ الألسُنِ المخزونُ ، وخيرُ الكلامِ الموزونُ ، فَحَدِّثْ - إنْ حَدَّثْتَ - بأَفْضَلَ من الصَّمْت ، وزيِّنْ حديثك بالوَقار وحُسْنِ السَّمْت ، إنَّ الطَّيْشَ في الكلامِ يُتَرْجَمُ عن خِفَّةِ الأحلامِ ، وما دَخَلَ الرِّفقُ في شيءٍ إلاَّ زَانَهُ وما زَانَ المتكلِّمَ إلاَّ الرَّزانَةُ » [3] .

قال الشاعرُ يمدحُ محاوراً عاقلاً :

بصيرٌ بِأَعْقابِ الأُمورِ ، كأنَّما ... يُخَاطِبُهُ في كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ

وقال ابن هاني المغربيُّ :

وكُلُّ أَناة في المَواطنِ سُؤْدَدٌ ... ولا كَأَناة منْ قَديرٍ مُحكِمِ
وَمَنْ يَتَبَيَّنْ أنَّ للصَّفْحِ مَوْضعًا ... منَ السَّيْف يَصْفَح عَنْ كَثيرٍ ويَحْلُمِ
ومَا الرَّأْيُ إلاَّ بَعْدَ طُولِ تَثَبُّتٍ ... ولا الحَزْمُ إلاَّ بَعْد طُولِ تَلَوُّمِ



---

(1) رَحْبُ الذِّراعِ : سَعَة العِلْم ، وسعة الأُفُقِ ، وقوَّة التَّبصُّرِ .
(2) « الأدَب الصَّغير والكبير » (ص122-123) .
(3) « أطْواق الذَّهب » (ص79) .

التَّغابي

أي أخي ، ما أجْمَلَ أنْ يتَغَابى ويتغافَل المحاور عنْ هَفْوَة ، أو سَقْطَة ، أو زَلَّةٍ صدَرَتْ من محاوره ؛ فالتَّغابي والتغافلُ من أخلاقِ عظماءِ الرِّجالِ .

قال الطائيُّ :

ليس الغَبِيُّ بسيِّدٍ في قَومِهِ   لَكنَّ سيِّدَ قومِهِ المُتَغَابي [1]

وقال ابنُ الرُّوميّ :

يتغابى لهم ، وليسَ لِمُوْق [2]   بَلْ لِلُبٍّ يَفُوقُ لُبَّ اللَّبِيبِ

قال ابنُ المقفع : « إنَّ منْ أَرَبِ الأريب دَفْنَ أَرَبِهِ ما استطاع ، حتَّى يُعْرَفَ بالمسامَحَةِ في الخليقة ، والاستقامَةِ على الطَّريقة » .

ومن التَّغافُلِ ألاَّ تُعاتب مَن استربت [3] بصِدْقِهِ ، وصِدْقِ موَدَّتِه ، كما قال منصور النَّمريُّ :

أَقْلِلْ عِتَابَ مَن اسْتَرَبْتَ بِوُدِّهِ   لَيسَتْ تُنَالُ مَوَدَّةٌ بِعِتَابِ [4]

والعتابُ يُحَرِّك من محاورك ما سَكَنَ ، لكنَّه - مع ذلك - خيرٌ من الحقْد .

قال الأحنف بن قيس - رحمه الله - : « العتابُ مِفتاحُ التَّعالي ، والعِتابُ خيرٌ من الحِقْدِ » [5] .

فإذا كنتَ على ثقة من محاورك ، واضطررت إلى عتابِهِ ، فعاتبْهُ عتابًا لطيفًا والتمسْ له عذْرًا وسترًا بين يدي عتابك .

---

(١) « أدب الدُّنيا والدين » (ص ١٨٠) .
(٢) المُوق : الحُمْقُ في غباوة .
(٣) استربْتَ : داخَلَتْكَ الرِّيبَةُ .
(٤) « رسائل الإصلاح » (٢/ ١٥) .
(٥) « السِّيَر » (٤/ ٩٤) .

قال الشاعرُ:

أُعـــاتِـبُ ذا المودَّةِ مِنْ صــــديقٍ ... إذَا مــا رَابَني [١] منه اغــتــرابُ
إذَا ذَهَبَ الـعـــتــــابُ فَلَـيْسَ وُدٌّ ... ويَبْـقَى الوُدُّ مـا بَـقِيَ العـتـابُ [٢]

وقَدْ تَجِدُ في نفْسِ محـاورك ما يدعوه إلى عتابك ، فتمْنَحـه جبينًا طلقًا ، فيذهب ما في نفسِه عليك .

قال الشاعرُ:

أَزُورُ مــحــمَّــدًا وإذا الْتَــقَـينا ... تكَلَّمـت الضَّـمـائرُ في الصُّـدُورِ
فـأَرجِعُ لـم أَلُمْـهُ ، ولم يَلُـمْني ... وقَدْ رَضِيَ الضَّميـرُ عَنِ الضَّميرِ [٣]

ومن التَّغـافُلِ قَبُولُ عُـذْرِ مَنْ يأتيكَ مُعْـتَذِرًا ، فَقَـبُول الأعذارِ من صِـفاتِ المحاور الكريم ، حتَّى ولو كان المعتذرُ كاذبًا .

قال ابنُ حِبَّان - رحمه الله - : « لا يجبُ للمرءِ أنْ يُعْلِنَ عـقوبة مَنْ لَمْ يُعْلِن ذنبه ، ولا يخلو المعتـذر في اعتذارِه من أحد رَجُلَيْن : إمَّـا أنْ يكونَ صادقًا في اعتذارِه ، أو كاذبًا ، فإنْ كان صادقًا فـقد استحقَّ العَفْوَ ؛ لأنَّ شرَّ النَّاسِ مَنْ لم يُقِلْ العَثَرَاتِ ، ولا يستُـر الزلاَّت، وإنْ كانَ كاذبًا فالواجبُ على المرءِ - إذا علم من المعتـذرِ إثم الكذب وريبته ، وخـضوع الاعتـذار ، وذلَّته - ألاَّ يُعاقـبه على الذَّنبِ السَّـالفِ ، بَلْ يشكرُ له الإحـسانُ المحـدَث الذي جـاء به في اعتـذارِه ، وليس يَعيبُ المعتذر إن ذلَّ وخَضَعَ في اعتذارِه إلى أخيه » [٤] .

وقالَ ابنُ المباركِ - رحمه الله - : « المؤمنُ طالبٌ عُذْرَ إخوانِهِ ، والمنافقُ طالبٌ

(١) رَابَهُ الشَّيْءُ : رأى منه ما يكره ، ويقلق له .
(٢) « بهجة المجالس » (٤/٧٣٨) .
(٣) « عيون الأخبار » (٣/٢٦) .
(٤) « روضة العقلاء » (ص١٨٤-١٨٥) .

عَثَرَاتِهِمْ » [١] .

وقال الشافعيُّ - رحمه الله - :

اقبَلْ معَاذيرَ مَنْ يَأْتيكَ معْتَذرًا ... إنْ بَرَّ[٢] عندَكَ فيما قال أو فَجَرا [٣]
لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ ... وَقَدْ أَجلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرا [٤]

ومن التَّغافُلِ عَدَمُ المؤاخَذَة بالزَّلَّة ، فعلى المحاور العاقلُ ألاَّ يزهدُ في محاوره بسبب هَفْوَةٍ ، ولا سيَّمَا إذا كانت يسيرةً ، أو مِنْ شَخْصٍ له فَضْلٌ ، كما قيلَ :

وَإذا الحَبِيبُ أَتَى بذنْبٍ واحِدٍ ... جَاءَتْ محاسنُهُ بألْفِ شَفِيعِ [٥]

وبعضُ المحاورينَ إذا رأى من محاوره زلَّةً زَهِدَ فيه ، وهذا خَطَأٌ ؛ فَمَنْ الَّذي ما سَاءَ قَطُّ ؟! .

قال بشارُ بن بُرْدٍ :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مرَارًا عَلَى القَذَى[٦] ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاس تَصْفُو مَشَارِبُهْ ؟!
وَمَنْ ذا الَّذي تُرْضَى سَجَايَاهُ [٧] كُلُّها؟ ... كَفَى المَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ [٨]

وقال النابغةُ الذُّبيانيُّ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ [٩] ... عَلَى شَعْثٍ[١٠] أيُّ الرِّجال المُهَذَّبِ؟[١١]

(١) « آداب العشرة »(ص٤٣) .
(٢) بَرَّ : صَدَقَ .
(٣) فَجَرَ : كذبَ .
(٤) « ديوان الشَّافعيِّ »(ص٦٠) تحقيق البقاعي .
(٥) « مفتاح دار السَّعادة »(١/١٧٧) .
(٦) القَذَى : جمع قذاة ، وهي ما يقع في العين ، والشَّراب ، والماء من تُرابٍ ، وغير ذلك .
(٧) السَّجايا : الأخلاقُ والطِّباع ، مفردها سَجيَّة .
(٨) « ديوانِ بشَّار بن بُرْد »(ص٤٥) .
(٩) لا تَلُمُّهُ : أي لا تَجْمَعُهُ إليكَ .
(١٠) الشَّعَث : اتِّساخ الرَّأسِ من الغُبار ، والمقصود على ما به من الزَّلاَّتِ والهفواتِ .
(١١) « أدب الدُّنيا والدِّين »(ص١٧٣) .

المُدارَة

المُداراة خُلُقٌ من أخلاق النُّبوَّة ، يُحكِمُها الأذكياءُ ، ولا يتعدَّى حدودها الفضلاءُ وهي ترجعُ إلى حُسْنِ اللِّقاءِ، وطيب الكلام، والتَّوددِ للنَّاسِ، وتَجَنُّبِ ما يُشيرُ بسَخَطٍ من غير ثَلْمٍ للدِّينِ .

فعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّه استأذَنَ على النَّبيِّ ﷺ رجلٌ ، فقال : « ائذنوا له، بِئْسَ أخو العَشيرةِ[1] » ، فلمَّا جلَسَ تطلَّقَ له النَّبيُّ ﷺ في وَجْهِهِ ، وانبَسَطَ إليه ، فقلتُ : « يا رسولَ الله ، قُلْتَ ما قُلْتَ ، ثُمَّ ألَنْتَ له القَوْلَ ؟!» فقال : « يا عائشَةُ ، إنَّ شرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عنْدَ الله مَنْ تَرَكَهُ – أو وَدَعَهُ – النَّاسُ اتِّقاءَ فُحْشِه »[2] .

قال ابنُ حِبَّان – رحمه الله – : « الواجبُ عَلَى العَاقِلِ أن يُداريَ النَّاسَ مُدَارَاةَ الرَّجُلِ السَّابح في الماءِ الجاري ، ومَنْ ذَهَبَ إلى عِشْرَةِ النَّاسَ مِنْ حيثُ هو ، كَدَّرَ عَلَى نفسِهِ عَيْشَهُ ، ولم تَصْفُ له مَوَدَّتُهُ ؛ لأنَّ وِدادَ النَّاسِ لا يُستَجْلَبُ إلاَّ بمساعدَتِهم على مَا هُمْ عليه ، إلاَّ أنْ يكونَ مأثمًا ، فإذا كانت حاله معصية ، فلا سمْعَ ولا طاعَةَ ، والبَشَرُ قد رُكِّبَ فيهم أهْواءٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وطبائعُ مُتباينةٌ ، فكما يَشُقُّ عليكَ تَرْكُ ما جُبِلْتَ عليه ، فكذلك يَشُقُّ على غيرك مُجانَبَةَ مثله ، فليس إلى صَفْوِ ودادهم سبيلٌ إلاَّ بمعاشرتهم من حيثُ هم ، والإغضاء عَنْ مُخالفتهم في الأوقاتِ »[3] .

وقال أيضًا : « مَن التمسَ رضى جميع النَّاسِ ، التمسَ ما لا يُدْرَكُ ، ولكن

---

(١) **العشيرة** : القبيلة ، أي بئسَ هذا الرجل منها .
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٠٣٢) و (٦٠٥٤) و (٦١٣١) ، ومسلم (٢٥٩١) .
(٣) « روضة العقلاء » (ص٧١) .

يقصد العاقلُ رضَى مَنْ لا يجدْ من مُعاشَرَتِه بُداً ، وإنْ دَفَعَهُ الوقتُ إلى استحسانِ أشياءَ من العاداتِ كان يستقبحها ، واستقباحِ أشْياءَ كان يستحسنها ، ما لم يكن مأثمًا ؛ فإنَّ ذلك من المُداراة ، وما أَكْثَرَ مَنْ دارى فلم يسلمْ ! ، فكيف تُوجدُ السَّلامةُ لَمَنْ لا يُدَاري ؟! » (١) .

وقال الخطابي : أَنْشَدَني ابنُ مالكٍ ، قال : أنشدني الدغوليُّ في سياسة العامَّة :

إذَا أَمِنَ الجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً ... فَعِرْضُكَ للجُهَّالِ غُنْمٌ من الغَنَمِ
وَإِنْ أَنْتَ نَازيتَ السَّفيهَ إذَا نَزَا(٢) ... فَأَنْتَ سَفيهٌ مثْلُهُ غَيْرُ ذي حِلْمِ
ولا تَتَعَرَّضْ للسَّفيه ودَاره ... بمَنْزِلَةٍ بَيْنَ العَدَاوَة والسِّلْمِ
فَيَخْشَاكَ تَارَاتٍ ، ويَرْجُوكَ مَرَّةً ... وتَأْخُذُ فيما بَيْنَ ذَلكَ بِالحَزْمِ (٣)

وقال ابن نباتة السعدي :

وَإِذَا عَجَزْتَ عَنِ العَدُوِّ فَدَارِه ... وامْزِجْ له ؛ إنَّ المِزاجَ وفَاقُ
فالنَّارُ بالماءِ الَّذي هو ضِدُّها ... تُعْطي النَّضَاجَ وَطَبْعُها الإِحْرَاقُ (٤)

ومن المُداراةِ إذا حدَّثَ محاورُك بكلامٍ غريبٍ ألاَّ تُبادرْ إلى تكذيبه ، وتفنيدِ قَوْلِه ، فهذا الصَّنيعُ لا يحسن أبدًا ، وليسَ من صفاتِ عُظَمَاء الرِّجالِ وأكابرهم، فإنَّهم يتغاضونَ عن خطإِ مُحاورهم ، ويتعامون عن زلَّته ، وإذا كان الخطأُ كبيرًا ، فإنَّهم يُبيِّنُونَ له الخطأ ، ويُرشدونَهُ إلى الصَّوابِ بأجْمَلِ عبارةٍ ، وأَلْطَفِ إشارةٍ .

---

(١) المرجع السَّابق (ص٧١-٧٢) .
(٢) نَزَا : وَثَبَ وأَرَادَ الشَّرَّ .
(٣) « العزلة » (ص٢٠٦) .
(٤) « جواهر الأدب » (ص٧٠٨) .

قال عبدُ الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما : « ثلاثةٌ من قُريش ، أَحْسَنُها أخلاقًا ، وأَصْبَحُها وُجُوهًا ، وأشَدُّها حياءً ، إنْ حَدَّثوكَ لمْ يكْذِبوكَ ، وإنْ حدَّثْتَهُمْ بحقٍّ أو باطلٍ لم يُكذبوك : أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، وعثمانُ بن عفَّان ، وأبو عُبيدَةَ بن الجرَّاح »[1] .

وقال ابنُ حبَّان - رحمه الله - : « العاقلُ إذا دَفَعَهُ الوقتُ إلى صُحْبَةِ مَنْ لا يثقُ بصداقته ، أو صداقَةِ مَنْ يَثِقُ بأخوَّته ، فرأى من أحدهما زلَّةً ، فَرَفَضَهُ لزلَّته ، بَقِيَ وحيدًا لا يجدُ مَنْ يُعاشِر ، فريدًا لا يجدُ من يُخادن ، بلْ يُغضي على الأخ الصادق زلاَّته ، ولا يُناقش الصَّديق السَّيِّئ على عثراته ؛ لأنَّ المناقشَة تلزمه في صحيح أصل الوداد أكثرَ ممَّا تلزَمه في فرعِه »[2] .

ومن جميل ما ينسب للإمام علي بن أبي طالب قوله :

أُغْمِّضُ عَيني عن أُمورٍ كثيرةٍ ... وَإِنِّي عَلَى تَرْكِ الغُموضِ قَديرُ
وما مِنْ عَمَى أُغْضي ولكنْ لرُبَّما ... تَعَامَى وَأَغْضَى المرءُ وهو بصيرُ
وأَسْكتُ عَنْ أَشْيَاءَ لو شِئْتُ قلتُها ... ولَيْسَ عَلَيْنا في المقالِ أَميرُ
أُصَبِّرُ نفسي باجتهادي وطاقَتي ... وَإِنِّي بِأَخْلاقِ الجميعِ خبيرُ[3]

وقال منصورُ بن محمَّد الكُرَيْزيُّ :

أُغْمِضُ عَيني عن صديقي كَأَنَّني ... لَدَيْه بما يأتي مِنَ القُبْحِ جَاهِلُ
وما بي جَهْلٌ غَيْرَ أَنَّ خَليقَتي ... تُطيقُ احتمالَ الكُرْهِ فيما أُحاولُ
مَتَى مَا يَرِبْني[4] مِفْصلٌ فقطَعْتُهُ ... بَقَيْتُ وما لي في نُهوضي مفاصِلُ

---

(١) « عيون الأخبار » (٢/٢٣) .
(٢) « روضة العقلاء » (ص٧٣) .
(٣) « ديوان الإمام عليٍّ » (ص٦٠ - ١) .
(٤) يقول : لو أنِّي كُلَّما رابني من صديقي أمرٌ يُسَبِّبُ فصلَ ما بيننا من مودَّةٍ ، لم أجِدْ عند احتياجي إلى من ينهض بي عند عثرتي صديقًا .

ولَكِـنْ أُدَارِيْهِ وإِنْ صَـحَّ شَـــدَّنِي … فَإِنْ هو أعيا كـان فيه تحامُلُ (١) (٢)

وقَدْ تقيمُ الحُجَّة الدَّامغَةَ علـى محاورك ، فَيُسَلِّمُ لك بعقله ، لكنَّه لم يُسلِّمْ لَكَ بعاطفَته ، فتلجأُ إلى الرِّفقِ والمداراة مهما طَالَ الزَّمَنُ ، والعَرَبُ تقول : «إذا لَمْ تغلبْ فاخْلبْ » (٣) .

وإذا حاورْتَ ذا يد باطشَـة ، أو ذا لِسانٍ عُـرِفَ بنَهْشِ الأَعْراضِ ، فـامْنَحْهُ جبينًا طَلْقًا ، وتجنَّبْ ما يكون له أثرٌ في نفسه عليْكَ .

قال عقال بن شبة : « كنتُ رديفَ أبي ، فَلَقِيَهُ جريـرٌ على بَغْلٍ ، فحيَّاهُ أبي وألْطَفَـهُ ، فلمَّا مـضى قلْتُ لأبي : أَبَعْدَ مـا قال لنا مـا قَالَ ؟! ، قـال أبي : أفأُوَسِّعْ جُرْحي ؟! » (٤) .

وقال محمدٌ بن الفضل : « قُلْتُ لأبي : لِمَ نَجْلسُ إلى فلانٍ ، وقـدْ عرفتَ عداوتَه ؟! ، قال : أَخبي نارًا ، وأَقْدَحُ في وُدٍّ » (٥) .

وقال المهاجرُ بن عبد الله :

وَإِنِّي لأُقْـصِي المرءَ مِنْ غَيْـرِ بُغْضِـهِ … وأُدْني أخَا البغْضَـاءِ منِّي عَلَى عَمْد
لِيُحْـدِثَ وُدًّا بَعْدَ بَغْـضَاءَ ، أَو أَرَى … له مَصْرَعًا يُرْدي بِهِ اللهُ مَنْ يُرْدي (٦)

وقال آخرُ :

تَجَنَّبْ صديقَ الـسُّوءِ واصْرِمْ حِـبالَهُ … وَإِنْ لم تجِـدْ عنه مَـحِيصًا فَـدَارِه
وَأَحْبِبْ حبيبَ الصِّدْقِ واحْذَرْ مِرَاءَهُ … تَنَلْ مِنْهُ صَفْـوَ الوُدِّ ما لم تُمارِهِ (٧)

---

(١) يقـول : إنَّ من الحكمـة أن أُداري صـديقي ، وأغضَّ عن زلاَّته ؛ حـتَّى إذا صحَّ وُدُّه قـويتُ به ، وأعطاني شدَّةً في أمري ، وإنْ ضعف وعجز وجدتُ فيه بعض ما يتحامل به من قوَّة أنتفعُ بها .

(٢) روضة العقلاء » (ص٧٣) .

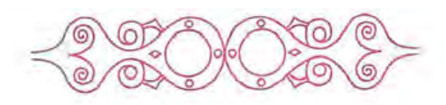
(٣) « الأمثال » (ص١٥٦) .

(٤ ، ٥ ، ٦) « عيون الأخبار » (٣/ ٢٢) .

(٧) « روضة العقلاء » (ص٧٢) .

ومن اللطائف في هذا الباب ما ذُكِرَ عن ابن شَوْذَبَ قال:

« كانتْ لرجلٍ جاريةٌ ، فوطئها سراً ، فـقال لأهله : إنَّ مريمَ كانت تغتَسلُ في هذه اللَّيلة ؛ فاغـتسلوا ، فاغـتَسَلَ هو واغْتَسَلَ أَهْلُهُ » ، قـال ابن شَوْذَب : «وكانت مريمُ تغتسلُ في كُلِّ ليلةٍ » (١) .



(١) رواه ابن حبَّان في « روضة العقلاء » (ص٧٣) .

الابتعاد عن المداهنة

بعد أن أَوْضَحْنَا شيئًا من المُداراة ، يَحْسُنُ بنا أنْ نوضِّحَ ما هي المداهنة ؛ لأنَّ الأشياء تتميَّزُ بضدِّها .

فالمداهنة : هي إظْهار الرِّضى بالمنكر ، فهي بلادةٌ في النَّفْسِ ، واستكانَةٌ للهوى .

وأصْلُ المُداهنَة من الدِّهان : وهو الَّذي يظهر علي الشَّيء ، ويسترُ باطنه .

فالمُداهنُ يَلْقَى الفاسقَ المُعْلِن بِفسْقِه ، فيؤلِّفه ، ولا يُنكرُ عليه ولو بقلبه ، أو يرى منكرًا ، ويقدرُ على دفعه ، ولَمْ يدفعه حفظًا لجانبِ مرتكبه ، أو جانب غيره ، ويترك بعض ما هو عليه من أمرِ الدِّين ممَّا لا يرضاهُ النَّاسُ مُصانَعَةً لهم ، فهذه المُداهَنَة هي الَّتي رغب مُشركوا مكَّة في وجودها عند النَّبيِّ ﷺ ، فقد قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ﴿٩﴾ [القلم : ٩] .

ولقدْ حَذَّرَ الرَّسولُ ﷺ من سوءِ عاقبَة المداهن ، وعدم الأخذ على يده ؛ فعن النُّعمان بن بشيرٍ رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مَثَلُ المُدَاهِنُ[١] في حُدود الله ، والواقعِ فيها مَثَلُ قومٍ استهمُّوا[٢] سفينةً ، فصارَ بعضهم في أسفلها ، وصارَ بَعْضُهُمْ في أعلاها ، فكان الذي في أسفَلها يَمرُّونَ بالماء على الَّذينَ في أعلاها ، فتأذَّوا به ، فأَخَذَ فأسًا ، فجَعَلَ يَنْقُرُ[٣] أَسْفَلَ السَّفينة ، فأتوهُ فقالوا : ما لك ؟! ، قال : تَأَذَّيْتُمْ بي ، ولابُدَّ لي من الماء ، فإنْ أخذوا على يَدَيْه[٤] أنجوهُ ، ونَجُّوا أَنْفُسهم ، وإنْ تَركوهُ أَهلكوهُ ، وأَهْلَكوا أَنْفُسَهُمْ »[٥] .

---

(١) مَثَلُ المُداهنُ : أي صفته .
(٢) الاستهام : الاقتراع .
(٣) ينقر : يخرق .
(٤) أخذوا على يديه : منعوه وزجروه .
(٥) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٧٣) .

وقد فصلَ العلامة ابن بطال - رحمه الله - الفرق بين المداراة والمداهنة ، فقال :

«المداراة من أخـلاقِ المؤمنين ، وهي : خَـفْضُ الجَنَاحِ للنَّاسِ ، ولينُ الكلمـة ، وتركُ الإغلاظِ لهم في القـول ، وذلك من أَقْوى أسبابِ الأُلْفَة ، وظَـنَّ بَعْضهم أنَّ المداراة هي المداهنة فغلط ؛ لأنَّ المداراة مندوبٌ إليها ، والمداهنَة محرَّمة .

والفـرْقُ أنَّ المداهنَة من الدِّهان : وهو الذي يظْهـرُ على الشَّيْءِ ، ويستـر باطنه ، وفسَّرها العلماءُ بأنَّها : مُعـاشَرَةُ الفاسِقِ ، وإظْهارُ الرِّضَى بما هو فيه من غيرِ إنكارٍ عليه .

والمداراة : هي الرِّفْق بالجَاهِلِ في التَّعليم ، وبـالفاسِقِ في النَّهي عن فعله ، وترْكِ الإغـلاظ عليه حـيثُ لا يظهر مـا هو فيـه ، والإنكارُ عليه بلُطفِ الـقَوْلِ والفعلِ ، ولا سيَّما إذا احتيجَ إلى تألُّفه ، ونحو ذلك » [1] .

والمداهِنُ يَعْجَلُ إلـى كُلِّ قَولٍ يَشْتَـهيهِ مـحاوره بغَضٍّ النَّظَرِ عن قناعَـتِهِ من عدمها ، ولشوقي قصيدة لطيفة عنوانها « نديمُ الباذنجان » قال فيها :

كـــان لسُلطـانٍ نديمٌ [2] وافِ	يُعـيـدُ مَـا قـالَ بلا اخْـتـلاف
وَقَـــدْ يزيدُ فـي الثَّنا عليــــه	إذَا رأَى شَـيْـئًـا حـلاً لـديه
وكـــان مَـــوْلاهُ يـرَى ويعـلَمُ	ويســمعُ التَّـملـقَ [3] لكن يكتمُ
فـجلسـا يومًـا عـلى الخـوانِ [4]	وجِيءَ فـي الأَكْلِ ببـاذنْجـان
فـأَكَلَ السُّلْطانُ مـنه مـا أَكَلْ	فـقـال : هذا في المذاق كـالعَسَلْ
قـال الـنَّديمُ : صَـدَقَ السُّلْطان	لا يَسْـتَـوي شَـهْـدٌ وباذنْجـان
هَـذَا الَّذي غَـنَّى بـه الـرَّئِيسُ [5]	وقـال فـيـه الشِّـعْـرَ جـالينوسُ

(١) « فتح الباري »(١٠/٥٢٨) .
(٢) النَّديم : الجليس على الشَّراب .
(٣) التَّمليق : النِّفاق .
(٤) الخوان- بضم الخاء أو بكسرها - ما يُؤْكَلُ عليه الطَّعام (المنضدة) .
(٥) الرَّئيس : يعني ابنَ سينا .

يُـذْهِـبُ أَلْـفَ عِـلَّـةٍ وَعِـلَّـهْ ... ويُبْــرِدُ الـصَّـدْرَ ويَشْـفِي الـغلَّهْ

قـال [١] : ولكـنْ عنـدَهُ مَـرَارَهْ ... ومـا حَـمِـدْتُ مَـرَّةً آثارهْ

قـال : نعـم ، مُـرٌّ وهذا عَـيْـبُـهُ ... مُـذْ كُنْتُ - يا مـولايَ - لا أُحِبُّـهُ

هَذَا الَّـذي مـات بِـهِ بُقْـرَاط ... وسُمَّ فـي الكأسِ به سُـقْـراط

فـالتَـفَتَ السُّلْطَانُ فـيـمَنْ حَـوْلَهُ ... وقـال : كـيفَ تجدون قـوله ؟

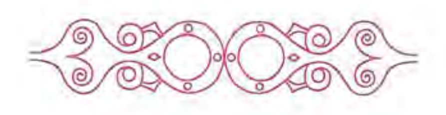
قـال الـنَّديمُ : يا مَـليكَ الـنَّاس ... عُـذْرًا فـمـا في فـعلَـتي مِنْ باس

جـعـلتُ كي أُنـادِمَ السُّـلْطـانا ... ولـم أُنادم قَـطُّ باذنجـانا [٢]

وخلاصة القول في الفرق بين المداراة والمداهنة أنَّ المداراة : هي التَّنازُلِ عن شيءٍ من حقوقك لمصلَحَة متحقِّقَة .

والمُداهَنة : هي التَّنازُلِ عن شـيءٍ من الدِّينِ ، فـهي - إذًا - من صـفـاتِ المُنافقين .

فـحـريٌّ بالمحـاورِ أن يسلُـكَ طَريقَ المداراة ، وينأى [٣] بنفسـهِ عن طريقِ المداهَنَة .



(١) يعني السُّلْطان .
(٢) « الشَّوقيَّات » (٤/١٢١) .
(٣) ينأى : يَبْعُدُ .

الابتعادُ عن الخَجَلِ [1]

الخَجَلُ : هو الشُّعـور بالحَرَجِ والاضْطراب عند مُـواجَهَـة النَّاسِ عُمـومًا ، وعلى هذا فهو يخْتَلِف عن الحياء الذي هو : شـعورٌ بالانقباضِ والحَرَجِ عن فِعْلِ ما يشينُ ، أو ذِكْرِه ، وعلى هذا فالحياءُ محمودٌ ، والخَجَلُ مذمومٌ .

من مظاهر الخجلِ :

{ ١ } توتُّر الأعصابِ عِنْدَ لِقاء الآخرين .

{ ٢ } التَّلَعْثُمُ في الكلامِ ، وعَدَمِ القُدْرَةِ على الحوارِ معهم .

{ ٣ } اضْطراب الجوارح ، واحمرار الوَجْه .

{ ٤ } عدم الثِّقَة بالنَّفْسِ في مُباشَرَةِ كثيرٍ من الأعمالِ بحضورِ الآخرين .

علاجُ مَرَضِ الخَجَلِ :

{ ١ } اندمجْ اجتماعياً ضِمْنَ مجموعَةٍ من زملائكَ ، أو جيرانك ، أو أقاربك ، وشاركهم في حوارهم .

{ ٢ } أَلْقِ بَعْضَ النُّكَتِ المُضحكة على الآخرين ، وشارِكْهُم في الضَّحِكِ .

{ ٣ } حاولْ أنْ تتعرَّف علَى مَنْ تلقـاهم في بَعْضِ المناسبات ، مثل : الطَّائرَة ، أو الحافلة ، أو بعض الأماكن العامَّة ، وحاورهُمْ وتعرَّفْ على أفْكارِهم .

{ ٤ } عِنْدَ عَرْضِ أَفْكارِكَ حـاولْ أنْ تُقْنِعَ نَفْسكَ بأَنَّكَ تتحـدَّث لوحدك ، وليسَ أمَامَكَ أحدٌ عند الحديث .

{ ٥ } حافِظْ عَلَى صـلاةِ الجماعـةِ في المسجِـدِ ، وَتَولَّ الإمامةَ ، وبخـاصَّةٍ في

(١) استفدتُ هذا المبحث من كتاب « حتَّى لا تكونَ كلاًّ » .

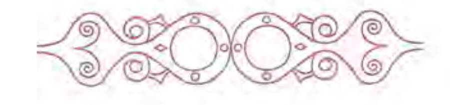
الصَّلاةِ الجهريَّة عندما تُتاح لك فرصةٌ لذلك .

٦ أَلْقِ خاطِرَةً بَعْدَ الصَّلاةِ علَى المُصَلِّين .

٧ احرصْ على أنْ تُشارِك الآخرين في الحوارِ عندما يكونُ موضوعُ الحوارِ في الجوانِبِ التي تعلمْ تَفوُّقَكَ فيها .

٨ إذا أَحْسَسْتَ بتوتُّرِ أعصابك ، فحاولْ أنْ تسترخيَ قليلاً ثُمَّ تعود للحوارِ .

٩ قبْلَ مُواجهتك للآخرين خَطِّطْ لحوارك وأفعالك ، وتوقَّعْ ردَّ فعل محاورك وَعَدِّلْ خُطَطَكَ على ضَوْءِ ذلك ، ثُمَّ تَمَرَّنْ على ما ستقولُهُ ، وحاولْ أن تُطَبِّقَهُ أَكْثَرَ منْ مَرَّة ، ثُمَّ نَفِّذْ ما خَطَّطت له مباشرةً ، وبصدْقٍ وأدَبٍ مع الآخرين ، وإذا تكرَّر هذا منك عدَّة مرَّاتٍ ، فسيزولُ الخَجَل بإذْنِ الله .



الخاتمة

الحمدُ لله الَّذي وفَّقني لإنجازِ هذا البَحْثُ ، فلولا فضْلُ الله ورحمتُهُ ما كنتُ لأهتدي إليه ، وأسأله - سبحانه وتعالى - قَبُولَهُ ، وجَعله نافعًا مباركًا مفيدًا ، وقد عرفنا من خلال هذا البَحْث أنَّ الحوار أصْلٌ مهمٌّ من أُصول دعوتنا ، فمن خلالِ الحوارِ النَّاجحِ يُمكننا أنْ نفهم النَّاس ، ونحسن عشرتهم ، ونتحبَّب إليهم، ونأخُذُ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم .

ومع أنَّ كُلَّ إنسانٍ عزيزٌ بالفطْرَةِ ، كريمُ النَّفْسِ بتكريمِ الله له ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، فهو يميلُ إلى مَنْ يحترم له شخصيَّته التي أكرَمَها اللهُ ، فاحترامنا لشخصيَّة أيِّ إنسانٍ هو مفتاح الدُّخولِ إلى قلبِه ، ولَمَّا كانَ الدُّخول إلى ذلك القلْب يعتمدُ اعتمادًا كبيرًا على حُسْنِ المحاورة ؛ أَحبَبْتُ أن أَكْتُبَ ما حرَّرْته هنا على حسب ما فهمتُهُ بفَهْمي القاصر ، وعلمي المحدود ، عَسَى أن ينتفعَ به إخواني من طلبَةِ العلم وغيرهم ، بحيثُ يأخذونَ منه الثِّمار ، ويُلقونَ الحَطَبَ في النَّارِ ، ويلتفتون إلى ما فيه من الصَّوابِ ، ولو كانَ قائلُهُ حقيرًا ، ألا تَرَى أنَّ ملكة سبأ في حال كونها تسجُدُ للشَّمْسِ من دونِ الله هي وقومها ، لَمَّا قالت كلامًا حقًا صدَّقَها اللهُ فيه ، ولم يكنْ كفرها مانعًا من تصديقها في الحقِّ الذي قالَتْهُ ، وذلك في قولها فيما حكي اللهُ عنها : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ ؛ فقد قال اللهُ تعالى مصدِّقًا لها : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النَّمل : ٣٤] .

ولله درُّ الشاعرُ القائل :

لا تَحْقِرَنَّ الرَّأْيَ وهُوَ موافقٌ ... حُكْمَ الصَّوابِ إذا ما أَتَى مِنْ نَاقصِ
فالدُّرُّ - وهو أَعَزُّ شَيءٍ يُقْتَنَى - ... ما حَطَّ قِيمَتَهُ هَوَانُ الغَائصِ

ولا نُبَرِّئُ أنفُسَنَا من خَلَلٍ ولا رَيْبٍ ، ولا نكتُبُ بِشَرْطِ البراءَة من كُلِّ عيبٍ بل نعترف بالقُصورِ ، ونسألُ اللهَ العَفْوَ عَمَّا جَرَى به القلمُ من خطإٍ غير مقصودٍ، كيف لا وقدْ قالوا : « الإنسانُ في فُسْحَةٍ من عقلِهِ ، وفي سلامةٍ من أفواهِ جنسِهِ، ما لم يضعْ كتابًا ، ولم يقُلْ شِعْرًا » .

وقالوا : « مَنْ صَنَّفَ كتابًا ، فقدْ استشرف للمدحِ والذَّمِّ ، فإنْ أحسَنَ فقدْ استهدَفَ من الحَسَد والغَيْبَة ، وإنْ أسَاءَ فقدْ تَعَرَّضَ للقذفِ والشَّتْمِ » .

ولا أزْعُمُ خُلُوَّ هذاالجهد المتواضع من خَلَلٍ ونقصٍ وتقصيرٍ ، بل أقول : «إنْ يَكُ صوابًا فمن الله ، وإنْ يكُ خطأً فمنِّي ومن الشَّيطان ، والله عزَّ وجلَّ ورسولُهُ بريئان » [١] .

ورَحِمَ اللهُ امرأً وجَدَ خَلَلاً أو خطأً فنبَّهني ، وأختمُ هذا البحث بما ختم به الإمامُ محمَّد بن إبراهيم الوزير كتابه العظيم « العواصِمُ والقواصم » ، وهو قوله:

جَمَعْتُ كتابي راجيًا لقبولِهِ ... منَ اللهِ ، فالمرْجُوُّ منه قَريبُ
رَجَوْتُ بِنَصْرِ المصطَفَى وحديثِه ... تُكَفَّر لي يومَ الحِسَاب ذُنوبُ
ومَنْ يَتَشَفَّعْ بالحَبيبِ مُحَمَّدٍ [٢] ... إِلَى الله في أمرٍ ، فليسَ يَخيبُ
فيا حافظي عِلْمَ الحَديثِ لي اشْفَعوا ... إِلَى الله فالرَّبُّ الكريمُ يُجيبُ
لَعَلَّ كتابي أنْ يكونَ مُذَكِّرًا ... لكم بالدُّعاء للعَبْدِ حينَ يَغيبُ
ولاسيَّما بَعْدَ المماتِ عَسَى بِهِ ... يُبَلُّ غَليلٌ [٣] أو يُكَفَّرُ حُوبُ [٤]

---

(١) هذا قاله عبد الله بن مسعود ﷺ أثناءَ جوابه علَى استفتاء . انظر « مسند الإمام أحمد » رقم (٤٢٧٦) (٦/ ١٣٧) و صحح إسناده أحمد شاكر ، انظر تعليقه علي المسند (٦/ ١٣٧) .

(٢) هذا فيه نظرٌ ، إذا قَصَدَ الإمام ابن الوزير - رحمه الله - التَّوسُّلَ إِلَى الله بجاه نبيِّه ، فهو توسُّل بدعيٌّ ، لا نوافقه عليه .

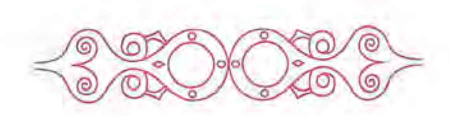
(٣) الغليل : شدَّة العَطَشْ .

(٤) حوب : ذنب .

ولا تَغــــفلوني إنِّـي بليتُ بـودِّكم ... وَإنْ بَلِـيَتْ منِّي الـعظامُ تَـشـــيبُ
ومـهمـا رأيتمْ في كـتـابي قُصُـورَهُ ... فسـترًا وغَـفرًا ، فالقُـصُورُ مـعيبُ
ولكــن عُــــذْري واضحٌ وهو أنَّـني ... من الخَـلْقِ أُخْطِئُ تـارَةً وأُصِـــيبُ
وقَدْ يَنْثَني الصَّمْصامُ (١) وهو مجرَّدٌ ... وقَـــدْ يُكْـسَـــرُ المرَّانُ وهو صـليبُ
ولكـنَّني أرجــــو إذا حَـلَّ دَارَكُمْ ... حَلَى منه ، ورد بالأُجـاج مشـوبُ
يكون أَخًـا دونكـم ، فَـإذا انتَـهَى ... إلَيكم تـلَقَّى طِيْــبَـتـكُمْ فـيـطيبُ

وأخيرًا أسألُ اللهَ سبحانه وتعالى أنْ يَغْفرَ لي زلاَّتي وخطيئاتي ، وجُرْأتي على ما لا أحسن ولا أطيقه ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيم ، وصلَّى اللهُ على عبدِهِ ورسولِهِ نبيِّنا محمَّدٍ ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ، وأتباعِهِ إلى يومِ الدِّين ، وبارك وسلّم .

وآخِرُ دَعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين .



(١) الصَّمْصَام : السَّيف .

المصادر والمراجع

{ ١ } « القرآنُ الكريم » .
{ ٢ } « الإبانة في أصولِ الدِّيانة » لابن بطَّة .
{ ٣ } « أبناء الغمر » لابن حجرٍ العسقلانيِّ .
{ ٤ } « إحياءُ عُلُومِ الدِّين » لأبي حامد الغزاليِّ .
{ ٥ } « الاختلاف في اللفظ والرَّد عَلَى الجَهْميَّة » .
{ ٦ } « أخطاء في أدب المحادَثة والمجالسة » لمحمَّد بن إبراهيم الحمد .
{ ٧ } « الأخلاق والسِّيَر » لابن حَزْمِ الأندلسيِّ .
{ ٨ } « آداب البحث والمناظَرَة » لمحمَّد الأمين الشَّنقيطيِّ .
{ ٩ } « أدبُ الدُّنيا والدِّين » لأبي الحَسَنِ الماورديِّ .
{ ١٠ } « أدب الطَّلَب ومنتهى الأرب » للشَّوكانيِّ .
{ ١١ } « أدبِ العشْرة وذكر الصُّحْبَة والأُخوَّة » لبدر الدِّين الغزي .
{ ١٢ } « الأدَب الكبير والأدب الصَّغير » لابن المُقفَّع .
{ ١٣ } « أدب المجالس » لابن عبد البرِّ .
{ ١٤ } « الأذكار » للنَّوويِّ .
{ ١٥ } « استخراج الجدل من القرآن الكريم » لابن الحنبليِّ .
{ ١٦ } « إرشاد الفحول » للشوكانيِّ .
{ ١٧ } « إصلاح المجتمع » للبيمانيِّ .
{ ١٨ } « أُصول الجَدَل والمناظَرَة في الكتاب والسُّنَّة » لمحمد بن إبراهيم العثمان.
{ ١٩ } « أصول الفقه » لابن مفلح المقدسيِّ .
{ ٢٠ } « أَضواء البيان » لمحمَّد الأمين الشَّنقيطيِّ .
{ ٢١ } « أطواق الذَّهب » للزَّمخشريِّ .
{ ٢٢ } « أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ٢٣ } « الاعتصام » للشَّاطبيِّ .
{ ٢٤ } « الإعلام » لخيِّر الدِّين الزِّركليِّ .
{ ٢٥ } « الإعلان بالتَّوبيخ لمن ذمَّ التَّاريخ » للسَّخاويِّ .
{ ٢٦ } « إغاثة اللَّهفان » لابن قيِّم الجوزيَّة .
{ ٢٧ } « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لابن تيمية .
{ ٢٨ } « أقوال مأثورة » لمحمَّد لطفي الصَّبَّاغ .
{ ٢٩ } « الأمالي » .
{ ٣٠ } « الأمثال » لأبي عُبَيْد .
{ ٣١ } « الأمر بالاتِّباع » للسيوطيِّ .
{ ٣٢ } « إيثار الحقِّ على الخَلْق » لابن الوزير .
{ ٣٣ } « بدائع الفوائد » لابن قيِّم الجوزيَّة .
{ ٣٤ } « البداية والنهاية » لابن كثير .
{ ٣٥ } « البدر الطَّالع » للشوكانيِّ .
{ ٣٦ } « بغية الإيضاح » للصَّعيديِّ .
{ ٣٧ } « بهجة المجالس وأنس المجالس » لابن عبد البرِّ .
{ ٣٨ } « بهجة المجالس » للأثريِّ .
{ ٣٩ } « البيان والتَّبيين » للجاحظ .
{ ٤٠ } « تاريخ بغداد » للخطيب البغداديِّ .
{ ٤١ } « تاريخ الجَدَلْ » لأبي زهرة .
{ ٤٢ } « تاريخ دمشق » لابن عساكر .
{ ٤٣ } « ذكرة السَّامع والمتكلِّم في أدب العالم والمتعلِّم» لجارِ الدِّين ابن جماعة .
{ ٤٤ } « تربية الأطفال في الإسلام » لمحَمَّد النَّاصرِ ، وخولة درويش .
{ ٤٥ } « ترتيب الموضوعات » للذَّهبيِّ .
{ ٤٦ } « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» لابن الوزير .

{ ٤٧ } « تسلية أهل المصائب » لمحمَّد المنبجيِّ .

{ ٤٨ } « التَّعالم وأثره على الفكْر والكتاب » لبكر بن عبد الله أبو زيدٍ .

{ ٤٩ } « التَّعريفات » للجرجانيِّ .

{ ٥٠ } « تفسير القرآن العظيم » لابن كثيرٍ .

{ ٥١ } « التَّفسير القيِّم » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ٥٢ } « التَّقريب لحدِّ المنطق » لعليِّ بن حَزْمٍ الأندلسيِّ .

{ ٥٣ } « تلخيص الحبير » لابن حجَرٍ العسقلانيِّ .

{ ٥٤ } « التَّمهيد » لابن عبد البرِّ .

{ ٥٥ } « تهذيب الأخلاق » للجاحظ .

{ ٥٦ } « تهذيب ابن عساكر » .

{ ٥٧ } « تهذيب الأسماء واللغات » للنَّوويِّ .

{ ٥٨ } « تهذيب الكمال » للمزيِّ .

{ ٥٩ } « التَّوابين » لابن قدامة المقدسيِّ .

{ ٦٠ } « تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان » لابن سَعْديٍّ .

{ ٦١ } « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البرِّ .

{ ٦٢ } « جامع العلوم والحكم » لابن رجبٍ الحنبليِّ .

{ ٦٣ } « الجامع الصَّحيح ممَّا ليس في الصَّحيحين » لمقبل بن هادي الوادعيِّ .

{ ٦٤ } « جوامع الأدب والأخلاق » للقاسميِّ .

{ ٦٥ } « جواهر الأدب » لأحمد الهاشميِّ .

{ ٦٦ } « حتَّى لا تكون كلاًّ » لعوض بن محمَّدٍ القرنيِّ .

{ ٦٧ } « الحُجَّة في بيان المحجَّة » لأبي القاسم الأصبهانيِّ .

{ ٦٨ } « الحسبة في الإسلام » لابن تيميَّة .

{ ٦٩ } « الحكمة في الدَّعوة إلى الله » للقحطانيِّ .

{ ٧٠ } « الحلم » لابن أبي الدُّنيا .

{ ٧١ } « الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسُّنَّة » ليحيى بن محمَّدٍ رمزي.

{ ٧٢ } « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهانيٍّ .

{ ٧٣ } « حياة الحيوان » لكمال الدِّين الدميري .

{ ٧٤ } « حياة شيخ الإسلام ابن تيميَّة » لمحمَّد بهجة البيطار .

{ ٧٥ } « درءُ تعارض العَقْلِ والنَّقْلِ » لابن تيميَّة .

{ ٧٦ } « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيٍّ .

{ ٧٧ } « ديوان أبي العتاهية » .

{ ٧٨ } « ديوان ابن الأمير الصَّنعانيٍّ » .

{ ٧٩ } « ديوان ابن هانئ » .

{ ٨٠ } « ديوان الإمام عليٍّ » .

{ ٨١ } « ديوان بشَّار بن بُرْد » .

{ ٨٢ } « ديوان عبد الكريم العماد » مخطوط .

{ ٨٣ } « ديوان الشَّافعيٍّ » .

{ ٨٤ } « ديوان المتنبِّي » .

{ ٨٥ } « الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة » للرَّاغب الأصفهانيٍّ .

{ ٨٦ } « الذَّيل على طبقات الحنابلة » .

{ ٨٧ } « الرَّدُّ على المخالف » لبكر بن عبد الله أبو زيد .

{ ٨٨ } « رسائل الإصلاح » لمحمَّد الخضر حسين .

{ ٨٩ } « الرَّوْضُ الباسم » لابن الوزير .

{ ٩٠ } « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » لابن حِبَّان البُسْتيٍّ .

{ ٩١ } « رياض الصَّالحين » للنَّوويٍّ .

{ ٩٢ } « الرِّياض الناظرة » لابن سَعْديٍّ .

{ ٩٣ } « زاد المسير في علم التَّفسير » لابن الجوزيٍّ .

{ ٩٤ } « زاد المعاد في هَدْي خير العباد » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ٩٥ } « زهرة الأدب » للحصري .
{ ٩٦ } « سراج الملوك » لأبي بكرٍ الطَّرطوشيِّ .
{ ٩٧ } « سلسلة الأحاديث الصَّحيحة » للألبانيِّ .
{ ٩٨ } « السُّنَن » لأبي داود سُليمان بن الأشعث السِّجِسْتانيِّ الأَزْديِّ .
{ ٩٩ } « السُّنَن » للتِّرمذيِّ .
{ ١٠٠ } « السُّنَن » لابن ماجَةَ محمَّد بن يزيد القزوينيِّ .
{ ١٠١ } « السُّنَن » للدَّاَاقطْنيِّ .
{ ١٠٢ } « السُّنَن » للبيهقيِّ .
{ ١٠٣ } « السُّنَن » للدَّارميِّ .
{ ١٠٤ } « سير أعلام النُّبلاء » للذَّهبيِّ .
{ ١٠٥ } « سيرة ابن هشام » .
{ ١٠٦ } « شذرات الذَّهب في أخبار مَنْ ذَهَب » لابن العماد الحنبليِّ .
{ ١٠٧ } « شرح أُصول الاعتقاد » .
{ ١٠٨ } « شرح السُّنَّة » لأبي محمَّد البربهاري .
{ ١٠٩ } « شرح السُّنَّة » للبغويِّ .
{ ١١٠ } « شرح العقيدة الطَّحاويَّة » لابن أبي العز الحنَفيِّ .
{ ١١١ } « شرح حديث » ما ذئبان جائعان » لابن رجب الحنبليِّ .
{ ١١٢ } « شرح الكواكب المنير ».
{ ١١٣ } « شرح النَّوويِّ على صحيح مسلمٍ » .
{ ١١٤ } « الشَّريعة » لأبي بكر الآجريِّ .
{ ١١٥ } « الشَّوقيَّات » لأحمد شوقي .
{ ١١٦ } « الصَّاحبي » لابن فارس .
{ ١١٧ } « الصَّحَّاح » لإسماعيل بن حماد الجوهريِّ .
{ ١١٨ } « صحيح ابن حبَّان »

{ ١١٩ } صحيح البخاريّ .
{ ١٢٠ } « صحيح الجامع الصَّغير وزيادته » للألبانيّ .
{ ١٢١ } « صحيح سُنن التِّرمذيّ » للألباني .
{ ١٢٢ } « صحيح مسلم » .
{ ١٢٣ } « صفة الصَّفوة » لابن الجوزيّ .
{ ١٢٤ } «صفحات من صبر العلماء على الشَّدائد والتَّحصيل» لعبد الفتاح أبي غدَّة .
{ ١٢٥ } « طريق الهجرتين » لابن قيِّم الجوزيَّة .
{ ١٢٦ } « عدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين » لابن قيِّم الجوزيَّة .
{ ١٢٧ } « العزلة » للخطَّابيّ .
{ ١٢٨ } « عقيدة السَّلَف أَصحاب الحديث » .
{ ١٢٩ } « العقيدة السَّلفيَّة من كلام ربِّ البريَّة » للجديع .
{ ١٣٠ } « عمدة القاري شرح صحيح البخاريّ » لبد الدِّين العيني .
{ ١٣١ } « العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونَقْده » لابن رشيق القيروانيّ .
{ ١٣٢ } « العواصم والقواصم » لابن الوزير .
{ ١٣٣ } « عين الأدب والسِّياسة » لعليّ بن هذيل .
{ ١٣٤ } « عيون الأثر » .
{ ١٣٥ } « عيون الأخبار » لابن قتيبة الدينوري .
{ ١٣٦ } « فتاوى ابن تيميَّة » جمع ابن القاسم .
{ ١٣٧ } « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » لابن حجر العسقلاني .
{ ١٣٨ } « فتح المجيد شرح كتاب التَّوحيد » لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ .
{ ١٣٩ } « الفاضل في صفة الأدب الكامل » لمحمَّد بن أحمد الوشاء .
{ ١٤٠ } « الفرقان » لابن تيميَّة .
{ ١٤١ } « الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير » لابن رجب الحنبليّ .
{ ١٤٢ } « فقه السِّيرة » للغزالي بتحقيق الألباني .

{ ١٤٣ } « الفقيه والمتفقِّه » للخطيب البغداديِّ .

{ ١٤٤ } « الفنون » لابن عقيل الحنْبليِّ .

{ ١٤٥ } « في أُصول الحوار » النَّدوة العالميَّة للشَّباب الإسلامي .

{ ١٤٦ } « فيض القدير شرح الجامع الصَّغير » للمنَّاوي .

{ ١٤٧ } « قانون التَّأويل » لأبي بكر ابن العربي .

{ ١٤٨ } « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » للعزِّ بن عبد السَّلام .

{ ١٤٩ } « القواعد الأساسية للُّغَة العربيَّة » للهاشميِّ .

{ ١٥٠ } « قواعد ومنطلقات في أصول الحوار وردِّ الشُّبُهات » للرُّحَيْلي .

{ ١٥١ } « الكافية في الجدل » لإمام الحرمين الجويني .

{ ١٥٢ } « الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز » لأبي حفص المعروف بالملاَّ .

{ ١٥٣ } « كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكريّ .

{ ١٥٤ } «كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون» لشهاب الدِّين النَّجفي المرعشي.

{ ١٥٥ } « كيف تكسب الأصدقاء وتُؤثِّر في النَّاس ؟ » لديل كارنيجي .

{ ١٥٦ } « لسان العرب » لابن منظور .

{ ١٥٧ } « لطائف المعارف » لابن رجب الحنبليِّ .

{ ١٥٨ } « لمحات في فنِّ الحوار » لبدري .

{ ١٥٩ } « المجْتَّبى »

{ ١٦٠ } محلَّة الأسرة العدد (٧٠) .

{ ١٦١ } مجلَّة الغذاء العدد (٢٧) .

{ ١٦٢ } « مجمع الزَّوائد ومنبع الفوائد » للهيثمي .

{ ١٦٣ } « المحاسن والمساوئ » لإبراهيم البيهقيِّ .

{ ١٦٤ } « المحنة » للمقدسيِّ .

{ ١٦٥ } « مختصر صحيح مسلم » للألباني .

{ ١٦٦ } « مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهميَّة والمعطِّلة » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ١٦٧ } « مدارج السَّالكين » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ١٦٨ } « مُراعاة أحوال المخاطبين » لفضل إلهي ظهير .

{ ١٦٩ } « المستدرك على الصَّحيحين في الحديث » للحاكم .

{ ١٧٠ } « المسند » لأحمد بن حَنْبَلٍ الشَّيبانيِّ .

{ ١٧١ } « المصنَّف » لعبد الرزَّاق الصنعاني .

{ ١٧٢ } « المصنف » لابن أبي شيبة .

{ ١٧٣ } « المعجم الكبير » للطَّبرانيِّ .

{ ١٧٤ } « مُعْجَمْ المناهي اللَّفظيَّة » لبكر بن عبد الله أبو زيد .

{ ١٧٥ } « المغازي » لابن إسحاق .

{ ١٧٦ } « المغني » لابن قُدامة .

{ ١٧٧ } « مفتاح دار السَّعادة » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ١٧٨ } « مناقب أحمد » لابن الجوزيِّ .

{ ١٧٩ } « مناقب الشَّافعيِّ » للرَّازيِّ .

{ ١٨٠ } « مناقب الشَّافعي » للبيهقيِّ .

{ ١٨١ } « مناهج الجدل في القرآن الكريم » لزاهر الألمعي .

{ ١٨٢ } « المنتقى من مكارم الأخلاق » للخرائطي ، انتقاء أبي طاهرٍ السَّلفيِّ .

{ ١٨٣ } « منهاج السُّنَّة النَّبويَّة » لابن تيمية .

{ ١٨٤ } « المنهاج بترتيب الحجاج » لأبي الوليد الباجي .

{ ١٨٥ } « الموافقات في أُصول الأحكام » للشاطبيِّ .

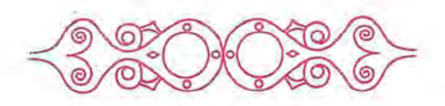
{ ١٨٦ } « نقض المنطق » لابن تيميَّة .

{ ١٨٧ } « النُّونيَّة » لابن قيِّم الجوزيَّة .

{ ١٨٨ } « النُّونيَّة » للقحطانيِّ .

{ ١٨٩ } « هجر المبتدع » لبكر بن عبد الله أبو زيد .

الفهرس




دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧-١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠٥٢٢٢٠٠٢/٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com
دار القمة